© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشارا التحرير: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات
ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٢» شتاء وربيع ٢٠١٩

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **الذكرى الواحدة والسبعون للنكبة**

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

١٣ **برنارد ريغن:**
مائة عام على وعد بلفور

د. فيصل دراج

٣١ **منفصلون لكن متساوون**
...قانون أساس القومية

شذى يحيى

٤٥ **القضية الفلسطينية والتوصيات**
في التقرير الإستراتيجي الإسرائيلي
السنوي الصادر عن مركز
أبحاث الأمن القومي - جامعة
تل أبيب ٢٠١٩-٢٠١٨

عليان الهندي

٦٣ **النكبة الثقافية الفلسطينية:**
الجذور والنتائج

عزيز العصا

أوراق عربية

٧٩ **أكثر من نصف قرن**
على النكبة العربية الثانية

محمود الورداني

٨٧ **بين يدي التنمية البشرية الانسانية**

عبد الفتاح القلقيلي

٩٧ **أي منظومة قيم لحاضر**
ومستقبل بني البشر نحن
بحاجة إليها اليوم؟

سهيل فرح

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٠٣ **عن سياسات الهوية والقومية في فيلم «الهوراي بومدين.. ثائر يبني دولة»**
أحمد عز الدين أسعد

١١٧ **الحلف غير المقدس.. المشايخ ورب الدم العبري**
سعد القرش

أوراق ثقافية

١٢٥ **جدلية الفضاء والشخصية الروائية في رواية «راكب الريح»**
د. رياض كامل

١٤٧ **ليلى الأطرش: تظل الرواية ملاذي**
بديعة زيدان

١٦٣ **محمود درويش ومركز أبحاث م.ت.ف**
عبد الحميد محمود أبو النصر

١٧١ **زينب شعث.. «نداء فلسطين العاجل» قلت: أستطيع أن أفعل ذلك!**
يوسف الشايب

أوراق المؤسسة

١٨١ **ملتقى الحوار الخامس القاهرة ٢٠١٩/٢/٢٧م**

الذكرى الواحدة والسبعون للنكبة

مرت الذكرى الواحدة والسبعون هذا العام والقضية الفلسطينية تواجه أصعب التحديات، تواجه تغوّلاً إسرائيلياً يمينياً استيطانياً عنصرياً استعمارياً يتماهى مع سياسات استعمارية أميركية تعمل على إزاحة المرجعيات الدولية، والتعدي على القانون الدولي، وتصفية الانجازات التي حققتها الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى نصف قرن من الزمن.

وتواجه على الصعيد الداخلي تحدي الانقسام وتداعياته على الجبهة الداخلية ووحدتنا الوطنية.

تتماهى السياسة الإسرائيلية اليمينية الاستيطانية الاستعمارية وتلعب دورها الوظيفي في السياسات الشرق أوسطية للإدارة الأميركية وخطتها المرتقبة.

لقد كثر الحديث عن هذا الموضوع الذي لخّصه البعض بوصفه ما يسمى بصفقة القرن، وهو وصف مراوغ أحادي النظرة يضيّق مفهومه، ويحصره فقط بما يُبيّت لنا نحن الفلسطينيين من مصير وتصفية للقضية الفلسطينية، ويتجاهل الإطار العام للسياسة الأميركية ببعدها الإقليمي والدولي، وما تضمره من مصائر تعيد انتاج السياسات الاستعمارية على الشرق الأوسط بأكمله.

إنّ المماطلة في اعلان هذه السياسات تنم عن محاولة تعبيد الطريق وخلق الظروف المناسبة محليا وإقليميا ودوليا لهذه السياسة الاستعمارية وفرضها كأمر واقع علينا وعلى المنطقة بأكملها متجاوزة القانون الدولي والأخلاقيات العالمية، والرأي العام العالمي.

وما تشهده ساحتنا الفلسطينية من حرب استنزاف تشنها إسرائيل علينا عسكريا وقوانين عنصرية وتغوّل غير مسبوق الاّ محاولات لبناء مداميك هذه السياسات في عقولنا وتقليل سقف توقعاتنا والمس بحقوقنا وفرض أمر واقع محلي وعربي ودولي يتجاوز القانون الدولي والشرعية الدولية.

لذا فإننا نحتاج في هذه المرحلة لاستعمال عقولنا قبل عواطفنا، ونحتاج الى المعرفة التي تجلي

الغموض عمّا هو مبيت لنا ولمنطقتنا واقليمنا وللقانون الدولي لكي نفكّر بشكل أفضل، ونعرف كيف نحقق حقوقنا ومصيرنا ولا نترك الأقدار ومكر التاريخ أن يحددا هذا المصير، ولكي نضع السياسات الرسمية والشعبية التي تحمينا وتحمي قضيتنا وتواجه بشجاعة مكر القوة الاستعمارية التي تمثل التحالف الأميركي الصهيوني.

على مدى العقود السبعة الماضية تعرضت القضية الفلسطينية للعديد من مشاريع التصفية التي تعاملت مع شعبنا كشعب لاجئين، مشاريع توطين في المنافي والشتات، ولم تتعامل معه كشعب له حقوق في العودة وتقرير المصير، ومن بينها (مشروع جونسون ١٩٥٣، مشروع دالاس ١٩٥٥، مشروع ريغان ١٩٨٢) لكنّ هذه المشاريع فشلت وواجهها شعبنا بقوة، ولم تجد من يقبل بها.

وعلى مدى العقود السبعة الماضية قاوم شعبنا وصمد في صراع البقاء، وظهر من بين صفوفه جيل العمالقة الذي أطلق الثورة والكفاح المسلح، فكان الكفاح يزرع والسياسة تحصد. وحولت الثورة شعبنا من طوابير لاجئين الى شعب له حقوق يناضل من أجلها ،وبالكفاح والتضحية والفداء تصدّرت القضية الفلسطينية الوضع الدولي، وحققت إنجازات في الساحة الدولية ونالت الإعتراف بحقوقنا في الأمم المتحدة، وتحقق الاعتراف بالدولة الفلسطينية، ورُفع علم فلسطين في الأمم المتحدة، وانضمت دولة فلسطين الى منظماتها الدولية، ومنها منظمة اليونسكو، ومحكمة الجنايات الدولية، على مدى سبعة عقود صمد شعبنا ،وواجه مكر التاريخ، وابتدع للنضال اشكالا شتى، واجترح المقاومة الشعبية والانتفاضة، وعجز الاحتلال والسياسات الاستعمارية عن تدجينه أو بتخفيض سقف حقوقه، واستطاع أن يوسع معسكر الأصدقاء، وأن يوصل عدالة قضيته الى عمق الرأي العالمي، والى الأخلاقيات العالمية، وأن يعرّي الاحتلال ومن يدعمه، وأن تبقى شعلة كفاحه مشتعلة الى أن تبزغ شمس فجر الحريّة العنيد.

في خضم السياسات الأميركية التي تعدّها للشرق الأوسط بتشكيل حلف تكون لإسرائيل فيه اليد الطولى، ويغيب فيه الحق الفلسطيني، وتعيد فيه السياسات الاستعمارية البائدة مثل حلف بغداد الفاشل، هذه السياسات ليست قدرا ،ولم تكن سياسة أميركا قدرا في هذا العالم، ولم تستطع أن تفرض علينا حلا في كل عهود رؤسائها، ولن تجد قيادة فلسطينية ولا شعبا فلسطينيا يوقّع على اتفاق ينتقص من حقوقنا، ويكرّس الاحتلال على وطننا، وليس منّا وليس فينا من يفرّط بذرة تراب من تراب القدس كما قال الزعيم والرمز ياسر عرفات.

وفضلا عن ذلك لن تقبل الشعوب العربية تسليم زمام سيادتها لإدارة ترامب ونتنياهو، فالشارع

العربي نزل الى الشوارع في الجزائر والسودان من أجل الكرامة والحرية على سبيل المثال، وجذوة الحرية والتحرر ما زالت شعلتها مضيئة في قلوب كل الشعوب العربية.

ما يسمى صفقة القرن وسياسات وخطط أميركا للشرق الأوسط مآلها الفشل، ومآلها هزيمة لترمب وسياساته المتهورة، وهزيمة لنتنياهو ويمينه العفن.

إنّا هنا باقون.

إنّا هنا باقون.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

برنارد ريغن: مائة عام على وعد بلفور

د. فيصل دراج *

في هذا الكتاب الذي صدر عام ٢٠١٧ وعنوانه "وعد بلفور"، ما يلفت النظر: فمؤلفه باحث إنجليزي مدرك لتاريخ بلده الاستعماري، والوعد المشؤوم، كما كنا نقول ولا نزال، مر عليه قرن من الزمن، أعلن عن الأبعاد الإجرامية التي تضمنها، والكتاب موثق وبالغ التوثيق، اعتمد على دراسات متعددة، وأبحاث جامعية غير منشورة، وأوراق خاصة، كتلك الخاصة بمحمد علي الطاهر، وعلى أرشيف واسع: الأرشيف الوطني في المملكة المتحدة، وأرشيف الحكومة ووزارة الخارجية ومكتب المستعمرات ومركز الشرق الأوسط، إضافة إلى حوار مع أطراف متعددة ذي صلة،...

وإذا كان في الكتاب ما يفسّر، معرفياً، أسباب جريمة لا تزال آثارها مستمرة إلى اليوم، فإن فيه أبعاداً معرفية ـ أخلاقية ـ ، تشهد على وحشية الاستعمار الإنجليزي، التي ترى إلى موت الشعوب المستضعفة، بحثاً عن الربح وتأمين المصالح الخاصة.

١ـ لماذا استعمار فلسطين:

استهل الباحث كتابه «ببداهة استعمارية» تقول: إن تأمين المصالح الأمبريالية الإنجليزية يسوّغ الوسائل التي يحتاجها، لا فرق إن اخترعت حقوقاً مزورّة ودمرت حقوقاً مشروعة، ولا إن أصطنعت شعباً لا وجود له و»استأصلت» شعباً واضح التاريخ والثقافة.

مايز ريغن بين الاستعمار الإنجليزي في القرنين الثامن والتاسع عشر، وما أصبحه في مطلع القرن العشرين. فقد كانت بريطانيا، قبل عام ١٩١٧، قوة كولونيالية مسيطرة في «الشرق الأدنى»، عبّرت

* كاتب وناقد - فلسطين

عن ذاتها في احتلال مصر عام ١٨٨٢ وتحوّلت، من نهايات القرن التاسع عشر، إلى إمبريالية ذات أهداف جديدة، أو متجددة. فبينما سعى الاستعمار، في شكله الكولونيالي، إلى السيطرة على «البلدان المتخلّفة»، والتحكم بتطورها، اتكأت الإمبريالية الصاعدة على نمو سريع لرأس المال، تطلع إلى احتكار الأسواق ونهب المواد الأولية الثمينة والإشراف على طرق المواصلات.

أسهمت الإنجازات الهائلة للثورتين الصناعية والتقنية في نمو متسارع للاقتصاد الإنجليزي، دفع إلى البحث عن أسواق جديدة في ما وراء البحار، قابلة للاحتكار وإفشال تنافس القوى الاستعمارية الأخرى. أولت الإمبريالية «الوليدة» اهتماماً خاصاً بمصالحها الاقتصادية، وأشرفت عليه الحكومة وأمنّت له ما يحتاج من رؤوس الأموال، وخلقت شبكة من المصارف الضرورية من أجل ذلك، أفضت إلى مؤسسات مالية قوية مقررة حال: بارينجر وروتشيلد، ...

لم يكن في فلسطين موارد طبيعية تثير اهتمام الإمبريالية الإنجليزية، فما لفت النظر تمثّل في موقعها الإستراتيجي المتميز، المرتبط بخطوط المواصلات، التي توليها الإمبريالية أهمية خاصة، وخاصة الإشراف على قناة السويس. ذلك أن تلك الخطوط تتحكم بطرق التجارة وتؤثر، تالياً على استيراد المواد الأولية وتصديرها، إضافة إلى كونها تحاصر طموح القوى المنافسة، مثل الفرنسية والألمانية. أراد الإنجليز، على سبيل المثال، تأمين سيطرتهم على خطوط المواصلات، الممتدة من الموصل إل حيفا، واعتبروها عنصراً حاسماً في تأمين «مصالح الإمبراطورية»، ووسيلة لا بد منها لحماية نفوذهم في «الشرق الأدنى»، الذي تقع فيه دول حديثة الولادة: لبنان، سوريا، فلسطين، إسرائيل، الأردن والعراق.

وعلى خلاف الفرنسي نابليون بونابرت، الذي وعد اليهود بالعودة إلى أراضي أجدادهم، حين غزا مصر بعد الثورة الفرنسية عام ١٨٧٩، فإن الحكومة البريطانية لم تكن مشغولة بالوطن القومي اليهودي، كما يذهب المؤلف، فقرارها في نهاية ١٩١٧، أملته المصلحة الخاصة التي تزامنت مع الطموح الصهيوني. فقد رأى الإنجليز إدراج هذا الطموح في غاياتهم الإمبريالية، لا أكثر. اعتقدوا أن الاستيطان اليهودي يمكن أن يدعم مآربهم الخاصة، وأن الصهيونية يمكن أن تكون نافعة في إطار الإستراتيجية الإنجليزية في الشرق الأدنى. كانت فلسطين، آنذاك، قد غدت مستعمرة دون أن يكون فيها، لزوماً، امتيازات مستقلة ونهائية لليهود.

يقول برنارد ريغن في مقدمة كتابه: «يركّز هذا الكتاب على تطور السياسة كما عبّرت عنها قرارات الحكومات الإنجليزية. ومع أن مصادر متعددة أسهمت في صياغته، فإنني توقفت ملياً أمام الأوراق الرسمية التي تضمنتها الأرشيفات الوطنية. وسبب هذا التوقف صادر عن رغبة في تعيين الدور

الذي لعبته الحكومة الإنجليزية في الوقائع التي أعقبت احتلال فلسطين عام ١٩١٧. وتكشف هذه الأوراق أن وعد بلفور لم يكن محصلة لتوافق بين أفراد ولا حتى لتوافق مجموعات من الأفراد ولكنه كان، أولاً وأخيراً، أثراً لإرادات قوى إمبريالية مشغولة بأهدافها الخاصة..". ولعل الآثار الناتجة عن سقوط الإمبراطورية العثمانية، كما التنافس الإنجليزي والفرنسي والمعارضة العربية، إضافة إلى التفويض الذي منحته هيئة الأمم للانتداب الإنجليزي، كل ذلك أفضى إلى وعد إنجليزي لا ينقصه الالتباس.

أفضت التغيرات، التي تلت الانتداب الإنجليزي، المتمثلة في التدخل الإنجليزي في حياة المجتمع الفلسطيني الاقتصادية والسياسية، إلى «إنكماش» الالتباس المشار إليه، وإلى اجتهاد الإنجليز في تحقيق «الوطن القومي اليهودي»، ذلك أن الإنجليز قاموا بإعادة تشكيل المجتمع الفلسطيني بما يوائم المصلحة الصهيونية، أكان ذلك في تخريب حياته السياسية بالقوة، والمتمثلة بأدوار الأعيان المتوارثة، أو في إفقار الفلاحين وتفكيك البنية الاقتصادية الفلسطينية.

٢ـ إضاءة: نفوذ صهيوني متعدد الوجوه

توقف المؤلف في الفصل الأول من كتابه: (الحرب، الإمبراطورية وفلسطين) أمام اهتمام القوى الإمبريالية بفلسطين، وألمانيا بخاصة، وأمام قضية تثير الفضول، محورها اهتمام تلك القوى بالمشروع الصهيوني، من ناحية، ونفوذ الصهيونية في بعضها، من ناحية ثانية.

لم تكن بريطانيا الدولة الوحيدة التي دعمت المشروع الصهيوني، بأقساط مختلفة، ولم تكن الصهيونية ترى في الأولى، وحيدة، مرجعاً لها. فقد ظفر ثيودور هيرتسل بدعم القيصر الألماني فيلهلم الثاني الذي حاول بدوره، إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بدعم الصهيونية. كانت برلين مركز الحركة الصهيونية العالمية، بعيداً عن روسيا اللاسامية، وعمل الصهاينة الألمان مع وزارة الخارجية الألمانية لتأسيس لجنة «لتحرر اليهود الروس»، آملين أن تحتل ألمانيا روسيا الغربية، حيث يتمركز اليهود وتفرض، تالياً، حكومة أقل معاداة للسامية.

بل رأى بعض المراقبين الإنجليز، قبل الحرب العالمية الأولى، أن الصهيونية قريبة من ألمانيا، وأن هذا التقارب جدير بالمراقبة والمتابعة. وعلى نحو أقل عبّر بعض المسيحيين في ألمانيا عن دعم للاستعمار اليهودي لفلسطين، متطلعين إلى برلين مسيحية خالصة، متحررة من التأثير اليهودي. غير أن الارتباك النسبي، الذي هو احترازي أكثر مما هو فعلي، لدى الإنجليز والصهاينة ما لبث أن انقشع، بعد دخول الجنرال الإنجليزي أدموند اللنبي إلى القدس في الحادي عشر من كانون الأول عام ١٩١٧،

الذي رأى فيه القادة الصهاينة خطوة أولى حاسمة باتجاه «الوطن اليهودي في فلسطين»، «دون ان يغفلوا إمكانية بدائل أخرى إن لم يحققوا هدفهم».

يرسم المشهد السياسي العالمي، قبل هزيمة العثمانيين بجيش عربي يدعمه الإنجليز، دائرة من الخداع، إذ الإنجليز «يتخوّفون» من تقارب صهيوني ـ ألماني، ويضعون مع حلفائهم الفرنسيين اتفاقية سايكس ـ بيكو، التي أقرّت تمزيق العالم العربي، ومرّت همساً على طموحات اليهود، وقائد صهيوني يقنع القيصر الألماني بإقناع السلطان العثماني بدعم الصهيونية، والإنجليزي السير هنري ماكمهون يقنع شريف مكة بأنه مع «تحرر العرب ووحدتهم»، والجنرال الإنجليزي المنتصر في القدس، يشعر مسلمي فلسطين بأنه جاء لتحريرهم من سلطة عثمانية مسلمة، شاهراً، في الوقت ذاته، جملته الشهيرة: «الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين..». والواضح في هذا كله إمبرياليات تتفق على مبدأ: المصلحة، وطموحات صهيونية مندرجة في المصالح الإمبريالية، والواضح «المستتر»ضعف الشعب الفلسطيني، الذي كان عليه أن يقاتل في معركة خاسرة.

فصل الخداع بين السياسة والأخلاق فصلاً كاملاً، فجاء بلفور بتصريح يشوبه الغموض، وأوعز ماكمهون إلى العاملين معه بالامتناع عن كل تصريح يفضي إلى زعزعة ثقة «شريف مكة» بالإنجليز، الذي اعتقد أنهم يصدقونه القول. قام الأمر كله على «الإرجاء»، إذ ما لا يمكن البوح به قبل انتصار اللنبي يذاع بعد انتصاره، وما لا يصرّح به الإنجليز قبل هزيمة العثمانين، بأدوات عربية، يعرف طريقه إلى العلن بعد هزيمتهم ، وقام أيضاً على «مجانية الاستعمال»، حيث للكلام بلاغته، وللفعل أدوات وسبل مغايرة.

ومع ان المؤلف برنار ريغن استبعد «التآمر الإنجليزي»، مشيراً إلى توافق استعماري متعدد العناصر، فإن كتابه يقول بنفوذ صهيوني واسع لدى النخبة السياسية الإنجليزية المقررة. فعضو البرلمان النافذ د.س.إمري، الذي اعتبر احتلال فلسطين ضرورياً لحماية المستعمرات الإنجليزية في شرقي إفريقيا، كان متعاطفاً مع الصهاينة وداعماً للصهيوني الشهير جابوتنسكي. وونستون تشرشل، عضو البرلمان الذي غدا وزيراً للمستعمرات، كان مؤمناً بضرورة قيام «الوطن القومي اليهودي»، وكان بين بلفور رئيس الوزراء ورجل المال الصهيوني روتشيلد مودة متبادلة، وكذلك حال هربرت صموئيل الذي غدا لاحقاً ممثلاً للانتداب الإنجليزي في فلسطين، ولن يختلف الأمر مع مارك سايكس»، الذي وضع مع الفرنسي بيكو الاتفاق الشهير.

أفضى التقارب بين القادة الصهاينة والنخبة السياسية الإنجليزية إلى أمرين، أُنجزا قبل إنجازهما: أصبحت الصهيونية، وبعد وعد بلفور مباشرة شريكاً فاعلاً في السياسة الإنجليزية في فلسطين وتبدّد،

ثانياً، الافتراض الإنجليزي المخادع القائل بأن «الوطن القومي سيكون محمية تحت الإشراف الإنجليزي»، ذلك ان «الشريك الصهيوني» حصل، سريعاً، على ما يحتاج من الحماية والسلاح وتأمين انتصاره، حتى بدا مستقل القرار، بينما سلك الإنجليز سياسة إضعاف المجتمع الفلسطيني في جميع المجالات.

تنتهي المعطيات السابقة إلى نتيجة لها شكل البداهة: إذا كانت دولة إسرائيل قد قامت، فعلياً، قبل قيامها، زمنياً، فإن وعد بلفور بدوره كان قائماً قبل قيامه. فالسياسي لويد جورج، الذي أصبح رئيساً للوزراء، كان على وفاق مع الحركة الصهيونية منذ عام ١٩٠٣، منذ أن عمل على صياغة إتفاق بين الصهيونية والحكومة، التي كان يرأسها جيمس آرثر جيمس بلفور، وحاييم وايزمن أخذ وعداً من تشرشل عام ١٩٠٤، قبل أن يقابل بلفور عام ١٩٠٦، والتزم هربرت صامويل «بالحلم الصهيوني»... عام ١٩١٤، حين قدم تقريراً إلى الحكومة عنوانه: «مستقبل فلسطين».

ولذلك وضع المؤلف في كتابه عنواناً ثانوياً: «مناقشة المشروع الصهيوني»، ألحقه بعنوان صغير: الداعمون، الذي ذكر الأسماء السابقة وغيرها.

أضاف المؤلف انسجاماً مع فرضيته، التي تستبعدها جاهزية وعد بلفور قبل إعلانه، فقرة عنوانها: المعارضون. لا معنى للتوقف أمام أسمائهم ومواقفهم، لأنهم لم يؤثروا في شيء، قبل الإعلان وبعده ولم يستطيعوا، لاحقاً، أن يقدموا مفيداً لكفاح الشعب الفلسطيني.

٣ـ تهديم الانتداب للمجتمع الفلسطيني

أوكل الانتداب إلى نفسه إدارة فلسطين، وشرّع ما أراد في «المادة السادسة»، التي وعد فيها، سريعاً، بأنه لن يجحف الفلسطينيين حقوقهم، وبأنه «سيسهلّ هجرة اليهود، وفقاً لشروط ملائمة، وسيشجع، بالتعاون مع المؤسسة اليهودية،...، استيطان اليهود الأرض، أكانت أراض للدولة أو أرضاً بوراً لا تستخدم في أغراض عامة.

تأخذ الأرض في هذا المنظور دلالتين مترابطتين: فهي هدف اليهود المتكالبين على شرائها ومصادرتها، وهم الذين وعدوا بأن يصلوا إلى المليون، بعد وعد بلفور بعشرين عاماً ويكونوا قادرين، تالياً، على الدفاع عن المصالح الإنجليزية، وفي شرقي إفريقيا بخاصة والأرض، أيضاً، قاعدة المجتمع الفلسطيني. ذلك أن الغالبية الساحقة من الفلسطينيين تعمل في الأرض، أو في مجالات لا تنفصل عن الإنتاج الزراعي، بما في ذلك النشاط الصناعي المحدد، حال صناعة الصابون في نابلس، وحياة الفلاحين القائمة على زراعة الأرض.

ولعل أهمية الأرض بالنسبة للمجتمع الفلسطيني، كما الانتداب الهادف إلى تمكين اليهود منها، هي التي تفسر تدخل الانتداب في قوانين الأرض العثمانية، بشكل يسهّل بيع الأرض ويصادر أقدار الفلاحين وتتيح لليهود، تالياً، تسرّباً مريحاً إلى أراضي الفلاحين. أكثر من ذلك، أن الفلسطينيين، أتجاراً كانوا أم مالكي أرض أو فلاحين، كان هدفهم إنتاج فائض زراعي، يعيد إنتاج الحياة الاجتماعية في مرافقها المتعددة. غير أن ملّاك الأرض، كما الذين يعملون فيها، واجهوا تحدّيات صعبة، بسبب السياسية الانتدابية، الموطّدة بتوسّع التجارة الإمبريالية، ما حول الوضع الزراعي الفلسطيني إلى مجموعة من السلع، التي تخضع لتقلّبات السوق ومعايير الربح، قبل أن تلبّي الحاجات الاجتماعية الوطنية.

وإذا كانت الزراعة الفلسطينية قد خضعت، منذ الفترة العثمانية، إلى نظام ضريبي ثقيل استهلك ستين بالمائة من الدخل الزراعي، فإن السياسة الانتدابية قذفت بها إلى وضع أكثر صعوبة، ما ألجأ الفلاحين إلى القروض في بلد لم يعرف، حتى عام ١٩٣٠، المصارف. وزاد الأمر ثقلاً المهاجرون اليهود، الذين اعتمدت زراعتهم على تقنيات متقدمة، تتيح لها التراكم والمنافسة. لم يلتفت الانتداب، بداهة، إلى شقاء «الفلاح» الفلسطيني، فهم من أسباب تزايده، ولم يلامس ذلك إلا عام ١٩٣٠، لأسباب ذات علاقة بتذمّر الفلاحين وبالوضع الفلسطيني بعامة. كتب السير جون هوب سيمبسون، بناء على تكليف رسمي تقريراً عنوانه «فلسطين»، الهدف منه استراتيجية تكفل تطور الصناعة والزراعة والوضع الاقتصادي بشكل عام. قارب فيه، أيضاً، دور «الصندوق القومي اليهودي»، الذي كان «يقتنص» الأرض بوسائل ملتوية ولا يتنازل عن مبدأ «العمل اليهودي». بل كان في استراتيجية هذا الصندوق ما «ينتزع» الأرض من تاريخها، فالأرض التي «يقتنصها» غير قابلة للبيع أو التأجير لأي شخص فلسطيني.

أفضت السياسة الزراعية الانتدابية إلى نتائج كارثية، فالضرائب على القروض بلغت ٣٠٪ في وسط فلاحي فقير ومثقل بالديون يدفعه اليأس، أحياناً، إلى التخلي عن الأرض والبحث عن عمل في المدينة. أشار سمبسون إلى أن ٢٩,٤ من العائلات في القرى لا أرض لها، بل أن هذه النسبة ترتفع إلى ٦٤,٢ في مناطق مجاورة لمدينة حيفا. انتهى الوضع كما أراد الانتداب إلى الشكل التالي: لم يكن لدى الفلاح ما يصلح به أرضه، وأكثر من ذلك أنه مثقل بالديون، ولا قبل له بدفع الضريبة المترتبة على قرضه، وهذا الفلاح كما يعترف سيمبسون: «ذكي مجدّ في عمله يتطلع بحسرة إلى الارتقاء بأوضاعه وتحسين مستوى حياته. ولم يحظَ في ماضيه بمعاملة عادلة.

لم تصدر تراجيدية وضع الفلاح عن طبيعة الأرض في فلسطين، بل عن سياسة إنجليزية إجرامية اجتهدت في تهجير الفلاح وتدميره. ولهذا يقول مؤلف الكتاب بنبرة معتدلة: «وضع البريطانيون

بشكل مستمر العراقيل في طريق كل ما يقدم حلاً لوضع الفلاحين»، مؤكداً ما اعترف به سمبسون الذي قال: «المستوى المنخفض للإنتاج ليس نتيجة لبعض القضايا المحايثة للشعب الفلسطيني. والإجابة الصحيحة لقضية الأرض مرتبطة، عضوياً، بحل القضية القومية». تحيل «القضية القومية»، فلسطينياً، على جملة أبعاد تستنزف جهد الشعب الفلسطيني، فالانتداب يعرقل كل إصلاح زراعي محتمل، واليهود يقتنصون الأرض بوسائل مختلفة، والضرائب تقصم ظهر الفلاح والديون تتركه عارياً، وعلى الفلسطينيين أن يدفعوا تكاليف إصلاح الطرقات ووسائل المواصلات والمرافق العامة، امتثالاً لمبدأ استعماري عجيب، يملي على المستعمَر (بفتح الميم) أن يؤمّن ما يحتاج إليه المستعمِر (بكسر الميم)... وفي مقابل ذلك كان لليهود، مواردهم المالية الخارجية، وتسهيلات انتدابية للقروض وتشجيع لمصارفهم وجمعياتهم التعاونية ولهم موقع متميز في الوظائف الإدارية، يضاف إلى ذلك كله تأثيرات السوق العالمية، التي لا يستطيع الاقتصاد الفلسطيني تفادي آثارها إلا بمشقة هائلة.

دلل المؤلف على انحياز الانتداب إلى طرف وقهره للطرف الآخر، وآية ذلك حالة «بنحاس روتنبرغ»، ذلك الصناعي الصهيوني الذي ولد في أوكرانيا وأصبح «متعهداً» في فلسطين. فقد فوضت إليه سلطات الانتداب التصرف في «شركة الكهرباء الخاصة بفلسطين» ـ ١٩٢٣ ـ الأمر الذي أعطى الشركة، إدارة صهيونية، بينما كانت الاقتراحات الفلسطينية تقابل بالرفض. وواقع الأمر أن قوى الانتداب سيطرت منذ منتصف العشرينات على الاقتصاد سيطرة كاملة وعلى القواعد المصرفية، وأصبح «الجنيه الإسترليني» هو العملة المتداولة في المجتمع، ما جعل السياسة الاقتصادية الفلسطينية أمراً لا علاقة له بالفلسطينيين. من نافل القول، في هذا المجال، أن تكون الصناعات الناشئة اختصاصاً يهودياً حصرياً، بعد أن جمعت بين الدعم المالي الضروري والخبرة التي اكتسبها اليهود في البلاد الأوروبية التي جاءوا منها، حال اليهود البولنديين الذين نقلوا خبرتهم في الصناعة النسيجية إلى فلسطين.

جمع الانتداب بين عنصرية عفوية وعدوانية واضحة الأهداف و»هندس» لا تكافؤاً صارخاً بين حقوق العرب وحقوق اليهود. ولهذا دعم الوجوه السلبية الموروثة من الزمن العثماني، وأعاد صوغها كي تجعل من الفلاح الفلسطيني «خادماً» في المدن، وحاصر طموحات التجارة، وأنتج نظاماً تعليمياً يلبي أهدافه وألحق به موظفين يسترضونه، وتعامل مع أعيان مشغولين بمصالحهم، وضيّق على الشعب الفلسطيني في جميع طبقاته، ... أرتكن في النهاية إلى سياسة إنجليزية صهيونية الأهداف والأدوات، كما لو كا دوره «التحريري» المفترض، تعميق ما هو متخلّف في المجتمع الفلسطيني، ومطاردة العمل الفلسطيني الوطني المتطلع إلى الارتقاء ومقاومة الاستيطان.

ولهذا يقرأ الفلاح الفلسطيني، كما تبرهن الأرقام والوقائع التي تضمنها كتاب برنارد ريغن، في

صورتين: الصورة العثمانية التي خلفت مجتمعاً فلاحياً أميّاً، منقطعاً عن وسائل الحضارة الحديثة، والصورة الاستعمارية الإنجليزية، وهي أسوأ من الأولى، قوامها التنكيل والإفقار الموضوعي والنهب بالقوة، على اعتبار أن الحياة الزراعية كانت عماد الحياة الاجتماعية في فلسطين.

٤ ـ استبداد اللاتكافؤ بين الوطني والوافد

كتب المؤلف تحت عنوان: «الطبقة العاملة الفلسطينية والهستدروت»: «هؤلاء الفلاحون الذين أبعدوا عن أرضهم وانتهوا إلى البحث عن عمل في مدن وبلدات بعيداً عن قراهم» كأن يعملوا على سبيل المثال، في تنظيف الشوارع في يافا، أو في شركات التبغ والسجائر في صفد، حيث يتلقون أجراً أقل بكثير من أجر المرأة اليهودية العاملة، التي أجرها، بدورها، أقل من العامل اليهودي». يتكشف في هذا مجدداً، التمييز العنصري الفاحش، الذي ارتكن إليه وعد بلفور، وقد أعيد إنتاجه بشكل موسع في مرافق الحياة الفلسطينية، وفقاً لصيغة بالغة العنف: المستعمر الأوروبي المسلّح في مواجهة الفلاح الفلسطيني العثماني الأعزل، الذي لا يعرف القراءة والكتابة، ويرى في السلطة مرجعاً أعلى لا يجرؤ على الاقتراب منه. ألحق هذا الفلاح البسيط بجيش الانتداب، في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ـ خسائر فادحة، ألجأته إلى وسائل عقابية متوحشة، مثل «البراميل المتفجّرة» التي ألقتها الطائرات على القرى، ولم تكن مألوفة الاستعمال آنذاك.

في مقابل فلاح فلسطيني يعمل بأجر زهيد، حيث يتاح له العمل، يقف عامل يهودي يعمل عند «اليهود» في شروط مقبولة، تدافع عنه نقابة يهودية سبقت وعد بلفور، زادت نشاطاً وتنظيماً أثناء الاحتلال الإنجليزي لفلسطين. فقد وسع الهستدروت (التنظيم العام للعمال في أرض إسرائيل) نشاطه وأنشأ اتحاد العمال الزراعيين في ١٩١١، ووطّد مواقعه بين عمال يهود في حيفا عام ١٩٢٠. أصبح عنصراً أساسياً في الاستيطان اليهودي، إذ بلغ عدد المنتسبين إليه ثلاثين ألفاً عام ١٩٣١، شملت جميع أرجاء فلسطين. ومع أن النقابة تهتم، نظرياً، بحقوق العمال، حملت الهستدروت، منذ البداية، أبعاداً سياسية، وأناط بها أحد مؤسسيها ديفيد بن غوريون دوراً في بناء الوطن القومي وتوليد أغلبية يهودية في البلاد، على «اعتبار أن الشخص الوحيد القادر على تكوين هذه الأغلبية بلغة بن غوريون هو العامل اليهودي في أرض إسرائيل». سعت الهستدروت إلى تشكيل كتلة عمالية يهودية متجانسة سياسياً، أي صهيونية الانتماء، كما دعمت المستوطنات اليهودية، وتأمين العمال اليهود، أكانوا وافدين جدداً، أو استقروا في البلاد منذ زمن. حظيت مبادرتها جميعاً بموافقة السلطات الانتدابية، وفي مجال الأجور بخاصة. فقد أقرت لجنة الأجور عام ١٩٢٦ بأن يدفع للعامل

الزراعي العربي «غير المؤهل» مبلغ ١٢٠ ـ ١٥٠ مليماً في اليوم، فإن كان من أهل المدن فأجره ١٤٠ ـ ١٧٠ ، مقابل أن يدفع لليهودي «غير النقابي» ما يتراوح بين ١٥٠ ـ ٣٠٠، فإن كان عضواً في النقابة كان أجره بين ٢٨٠ و٣٠٠ في اليوم. تكشف هذه الفروق، في وجه منها، عن عنصرية ساخرة، وتشير إلى سياسة اقتصادية ترمي إلى إفقار العامل الفلسطيني، كي لا يتمتع بحقوق المطالبة والاحتجاج. ولهذا كان عادياً أن يطرد العمال الفلسطينيون من النقابات الصهيونية، وأن يتم العمل على إبقائهم خارج أي تنظيم نقابي، وألاّ تدعم الهستدروت محاولات العمال الفلسطينيين في إنشاء تنظيمات خاصة بهم.

لم يكن سهلاً على العمال الفلسطينيين أن ينشئوا تنظيمات خاصة بهم، توازي وتنافس التنظيمات الصهيونية. فقد استفادت الأخيرة من هيمنة الهستدروت الإيديولوجية ـ السياسية، ومن سياسة «العمل العبري»، التي تدفع بالعرب خارج سوق العمل، أو إلى أعمال هامشية، ومن الخبرة النقابية التي جاء بها العمال الوافدون، ... مع ذلك، فقد تطور شكل من العمل النقابي العربي داخل المدن، وتأسست «جمعية العمال العرب الفلسطينيين» في مدينة حيفا عام ١٩٢٥، إذ كانت الأخيرة ميناء هاماً ومركزاً تجارياً فاعلاً. وبسبب التطور السريع للجمعية عملت الهستدروت على إضعافها، ودفعت أموالاً لبناء تنظيم عمالي فلسطيني خاضع للتأثير الصهيوني. وأكثر من ذلك، جاء في كتاب ريغن، أن أطرافاً فلسطينية حاولت تعطيلها بعد تزايد نشاطها في الثلاثينات، بحجة النفوذ الشيوعي في النقابة الفلسطينية، وفقاً «لأعيان متنفذّين» يحسنون الهدم ولا يعرفون من البناء شيئاً.

عملت جمعية العرب العمال الفلسطينيين على تنظيم العمال دفاعاً عن حقوقهم المهددة، التي لا تستوي إلا بالدفاع عن الوطن المهدد والالتزام بالقرار الوطني ـ الجماعي الرافض للصهيونية والانتداب. حملها شعورها بالمسؤولية على «تقييد» نشاطها خلال الثورة الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٦ وتنسيق جهودها مع القوى المقاتلة. عبّرت الجمعية عن العمل الوطني المنظم الذي يقصد المصلحة الوطنية، بعيداً عن الارتجال وعموميات «الأعيان» وحسابات الزعامات المتفردة التي تعطف المصلحة الوطنية العامة على مصالحها الضيّقة. أدخلت إلى الفعل الكفاحي الفلسطيني عنصراً «حداثياً» ذلك أن «النقابة» عنصر كفاحي حداثي لا يأتلف مع أعراف تقليدية، تنصاع إلى العائلة و»الحمولة وصورة «المتزعّم»، قبل أن تتعرّف على مفردات العمل الوطني الجماعي. لم تكن النقابة، بهذا المعنى، بعيدة عن مقولات حداثية أخرى مثل: الحزب والصحيفة واتحاد المرأة، وغيرها من المقولات التي استولدها الكفاح الوطني الفلسطيني، منذ ان وعى الفلسطينيون آماد الخطر الصهيوني الزاحف على وطنهم.

٥ ـ أشكال التعبير الحديث عن الوطنية الفلسطينية

أضاء كتاب برنارد ريغن ثلاثة أبعاد أساسية: الكشف عن الوحدة العضوية بين الهدف الصهيوني وأهداف الانتداب الإنجليزي، بعد وعد بلفور عام ١٩١٧ بشكل خاص، والدور الواعي والدؤوب للانتداب في تهديم بنية المجتمع الفلسطيني، وثالث الأبعاد هو السخرية المضمرة من الادعاء القائل بأن «فلسطين أرض بلا شعب». ولعل البعد الأخير هو ما حمله على التوقف، بشكل كاف، أمام ملامح المجتمع المدني الفلسطيني الذي تكشّف في مجالات متعددة، ليس آخرها ظهور المرأة في الحياة العامة.

لم يكن في المجتمع الفلسطيني، في القرن التاسع عشر وما سبقه، ما يسمح لحضور اجتماعي للمرأة ، فاقتصر دورها على العمل المنزلي، والمساعدة في العمل الزراعي. بيد ان تلمس المجتمع للأخطار الصهيونية أدخل جديداً، ولو محدوداً، إلى حياة المرأة الفلسطينية المقيدة إلى حياة تقليدية تحاصرها أمية طاغية. فقد جاء في بعض التقارير، كما يؤكد المؤلف، أن هذه المرأة «انضمت إلى الرجل، وباندفاع كبير، في مواجهة للمستوطنات الصهيونية، كما هو الحال في العفّولة عام ١٨٨٤، ما يدحض الرأي القائل بأن كفاح المرأة الفلسطينية ارتبط، فقط، بالطبقة الوسطى». ووفقاً للمعلومات المتوفرة تم تأسيس «جمعية النساء العربيات» عام ١٩٢٩، بمبادرة من نساء بعض الأعيان والأطراف المستنيرة. تمثّل دور المرأة «المدينية»، في جمع التبرعات، والتوعية والتعليم في «المدن الكبرى» مثل القدس وحيفا ويافا. فجمعية المرأة في القدس، على سبيل المثال، كانت فاعلة اجتماعياً من ١٩٣١، تُعنى بالفقراء والأطفال والمرضى وإظهار مخاطر الهجرة اليهودية، التي كانت الهاجس الأول في مؤتمر «المرأة العربية» الأول، الذي انعقد في القدس في تشرين أول عام ١٩٢٩. بل أن كفاحية المرأة الفلسطينية عام ١٩٣٣ اعترف بها المندوب السامي السير آرثر جرنفل ووشوب، في مذكرة تحدثت عن «نساء لا يترددّن في الهجوم على البوليس»، ويندّدون بسياسات الانتداب بصوت واحد «لا يفرق بين الإسلام والمسيحية»، ولا بين مواقف النخبة ومطالب عامة الشعب.

أنتج الفعل الكفاحي وعياً وطنياً، مرجعه مواجهة الانتداب المباشرة، بعيداً عن معايير شكلانية تربط بين الوعي والتعليم، فقد كانت نسبة التعليم في فلسطين عام ١٩٣٢، متدنيّة ومحدودة، لا تتجاوز ٢٥ بالمائة للذكور و٣ بالمائة للنساء. ولم يكن ذلك التعليم، في معظم حالاته يتجاوز محو الأمية، باستثناء حالات متعلّمة كان يحتاجها العمل في دوائر الانتداب ما أنتج، ولو بقدر محدود، نخبة متعلمة تابعة. وواقع الأمر أن إهمال التعليم المتعمّد توزع على الحكم العثماني والانتداب الإنجليزي، أملاه استبداد الأول و«طورانيتّه الواضحة»، واعتبره الإنجليز ركناً من أركان تقييد الشعب والاحتفاء بالتجهيل، وتعميق الفرق بين المدينة والريف.

جعل الشعور بالخطر الصهيوني، ومن بداية القرن العشرين، من المعرفة عنصراً ضرورياً للوعي الوطني، فعرفت بعض المدن «المكتبات»، وعرف العمّال أهمية «قراءة الصحف»، ولو عن طريق وسيط، وأخذت بعض الصحف ترسل نسخة منها إلى القرى، وزاد عدد التلاميذ في المدارس، «المقيدة إلى عوائق كثيرة»، بنسبة ١٥٠ بالمائة بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠، وتضاعف عدد المعلمين في المدارس أيضاً. وعرف الفلسطينيون الصحافة، للمرة الأولى في القرن العشرين، عام ١٩٠٨، التي تكاثرت لاحقاً إلى خمس عشرة صحيفة. كان أولها جريدة الكرمل، التي تأسست في كانون أول عام ١٩٠٨ في مدينة حيفا، وأشرف عليها المسيحي الفلسطيني نجيب نصار، الذي قاتل كل حياته ضد الصهيونية، وأغلق العثمانيون صحيفته عام ١٩١٤ واستمر في رسالته الوطنية مدة ثلاثين عاماً. وإضافة إلى صحيفة نصار ظهرت، في حيفا أيضاً، صحيفة فلسطين التي جعلت الكشف عن الحقيقة الصهيونية هدفاً لها، وبذلت جهداً في الدفاع عن الفلاحين والمخاطر التي تهدد «أرضهم». تجدر الإشارة أن مقالات الصحيفتين المعاديتين للصهيونية كان يعاد نشرها في : القاهرة، دمشق، بيروت، واستنبول، كما لو كانتا أداتين في محاربة الصهيونية في فلسطين والبلدان المجاورة لها. انضمت إليهما لاحقاً صحيفة بولس شحادة «مرآة الشرق»، الذي كان عضواً في اللجنة التنفيذية. نقدت هذه الصحف أيضاً «المشهد السياسي الفلسطيني الرسمي»، كأن يكتب شفيق السعدي الشقيري في مجلة الكرمل، في الرابع عشر من شباط عام ١٩٢٦ ما يلي: «منذ بداية الاحتلال الإنجليزي حتى اليوم، لم ألاحظ وجوداً حقيقياً «للحركة الوطنية الحقيقية». فالأكابر، ومن أقل منهم، من أعضاء الحركة الوطنية، من مسلمين ومسيحيين ودروز، رحبّوا بالاحتلال الإنجليزي، على الرغم من أن قادتهم انتبهوا بوضوح أن الاحتلال قرّر أن «يهب» اليهود وطناً قومياً في فلسطين. فالإدارة الإنجليزية بدأت الاحتلال بما يقوم به كل مستعمِر حكيم، إذ أمنّت وظائف لأبناء العائلات الشهيرة المتواطئة معها، لتضمن تعاطفهم ودعمهم وأمور أخرى متعددة».

أخضع الاحتلال البريطاني الصحافة الفلسطينية إلى رقابة ضرورية، وهو ما اجتهد فيه هربرت صمويل المندوب السامي الصهيوني، وأكدته دائرة المخابرات الإنجليزية عام ١٩٢٩، التي اعتبرت أن الصحف الفلسطينية تنشر مواداً «ملتهبة»، وطالب بصحافة "معتدلة"، وبضرورة تشكيل أحزاب "عاقلة"، يشبه دورها الجهد الصهيوني في تخريب الحركة النقابية العربية.

٦. عام النكبة: خلل القيادة وثبات الوعد الإنجليزي:

تنسب صفة النكبة، أو النكبة النكباء، إلى المفكر القومي قسطنطين زريق والمرتبطين أيديولوجياً به وتشير في الحالين إلى عام: ١٩٤٨. أرجعها برنارد ريغن إلى جورج أنطونيوس، الذي رأى في عام ١٩٢٠

اسماً شريراً ودعاه «بعام النكبة». ليس في الصفة ما يحيل على بلاغة مجانية، ذلك أن العام المذكور جاء إلى فلسطين بواقعة مأساوية لن تتغير، تجسّدت في وصول: المندوب السامي الأعلى السير هربرت صامويل ـ في شهر تموز ـ ووطّد دلالتها المندوب السامي، من حيث هو صهيوني عقائدي، عبّرت عن قناعته كاملة في مذكرة قدمها للحكومة الإنجليزية في كانون الثاني من عام ١٩١٥.

وعام النكبة جدير بصفتة لأسباب ثلاثة: فالتصور الاستعماري الذي أملاه على الشعب الفلسطيني بقي ثابتاً، لا تغيّر فيه، إلى عام ١٩٤٨. وتمثّل السبب الثاني في حركة فلسطينية رسمية، تكاد أن تكون شكلانية، قوامها المطالبة المثابرة والإخفاق المثابر أيضاً. والسبب الثالث صدر عن احتجاجات فلسطينية شعبية مقاتلة دارت حول ذاتها طويلاً، ولم تنجب شيئاً، منذ أن وطأت أقدام صامويل تراب فلسطين إلى رحيل قوات بلاده عن وطن الفلسطينيين. فقد أدمنت الإدارة الإنجليزية على المماطلة والتسويف والتعابير المواسية، وأدمنت «القيادة الفلسطينية الرسمية» على القبول و«التفاؤل بالآتي».

ولعل وعي الشعب الفلسطيني بإخفاق التوصيات الصادرة عن المؤتمر الفلسطيني الأول الذي عقد عام ١٩٢٠، كما المظاهرات التي أعقبته، هو الذي أدى إلى إلغاء المؤتمر الثاني، في انتظار المؤتمر الثالث الذي عقد في حيفا ما بين ١٣ إلى ١٩ كانون الأول ١٩٢٠، واتخذ بدوره توصيات لن يكون مصيرها أفضل من تلك الصادرة عن المؤتمر الأول. ومع أن القائد الفلسطيني موسى كاظم الحسيني نبّه ونستون تشرتشل، حين التقاه في القدس في ٢٨ آذار عام ١٩٢١، «إلى الخطر الشيوعي الذي يمكن أن يمتد إلى بلدان عربية أخرى»، فإن المسؤول الإنجليزي لم يجد التوصيات الصادرة عن المؤتمر الثالث جديرة بالإجابة، واكتفى بالقول: «لا أعتقد أن على عقولكم أن تفزع أو تضطرب من المستقبل..»، مكرّراً، بثبات، التزام بلده بإقامة وطن يهودي في فلسطين، وما تمليه من هجرة اليهود أيضاً.

لا يثير الفضول ثبات الموقف الاستعماري، ولكن ما يثيره إلى حدود الدهشة ثبات ممارسة الأعيان الفلسطينيين، الذين عادوا وعقدوا مؤتمراً رابعاً في القدس في التاسع والعشرين من أيار عام ١٩٢١، وقرّروا مرة أخرى إرسال وفد إلى لندن، على الرغم من كفاح شعبي فلسطيني اقترب من الانتفاضة، ذهب فيه ٤٨ شهيداً و ٧٣ جريحاً، كما لو كانت تلك القيادة الثابتة المصالح قد استقرت في عجز نهائي، أو آمنت «بقوة اللغة» التي يمكن أن تثني الإنجليز عن مواقفهم، بعد حين. وعلى هذا، فإن تلك المؤتمرات المتعاقبة التي ينتقدها، ضمناً، المؤرخ الإنجليزي ويعالجها بلغة حيادية «دبلوماسية»، لا تعبّر عن طور من تاريخ فلسطين الحديث فقط، بل عن «تهافت القيادة السياسية» في هذا الطور الخطير. وقد يحيل موقف تلك القيادة إلى قوة الخصم، وهو قوي بما فيه الكفاية،

لكنه يكشف أولاً عن إيمانها القوي بمصالحها الذاتية، المتمثلة بمناصب ذات طابع ديني موزعة على بعض العائلات الشهيرة في القدس.

ربما كان عجز «القيادة الفلسطينية» عن تقديم ما هو «جديد»، كما عجزها عن تنظيم وتطوير الكفاح الشعبي، هو ما دفع تشرتشل إلى «أن يقدم لا شيء» إلى موسى كاظم حين التقاه مجدداً في لندن في آب ـ ١٩٢١ ـ باستثناء تشجيعه على الالتقاء بالزعيم الصهيوني حاييم وايزمن. وواقع الأمر أن في موقف موسى كاظم، الوطني والحاسم في وطنيته، ما يثير الفضول، فهو لا يفسّر بعلم نفس المستضعفين، وهو الذي واجه، شيخاً، البوليس الإنجليزي في مظاهرات اشترك فيها بالقدس، ولا بعلاقة الطبقي بالوطني، التي يقول بها الماركسيون، ولا بالقدرية المؤمنة، التي اعتقدت «أن للقدس رباً يحميها»، والأرجح أن والد عبد القادر الحسيني، كما البعض من «الأعيان»، وهم قلة على أية حال، كانوا يفتقرون إلى الخبرة السياسية العملية، التي تمكنهم من التفاوض مع طرف إنجليزي، يحسن المداهنة والتلاعب باللغة، ويفصل بين الأخلاق والسياسة فصلاً كاملاً. على خلاف القادة الصهاينة الذين كانوا يشعرون «أنهم في بيوتهم»، إذ كان وايزمن استاذاً للكيمياء في جامعة مانشستر، وكان غيره على إلفة مع المجتمع السياسي النخبوي الإنجليزي.

وإذا كان قائداً وطنياً مثل موسى كاظم يفتقر إلى «الحنكة السياسية»، بلغة صحافية، فقد كان الكفاح الشعبي الفلسطيني يفتقر إلى التنظيم والوعي المنظم، كان عفوياً وأقرب إلى الانفعال، يحاصره شعور بالإحباط صادر عن قوة «عدو وافد منظّم ومسلّح»، إضافة إلى واقع اجتماعي ينقصه التماسك، كانت هناك هوة «اجتماعية» بين الفلاحين وسكان المدينة، وشيء من الانفصال بين المسلمين والمسيحيين، علماً أن موقف المسيحيين كان وطنياً بلا هوادة، ومدعوماً بوضع ثقافي ناتج عن نسبة المتعلمين المرتفعة في أوساطهم، بسبب دور المدارس التبشيرية. لذا جاء في تقرير بعض المراقبين الإنجليز:

"مع الأخذ بعين الاعتبار أن العمّال من غير اليهود في يافا، يشكّلون جماعة متماسكة، فإن هذه الجماعة تختلف، في وجوه كثيرة، عن البروليتاريا الأوروبية. ففيها عدد كبير من أصحاب القوارب الصغيرة، والحمّالين والحرفيين وعمّال البناء، الذين يعيشون بشكل أساسي في يافا القديمة، المنشية وبيوت الصفيح، وهم لطيفو المعشر، طيبون، سريعو الانفعال، غير أنّ المسلمين منهم يفتقرون إلى الوعي الطبقي، ولا وجود لطبقات بالمعنى الأوروبي للكلمة".

لا تعبّر تلك الصفات عن الحياة العمالية في مرفأ فلسطيني شهير، له امتداده التاريخي، بقدر ما تعبّر عن «هوامش اجتماعية»، صادرة عن تهديم الإنجليز للبنى التقليدية للمجتمع الفلسطيني، ذلك

أن هذه الهوامش تضمنت فلاحين خسروا أرضهم، وبحثوا عن العمل في المدينة، وأخذوا بشكل قاس من الحياة ما يمكّنهم من شراء أراض جديدة، ومن عودة «مريحة» إلى القرى التي جاؤوا منها. وبسبب ذلك، فإن اهتمامات «الجمعيات العمالية» بعد الانتداب، اختلفت كلياً عن مطالب «النقابات التقليدية» فالأولى أولت اهتماماً كبيراً بالفلاحين وقضايا الأرض و»التسلل» اليهودي إليها، وتميّزت بروح قتالية عالية، بينما الثانية محورت مطالبها حول الأجور وتحسين مواقع العمل. وبما أن غالبية المجتمع الفلسطيني من الفلاحين، فنموذج «الهوامش الاجتماعية» في يافا لا يقتصر على مدينة ساحلية محددة، ولا على فلاحين مُفقرين يعيشون مع أصحاب «القوارب الصغيرة»، إنما يحيل، ضمناً، إلى مدن وبلدات فلسطينية أخرى، وإلى جمهرة واسعة من الفلاحين أفقرها سماسرة الأرض و»الاقتناص اليهودي» وسياسة الضرائب الإنجليزية، التي تحتفي بتهديم الإنسان المستعمَر وتزدري ما له علاقة بالحياة الإنسانية.

٧. مأساة متعددة الأبعاد:

يعزو المؤرخون، بعامة، بدايات النهضة العربية إلى الحملة الفرنسية على مصر في نهايات القرن الثامن عشر. التي جاءت بالمطبعة وبجيش من العلماء، وأظهرت الفرق بين المجتمع الصناعي والمجتمع الزراعي، التي فتنت المصري سلامة موسى، الذي اعتبر «المختبر» نبراساً للحضارة، وأنطق علماؤها التاريخ الفرعوني القديم.

كان لفلسطين، التي غزاها بونابرت وارتد مهزوماً، قدر آخر، ذلك أن بوادر حداثتها جاءت من كفاح الشعب الفلسطيني ضد الصهيونية أولاً ومواجهة الانتداب البريطاني لاحقاً. وإذا كانت ولادة السياسة، من حيث هي شأن اجتماعي، معياراً تقاس به الحداثة، فقد أجبر التهديد الكاسح الفلسطينيين، على اختلاف مواقعهم الاجتماعية، أن يتابعوا الخطر النازل عليهم وأن يواجهونه بأشكال مختلفة، كما لو كان «تسييس المجتمع»، بأقدار مختلفة، أمراً قسرياً لا خيار فيه.

تجلّت ظواهر الحداثة الوليدة، كما أشرنا، في «انبثاق دور المرأة»، التي سارت في القدس في مظاهرة شهيرة، في مطلع الثلاثينات، دون أن تحتاج إلى المصرية «هدى شعراوي» التي ارتبطت بها أكثر من امرأة فلسطينية مستنيرة. ولأن الاعتراف الفعلي بالخطر الخارجي يصدر عن مواجهته عرفت فلسطين، مبكراً، الحياة الصحافية، التي هي إعلان يومي عن مقدرات البلاد، وواقعة جديدة قوامها: ظهور المثقف. ذلك المتعلم، الذي ينزاح عن تصور «المهنة الرسمية»، المرتبطة بالسلطة، إلى وضع جديد يتوسل التحريض والإبانة والاستنهاض. ولذلك كتب محمد عزة دروزة، وهو الموظف

الرسمي، مسرحيات عن معنى الوطن والهوية العربية والكرامة الوطنية، مستأنفاً ما بدأ به خليل بيدس، مترجم اللغة الروسية الذي جاء بمفهوم القصة القصيرة والرواية. وما كان حال نجيب نصار مختلفاً وهو يكتب روايته: «مفلح الغساني»، الذي تعرّف على الأدب الإنجليزي ليكتب رواية عن العسف العثماني. وربما يعطي خليل السكاكيني صورة عن مثقف وطني قومي كوني يعرف معنى «المدرسة الحديثة»، ويمايز بين التمدين الحقيقي ورسالة الغرب الكاذبة. يندرج في هذه العلاقات جميعاً مفهوم: الحزب السياسي، الذي بدأ «عائلياً» وحاول مع ظهور «حزب الاستقلال» أن يكون ناطقاً باسم مصالح الوطن كله.

وإذا كانت مأساة الحداثة العربية، التي تطلّعت إلى تحرير الفرد والمجتمع ترتبط، تاريخياً، بالتبعية، حيث مصالح السلطات الحاكمة من دفاعها عن المصالح الاستعمارية، فإن مأساة الحداثة الفلسطينية، جاءت من أطراف ثلاثة: السيطرة العثمانية التي أهملت الأرض والبشر، والصهيونية التي هددت الأرض وحياة البشر، والانتداب الإنجليزي؛ الذي جمع بين العثماني والصهيوني ودمّر الأسس الموضوعية لمسار المجتمع الفلسطيني. نقل الانتداب الحداثة الفلسطينية الوليدة من وضع الحداثة المعوّقة، التي عرفتها مجتمعات عربية كثيرة، إلى وضع حداثة لا أرض لها، حداثة مجزوءة تطلّع إليها مجتمع، يسير إلى خارج مكانه وزمانه الطبيعيين.

يتكشّف في هذه الحدود زيف الأطروحة القائلة: هزم الكفاح الفلسطيني التقليدي أمام الحداثة الصهيونية، التي تفترض طرفين متناقضين، لا تكافؤ في قدراتهما ولا في تصوّرهما للعالم، كما لو كان الطرف الفلسطيني يقف مع تقليديته في مواجهة الطرف الصهيوني المحصّن بحداثته.

تبرز هنا نقطة خلافية مع مؤلف الكتاب، رغم نواياه الحميدة، ذلك أنه افترض أن وعد بلفور جاء محصلة «لتدافع» قوى امبريالية متعددة، بعيداً عن أن يكون «اختصاصاً انجليزياً». أشار محقاً إلى أطراف إنجليزية لم تكن موافقة على وعد بلفور واستشهد، في مواقع متعددة من كتابه، بساسة إنجليز متصهينين. ومع أن في مقدمته ما يوحي، بشكل حذر، بأن الأطراف الإنجليزية جميعها لم يكن في مقدورها، لوحدها، أن تنصر المشروع الصهيوني، فإن ما وصل إليه تنقصه الدقة، ذلك أن الشخصيات الصهيونية البريطانية كانت شخصيات نافذة مقررة، جعلت من الصهاينة جزءاً داخلياً من السياسة الإنجليزية في علاقتها بفلسطين. بل جعلتهم يكتبون وعد بلفور باللغة التي تناسبهم، كما جاء في كتاب مسؤول بعيد عن الارتجال كتبه الإنجليزي الفلسطيني الأصل كارل عيسى صباغ: فلسطين تاريخ شخصي.

أدرج صباغ في كتابه أسماء الشخصيات الإنجليزية المتصهينة: لويد جورج وزير الحربية، الذي تعرّف

في الحرب العالمية الأولى إلى الكيميائي الصهيوني حاييم وايزمن وطلب منه مساعدة علمية، قال بعد إنجازها: «تحوّلت إلى الصهيونية بفضل الاسيتون»، علماً أن وزير الحربية المذكور أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء، أي في الفترة التي صدر فيها وعد بلفور. وإلى جانب لويد كان هناك هيربرت صامويل «اليهودي الصهيوني الوحيد في مجلس الوزراء البريطاني، وكان وزيراً للحكومة المحلية». افضى الأخير إلى وايزمان بأنه «كان يدرس فرصة إقامة مجتمع يهودي على أرض فلسطين... وأن هذه الأفكار تدور في خلد عدد من الوزراء...». وكان بلفور، الذي كان رئيساً للوزراء عام ١٩٠٥، يفكر، كما قال وايزمان لاحقاً، «بإقامة كيان طبيعي لليهود في فلسطين». ونقرأ في كتاب صباغ ايضاً: «وتحقق لوايزمان ما كان يرنو إليه من صداقة الشخصيات رفيعة المستوى في المؤسسات المختلفة ودعمها، وكان من ضمن هؤلاء مسؤولو التحرير في صحيفتي التايمز والمانشستر جارديان، بالإضافة إلى بلفور، ولويد جورج، وسير إدوارد جري، وونستون تشيرشل وهيربرت صامويل ص: ١٢٣". ولذلك فإن دهشة الكيميائي الصهيوني لم يكن لها ما يبررها، حين قال بعد سنوات: "لم يكن ليخطر بمخيلة أحد أننا نحن اليهود سنحصل على إعلان بلفور. لقد كان الإعلان عام ١٩١٧ وليد لحظته، ص ١٣٢".

لم يكن الإعلان وليد لحظته، بل محصلة لجهود إنجليزية واسعة النفوذ، تمتد من الصحافة إلى البرلمان، ومن رئاسة الوزراء إلى وزير الحربية، وصولاً إلى عنصرية نموذجية تعتبر «عرب فلسطين» لا وجود لهم، وأنهم «لن يعرفوا الكهرباء إلاّ بعد ألفي سنة»، كما قال وزير المستعمرات تشرشل. ولذلك لم يكن غريباً أن يكتب المسودة الأولى لوعد بلفور صحافي صهيوني، وأن يقول لصهيوني آخر: «أرجو أن تتنبّه إلى أنه يجدر بنا أن نقول «إعادة تأسيس فلسطين» وليس «إعادة تأسيس في فلسطين»... كان في حذف حرف «في» ما يحذف المجتمع الفلسطيني وتاريخه، وما يعتبر فلسطين القادمة خلقاً صهيونياً خالصاً.

لم يكن وعد بلفور، إذن، محصلة لقوى امبريالية متعددة، بل كان محصلة لنفوذ القوى السياسية الإنجليزية الداعمة للمشروع الصهيوني، وتمثيلاً لإيمان هذه القوى «بعدالة المطلب اليهودي»، لا فرق إن خدم المصالح الإنجليزية أو لم يخدمها، ذلك أن بعض هؤلاء الساسة هجس، مرة بإحالة المشروع الصهيوني إلى الإدارة الأميركية. وليس من المعقول في شيء أن "امبراطورية لا تغيب عنها الشمس"، حريصة على استمرارية قوتها وتنافسها دول قوية مثل فرنسا وألمانيا، أن تأخذ قراراً خطيراً في "لحظة" متمردة على التأمل والحسبان.

جاء البعد الثالث في المأساة الفلسطينية من ضعف العرب. كان المؤرخ، الذي عمّر قرناً من الزمن، محمد عزة دروزة يقول في العشرينات: «لن نقطع خيطاً دون الرجوع إلى إخوتنا في فلسطين». كان قائداً فلسطينياً بارزاً آنذاك، وكانت سوريا تحت السيطرة الفرنسية التي كانت تنسّق مع

«السيطرة الإنجليزية». أمّا الشريف حسين، الذي حلم بوطن عربي موحّد ومتحرر، فقد كان يندب أحلامه الضائعة. ليس سراً أن النخبة المستنيرة الفلسطينية كانت، قبل وعد بلفور وبعده، قومية عربية، أكانت ممثلة بالمربي خليل السكاكيني، الذي رأى في «الوطن اليهودي» تمزيقاً للوطن العربي، أم حزب الاستقلال، الذي تأسس في بداية ثلاثينات القرن العشرين، وجمع مجموعة متميزة من المثقفين. وكان الفلسطينيون يعرفون أن الشيخ عز الدين القسّام سوري ألجأه الاستعمار الفرنسي إلى فلسطين.

ومع أن دارسي التاريخ تحدّثوا طويلاً عن الحتميات التاريخية وقوانين التاريخ، فمن الصعوبة بمكان أن نعثر في تلك «الحتميات» مكاناً للمشروع الصهيوني، أو أن نجد قانوناً يفسّر وعد بلفور، ذلك أن القوانين تتعامل مع ظواهر عامة، والصهيونية حالة ظالمة فريدة، أقرب إلى الاختراع. ولهذا قال آرثر كوستلر في كتابه: «الوعد والإرضاء» عن الوعد المشؤوم: «هو وعد شعب لشعب آخر بدولة شعب ثالث»، وهو أمر مزيج من المفارقة والسخرية السوداء.

يتكشّف معنى التاريخ، ربما، في حقبه الطويلة، لا في حقبة هجينة وقصيرة أقرب إلى الاختراع.

المراجع:

1. Bernard Regan: The Balfour declaration. Verso, London, 2017

٢. كارل عيسى صباغ: فلسطين ـ تاريخ شخصي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠١٣.

٣. فيصل دراج: ذاكرة المغلوبين ـ الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢.

منفصلون لكن متساوون ...قانون أساس القومية
«ثقافة اليهود تمحو ثقافة الأغيار» ... من تاريخ أرض الميعاد

شذى يحيى *

«مما لانظير له ولا يمكن فهمه أن يبقي الرب هذا الشعب مشتتاً بين الأمم دون أن يذوب فيها ،وهو ما يعني بوضوح أن الرب يبقيه لعمل عظيم ما».

بيير جيريو عن اليهود في كتابه تحقق النبوءات (١٦٨٦م)

«أنظر من النافذة وأرى موتي يقترب»

فلسطيني مجهول من تحقيق أجراه الصحافي داني روبنستين بعنوان «التحضير لحرب أهلية»
صحيفة هآرتس ١٨-١٢ -٢٠٠٦

«هذه لحظة فارقة في تاريخ الصهيونية ودولة إسرائيل بعد ١٢٢عاماً من نشر هرتزل لرؤيته ،حددنا بالقانون مبدأ أساس وجودنا ،إسرائيل هي دولة قومية للشعب اليهودي تحترم حقوق الأفراد لكل مواطنيها ،إسرائيل فقط في الشرق الأوسط التي تحترم هذه الحقوق ،عندما أتحدث في العالم أردد هذه دولتنا دولة اليهود ،في السنوات الأخيرة هناك من يحاول الاعتراض على ذلك وزعزعة أركان وجودنا لذلك قمنا بسن هذا القانون الذي يضم النشيد الوطني الخاص بنا ،لغتنا وعلمنا ،عاشت دولة إسرائيل»

نص خطبة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين ناتانياهو

إحتفالاً بالمصادقة على قانون أساس القومية

- أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي،وفيها قامت دولة إسرائيل .
- إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي وفيها يمارس حقوقه الطبيعية والثقافية والدينية والتاريخية لتقرير المصير.
- ممارسة حق تقرير المصير في دولة إسرائيل هي حق حصري للشعب اليهودي.

* باحثة واكاديمية - مصر

هذه هي المبادئ الثلاثة الأهم في قانون أساس القومية الذي صادق عليه الكنيست الاسرائيلي في آذار ٢٠١٨ بتأييد ٦٢عضواً ،ومعارضة ٥٥عضواً ،وامتناع اثنين عن التصويت.

القانون الذي أطلق عليه «قانون كل القوانين» لأنه وضع أساساً واقعياً بماهية الدولة لا يمكن تجاوزه أو الحياد عنه في بداية أية مفاوضات مقبلة. نص أيضاً على أن القدس الكاملة الموحدة هي عاصمة إسرائيل ،وأن اللغة العبرية هي اللغة الرسمية للدولة مع تهميش اللغة العربية بالقول أن لها مكانة خاصة ،بالإضافة إلى بنود تتعلق بأن الأعياد اليهودية فقط هي الأعياد الرسمية للدولة والرموز الدينية هي ما يشكل هويتها ،كما جدد القانون التزامه بالحفاظ والرعاية لأبناء الشعب اليهودي داخل وخارج إسرائيل حتى لو لم يحملوا جنسية إسرائيل ولم يذكر القانون حماية رعايا الدولة من غير اليهود إلا ضمناً ،كما تضمن نص القانون التزام الدولة بالاستيطان معتبراً أن تطوير الإستيطان اليهودي»قيمة قومية يجب أن يعمل لأجل تشجيعه وإقامته وتثبيته «،هذا وقد حظي القانون بموافقة جيدة في الشارع الإسرائيلي اليهودي حيث وافق حوالي ٥٨٪من اليهود عليه فيما عارضه ٣٤٪ بينما امتنع ٨٪ عن إبداء الرأي ،وكانت أبرز المعارضات غير معنية بمدى عنصرية القانون أو تعديه على حقوق غير اليهود بل أتت من منطلق الخوف من تحول إسرائيل إلى دولة دينية! على حساب ديمقراطيتها المزعومة ،فعلى سبيل المثال رأى نائب رئيس معهد الديمقراطية في الجامعة العبرية موردخاي كريمنستر «أن معارضة القانون لا تأتي من منطلق اعتبار إسرائيل أمة للشعب اليهودي فقط فهذا لا جدال فيه بل لأنه يكسر التوازن بين الدعامة الديمقراطية والدعامة الدينية مما سيخل بالتوازن الذي كان أساساً لقيام دولة إسرائيل» ،واتفق مع كريمنستر الباحث في نفس المركز آلون هاريل قائلاً «سيجعل هذا القانون أفرعاً مختلفة من الدولة حلبة تحدد فيها المصالح الاقتصادية والايدولوجية ماهو مجال وفحوى الثقافة والتراث اليهوديان بدلاً من تعزيز اليهودية».

هذا الجدل يوضح أن المؤيدين والمعارضين ليس لديهم أدنى خلاف على هوية إسرائيل اليهودية القومية بصبغة صهيونية ،بل الخلاف هو الخوف على التراث اليهودي من أن يتحور ويتبدل خدمة لمصالح ما أو على الحقوق المدنية لليهود العلمانيين لكن هذه المخاوف لم تقنع الأغلبية لسبب بسيط جداً ألا وهو أن هذا القانون مستمد من الوثيقة الأولية التي أعلن بها قيام دولة إسرائيل ،بل من قبلها وأيضاً بعدها فبدأ من البرنامج الذي وضعه المؤتمر الصهيوني العالمي المنعقد في فندق بيلتمور بالولايات المتحدة الأميركية العام ١٩٤٢م والذي عبر فيه المجتمعون عن ثقتهم في الانتصار الكامل لقيم العدالة والانسانية (الحلفاء في الحرب العالمية الثانية) ضد الانحدار وقوى الشر (دول المحور) اتفق المجتمعون أن جوهر برنامجهم هو «دولة يهودية موحدة في فلسطين مع منح

بعض الحقوق للأقليات (عرب فلسطين في هذه الحالة) ،كان هذا رغم أن العرب في تلك الفترة كانوا يشكلون واقعاً أغلب تعداد السكان ،وهذه كانت أول صياغة رسمية لأهداف الصهيونية في إقامة دولة يهودية صرفة على أرض فلسطين هذه الصياغة الرسمية استغرقها الأمر لتصبح صريحة وواضحة سلسلة مما يعرف بالقوانين الأساسية كان آخرها قانون قومية الدولة عام ٢٠١٨.

القوانين الأساسية هذه هي مجموعة القواعد التي شكلت الشكل القائم للكيان الصهيوني في وضعه الحالي فإسرائيل دولة بلا دستور كانت قوانين الأساس هي الحل الأمثل للتحايل على عدم وضع دستور للدولة ،فقد واجهت معضلة الدستور مؤسسي الدولة منذ اللحظة الأولى لإرساء قواعدها في نهايات ١٩٤٧ قبل الإعلان الرسمي لما يعرف بالاستقلال ، وكانت كتابة دستور تعني التعريف بطبيعة الدولة وعلاقتها بالهوية الدينية اليهودية ،هنا كان مطلب المتشددين اعتبار التوراة هي المصدر الأساسي للتشريع ذلك كان من شأنه أن ينفر اليهود ذوي الميول الليبرالية والعلمانية من الهجرة لإسرائيل أو حتى دعمها مادياً وأدبياً ،كما أن كتابة حدود معروفة للدولة سيؤدي لوأد أي فرصة للتوسع والاستيطان بالإضافة إلى أن الصبغة الدينية ستشوه صورتها أمام الديمقراطيات الداعمة لها وكذا تسهل وصفها بالاستعمارية والعنصرية ،لهذا وتفادياً لأية انقسامات أو مواجهات وضع ديفيد بن جوريون صيغة تعتمد على كتابة سلسلة من القوانين المنظمة لتوزيع السلطات تظهر الكيان الوليد على أنه دولة ديمقراطية برلمانية لها حكومة منتخبة ورئيس يتمتع بسلطات رمزية ،وهذه القوانين تعمل بمثابة الأساس الذي يقوم عليه بناء دولة إسرائيل ولذلك سميت هذه القوانين «بالقوانين الأساسية» التي من المفترض أن تعمل عمل الدستور الذي يضمن ويحمي الحريات العامة.

وقد كان من أول القوانين الأساسية التي وضعها بن جوريون قانونان ،الأول هو «قانون العودة» الذي يعطي الحق لأي فرد يهودي مهما كانت جنسيته في العودة إلى أرض أجداده (إسرائيل) والتمتع بكل حقوق المواطنة فور دخول الأراضي المحتلة ،أما الثاني فهو «قانون الغائبين» والذي أتيح بموجبه لسلطات الاحتلال الاستيلاء على الأراضي التي قامت عليها أغلب المدن اليهودية داخل حدود ١٩٤٨ بدعوى أحقية الدولة في الاستيلاء على أملاك الغائبين أو الذين أعتبروا كذلك لأنهم خرجوا من أراضيهم وعادوا إليها بصورة غير شرعية من وجهة نظر سلطة الاحتلال وبالتالي فقد تم نقل ملكياتهم للصندوق الوطني اليهودي ليتصرف فيها بمعرفته ،وبهذه الطريقة حقق بن جوريون هدفه «بضمان عدم عودة المهجرين الفلسطينيين بكل الطرق الممكنة» وسط صمت المجتمع الدولي وموافقته الضمنية على ما ذكر في إعلان قيام الدولة في ١٤مايو ١٩٤٨ من أنه باعتراف الأمم المتحدة فإن إسرائيل تعتبر نفسها وبمقتضى الحق التاريخي وريثة للهيكل الثاني

والدولة اليهودية التي كانت موجودة منذ ألفي عام وهي تعتبر نفسها دولة قومية لليهود في داخل إسرائيل ويهود الشتات حول العالم والموقعين على إعلان قيام دولة إسرائيل باعتبارهم ممثلين عن اليهود الموجودين في فلسطين واليهود خارجها سواء كانوا صهاينة أو لم يكونوا ارتأوا أن يعملوا على تأكيد هوية كيانهم ككيان يهودي صرف دون الإعلان الرسمي عن ذلك منذ وقت مبكر جداً ،ففي العام١٩٥٢ استصدر الكنيست الاسرائيلي قراراً باعتبار اسرائيل نفسها صنيعة كل اليهود وبهذا استكملت المرحلة الثانية من بناء الدولة.

في العام ١٩٨٥ استصدر الكنيست قانوناً يقضي بحرمان ترشح أي مواطن لأي منصب في الكنيست أو الدولة طالما أنكر يهودية إسرائيل ،كما استصدر تشريعاً في العام نفسه يمنع تقديم أية طلبات للإحاطة تتعلق بمناقشة هوية الدولة كهوية يهودية ،أيضا اعتبر الكنيست في نص قانون العلم نجمة داوود والمنورا ومجسم الهيكل اليهودي الذي هدمه تايتس رموزاً لاستقلال الدولة وسيادتها وتعبيراً عن هويتها.

أما القانون الأساس لتنظيم القضاء فهو يؤكد على أن التعاليم والشريعة اليهودية هي جوهره ويسمح للقاضي بالاجتهاد في تفسير ووضع السوابق القانونية بما لا يخالف الشريعة اليهودية ولا يتعارض مع مصالح الدولة ،كما نص المشروع المقترح للدستور الذي أعدته لجنة الدستور في الكنيست العام ٢٠٠٦ على تأكيد أن «يهودية الدولة تعني أن لمواطنيها اليهود وحدهم دون غيرهم حق تقرير المصير» ،وهو مالايتنافى كثيراً مع رأي المشرعين الأكاديميين الاسرائيليين في أن ماهية الدولة اليهودية تعني «التطوير لهيكل سياسي حيث يستطيع مواطنوا الدولة من اليهود ممارسة حقهم في تقرير مصيرهم بشكل ملموس».

هذه السلسلة من القوانين انتهاء بقانون القومية والتي تهدف لارساء وضع قد يبدو للمراقب المحايد على أنه شكل من أشكال التمييز العنصري المذكور في التعريفات الدولية متمثلاً في «وضع معايير قانونية لمنع جماعة على أساس عرقي من ممارسة حقوقها السياسية والثقافية والاقتصادية تحت مظلة وحماية الدولة» ،بينما لايراه العالم الغربي من هذا المنطلق بتاتاً ففي نظره اسرائيل هي ديمقراطية تحترم حرية ممارسة الأقليات لعباداتهم وحقوقهم الأساسية وبهذا تنتفي عنها صفة العنصرية على الأخص لأن اليهود متعددي الأعراق والأجناس لا يعتبرون أنفسهم متفوقين على الأجناس الأخرى ،والمجتمع اليهودي الاسرائيلي متعدد الأعراق قد اندمج مع بعضه اندماجاً مقبولاً وبهذا لا يمكن وصفه بالمجتمع العنصري ،ورغم التحفظ الغربي على بعض قوانين النظام القضائي في نزع الملكيات وعدم المساواة على أسس دينية لكن الأنظمة السياسية الغربية وكذلك الرأي العام في الشارع يرى أن مستوى حقوق الإنسان وحرية الممارسة الدينية في إسرائيل مقبول جداً في ظل

قوانينها المعمول بها حالياً وفي ظل الظروف التي تعيشها الدولة ،أو المشكلة التي تواجهها كما يقدمها الصهاينة للعالم هذه المشكلة التي يلخصونها باختصار في أن قانون القومية يحاول استيعاب وجود مواطن من كل ستة مواطنين يحملون بطاقات هوية اسرائيلية أصله عربي يتحدث بلغة أخرى غير لغة الدولة هي اللغة العربية بما يعنيه ذلك من أن ثقافته بأكملها بداية من اللغة والدين وحتى العادات وطريقة الحياة تختلف كلياً عن باقي المجتمع الذي يعيش فيه ،بل وأن مرجعيته في تصرفاته تحمل قيماً معادية لهذه الدولة وتشكل خطراً عليها ،أي أن على الأقل هوية وثقافة سدس تعداد السكان تحمل فكراً هادماً للدولة يخدم أعداءها التاريخيين ويجعل انتماء هؤلاء الأفراد بالكامل للأعداء وليس للوطن ،هذا المجتمع من الأقلية مصر على ابقاء نفسه بعيداً كل البعد عن الكيان الواقعي القائم على الأرض وما يمثله ،كما أنه مصر على التمسك بأوهامه وأنماطه التي تبعده عن ركب الحضارة وتجعله أقرب إلى التخلف ولذلك فلابد من عزله وتحييده لأن وجوده مع حقوق سياسية وثقافية يعني القضاء على بنيان الدولة من داخلها ،أو كما يقول المؤرخ الإسرائيلي بيني موريس واصفاً الفلسطينيين «يجب أن نبني لهم شيئاً يحبسون فيه ولنقل قفصاً».

ويجادل الصهاينة أنه لا علاقة للعنصرية بهذا الفكر وبهذه القوانين فالأقلية العربية متاح لها ممارسة حقوقها الاقتصادية والدينية والاجتماعية بالشكل الذي تريده مع حرمانهم أو إعفائهم من أداء الخدمة العسكرية كونهم يشكلون طرفاً معادياً بحكم تعاملهم مع إسرائيل ككيان عنصري فرضه أمر واقع قائم على مشروع استعماري ، بينما يترتب على عدم أدائهم للخدمة العسكرية حرمانهم من كل الحقوق والامتيازات الخاصة بمن أدى هذه الخدمة كما يترتب على كون ثقافتهم معادية حرمانهم من حقوق خاصة بالمواطنة والملكية يتمتع بها المواطنون اليهود .

هذه هي وجهة النظر الاسرائيلية المعلنة لا يوجد مساس لا باللغة العربية ولا بالأقلية العربية في اسرائيل جراء هذا القانون وهم لم يذكروا فيه صراحة لأنه لا يستهدفهم أو كما قال عضو الكنيست آفي دختر صاحب مبادرة القانون على منصة الكنيست «خلافاً لسوء تفسير المعلومات والأخبار المختلقة التي تم تداولها بكثرة ،فإن قانون الأساس هذا لا يمس بثقافات الأقليات التي تعيش في اسرائيل ،لا يمس بأيام العطلة الأسبوعية والأعياد لهذه الأقليات وبالتأكيد لا يمس باللغة الأم ل١,٥ مليون من مواطني الدولة ،إن الكم الهائل لما كتب عن ان هذا القانون يلغي اللغة العربية عار من الصحة ويهدف إلى تحريض وإثارة الناطقين بها دون أي وجه حق. وأضاف دختر :منذ أن بدأت بطرح هذا القانون قيل لي أنه مفهوم ضمناً ،لكن لا يمكن تجاهل أقوال أعضاء القائمة المشتركة (العربية) «نحن سننتصر. كنا هنا قبلكم وسنبقى بعدكم» ،هذا القانون هو الرد الحاسم على من يفكر هذا التفكير ،كل ما يمكنكم فعله هو المطالبة بالمساواة كأقلية لا المساواة كقومية، لا توجد

أي أقلية يمكنها أن تعلن عن تغيير رموز الدولة».

إذاً فالهدف المعلن والذي تراه إسرائيل ومعها حلفاؤها الغربيون مشروعاً من خلال إرساء هذا القانون هو تثبيت دعائم قوميتها ،لكن الهدف الجوهري والحقيقي منه هو تفتيت دعائم القومية الفلسطينية من خلال ضرب المقومات الأساسية التي تشكل الهوية الفلسطينية العربية وإنهاء الصراع من جذوره عبر القضاء على الثقافة الفلسطينية وبالتالي محو الحقوق وإلغاء أي بعد تاريخي للصراع .

هي معركة وفقاً للمؤرخ اليهودي الإسرائيلي الأشهر إيلان بابيه تدور على «الذاكرة» ، «الواقع» ،و « الرؤية» ، أي على الماضي والحاضر والمستقبل ،والقانون الجديد أعطى سلاحاً قوياً للطرف الإسرائيلي في هذه المعركة يفوق في قوته القنابل النووية وهو إعطاء السلطة الشرعية القانونية بل والأخلاقية للدولة العنصرية لتطهير الأرض من غير اليهود إن لم يكن بشكل مادي يكون بالشكل المعنوي عبر محو ثقافتهم ومقومات هويتهم ،وهكذا يصبح رأي ترامب أنه لافرق بين حل الدولة أو الدولتين صحيحاً فكلاهما هو محو للوجود الفكري العربي من تاريخ وحاضر ومستقبل أرض فلسطين.

فإسرائيل التي تتأرجح على الحد الخاص بهويتها الثقافية مابين وجودها كديمقراطية مدنية مفترضة وما بين نفسها كجنس صافٍ عرقياً تحت غطاء ديني دائماً ما ينحاز المشرع فيها للخيار العنصري في محاولته الدائمة لاستمرار نقاء العرق ونقاء فكرة الدولة ، فمنذ البداية يعلم هذا المشرع ومعه صانع القرار أن لا الجدران العازلة وحدها ولا إقامة دولة كانتونات عاجزة في الضفة والقطاع يزيلان تماماً خطر فناء الدولة ،فجنوب أفريقيا وبريتوريا والكثير من مستعمرات الامبرياليات السابقة لم تستطع أن تحافظ على بقائها باستعمال هذه الوسائل وبظهور حل الدولة الواحدة على السطح وأيضاً بوجود أقلية عربية ضخمة داخل أراضي ١٩٤٨ برزت على السطح أكثر من ذي قبل المخاوف من تحول اليهود إلى أقلية داخل دولتهم الموعودة ووجد خطر كابوس حقيقي هو توحد الفلسطينين في أراضي ١٩٦٧ مع فلسطيني الداخل وبهذا فإنهم يستطيعون أن يتحدوا الدولة اليهودية بنفس أدواتها الديمقراطية ،ولذلك كان تحديد هوية الدولة وقصر حق تقرير المصير على مواطنيها اليهود فقط هو مسألة مصيرية في ظل خطر فقدان اليهود للأغلبية ومع وجود حكومة يمينية متطرفة هدفها كما تقول إحياء الهيكل الثاني (٢٠٠ق.م -٧٠م) كحكم لاهوتي عرقي ديني عبر نقاء العنصر اليهودي ،كانت فكرة الفصل العنصري في جوهرها الأولي والصريح بإحياء مبدأ «منفصلين لكن متساوين» مع الاحتفاظ بحقوق تفضيلية للعرق الأقوى هو الحل من وجهة نظرها ،لكن هذا لا يكفي لإبعاد خطر الفناء عن الدولة الأمان الحقيقي الذي يهدف إليه القانون هو

تغيير الصيغة الأزلية الدائمة للصراع من صراع إسرائيلي فلسطيني إلى صراع أقلية وأغلبية أي محو الرؤية المزدوجة للأرض بناء على وجهتي نظر متباينتين تختلف لدى اليهود الصهاينة عنها لدى الفلسطينيين .

فلطالما رأى العالم الصراع الفلسطيني الإسرائيلي كما وصفته حنا أرندت في مقالها «السلام والهدنة في الشرق الأدنى» ١٩٥٠ على أنه «تعارض في الرؤى ،وهذا التعارض أيضاً ليس مسألة سياسية بسيطة فقد رأى اليهود وأعتقدوا وأعلنوا في أكثر من مناسبة أن العالم أو التاريخ – أو مبدأ أدبياً أعلى – يدين لهم بالتعويض عن جميع الشرور التي عانوا منها على مدار ألفي عام ،ويدين لهم خاصة بتعويض عن الكارثة التي أصابت يهود أوروبا والتي في رأيهم ليست مجرد جريمة تتحمل ألمانيا النازية المسؤولية عنها بل تشكل مساءلة لمجمل العالم المتحضر ،ويرد العرب من جهتهم بأن خطأين لا يصنعان صواباً ،وأن أي قانون ادبي لا يمكنه تبرير اضطهاد شعب لمعالجة الاضطهاد الذي يعانيه شعب آخر» ، وعلى حد قول آرندت أن هذه الحجج لاتسمح بأي رد فالمطلبان قوميان ،إذ لا معنى لهما إلا في الإطار الوثيق للشعب وللتاريخ الخاص بكل شعب وهما مطلبان شرعيان لأنهما يتعاليان على عوامل الوضع الملموس .

من وجهة نظر آرندت هي مسألة إختلاف بين رؤيتين حول الأرض والتاريخ ،الرؤية الصهيونية ترى أن العالم او أساس الحضارة الغربية متمثلاً في الرومان قد دمروا هيكلهم وهجروهم من أرضهم قبل أن يتعرضوا لموجات وموجات من الاضطهاد على يد أبناء هذه الحضارة على مر العصور كان آخرها الهولوكوست ،لذلك فإن هذا العالم مدين لهم بمساعدتهم على العودة (العاليا) لموطنهم الأصلي ،حيث رؤيتهم للمشهد الطبيعي لأرض فلسطين على أنها أراضي يمتلكونها عادوا إليها بعد ألفي عام من الشتات لينشئوا في خرائبها المدمرة مجتمعات جميلة متحضرة تمارس فيها المثل والقيم السامية المستمدة من الشريعة اليهودية والمسيحية أيضاً بعد عناء وطول شتات ،لكن هذا الوجود السامي النبيل والمتحضر يواجه خطراً من مجموعة من شراذم شعوب بربرية متخلفة ،هم مجموعات من الناس جابوا هذه المنطقة في غياب أصحابها عنها ولم يخلفوا وراءهم إلا الجهل والتعصب وإيذاء الإنسانية وضيق الأفق العنصري الجاهل الذي يستمدونه من عقيدتهم الإسلامية المتعصبة وأي أثر لهم على أرض فلسطين هو أثر مصطنع مشوه يعود لأصحابها الأصليين (اليهود) قام هؤلاء الهمج بتبديل معالمه وتغييرها ليسرقوه وينسبوه لأنفسهم.

هذه الرؤية التي دعمها عالم الرياضيات الكبير إسحاق نيوتن ، وتعجب كيف لايؤمن بها مسيحيو عصره لأنها الرؤية التي ستؤمن إعادة التكوين لكل شيء، «ومن ثم فإن سر هذه الإعادة لتكوين كل شيء إنما يوجد عند جميع الأنبياء ،وهذا هو السبب في أنني أستغرب من أن قليلين جداً من

مسيحيي عصرنا وهو ما يثير دهشتي هم الذين ينجحون في إدراك هذا الأمر فهم لايدركون أن هذا السر يتمثل في عودة اليهود النهائية من الأسر وفي فتحهم لأمم الممالك الأربعة وإقامتهم لمملكة عادلة ومزدهرة» ،قد يكون نيوتن يشتكي من مسيحيي عصره ولكن مسيحيي العصور التالية تداركوا ما رآه خطأ من وجهة نظره ولذلك كان إيمانهم العميق بوجهة النظر الإسرائيلية وبحق إسرائيل التاريخي رغم بنائه على أسطورة.

الرؤية الفلسطينية للمشهد الطبيعي أقل تعقيداً وأكثر إرتكازاً على الواقع ،فلسطين هي أرض عربية معروفة بجغرافية البلدات والحقول والطرق والمباني سواء القائمة فعلاً أو التي تم محوها ولكن بقي الدليل على وجودها ،غزتها مستوطنات لقطعان من الغرباء من أصول أغلبها أوروبي أفسدت شكل المدن بمدن غريبة عقيمة يرفضها حتى المشهد الطبيعي لأنها دخيلة عليه ،إسرائيل من وجهة النظر هذه هي حركة استعمارية خبيثة استولت على الأرض وطردت البشر وتسعى لإلتهام المزيد بمساعدة حلفائها الغربيين المستعمرين السابقين.

إحدى هاتين الرؤيتين قائمة على أسطورة والأخرى قائمة على الواقع ولذلك ولكي تنتصر الرؤية الأولى فليس كافياً تغيير المشهد على الأرض بالقوة عن طريق المستوطنات والطرق بل لابد من محو التاريخ وآثاره أي الماضي ، ونفي صفة الشعب والهوية القومية في الحاضر وتدمير أسس إعادة أية صحوة في المستقبل ،وهذا هو الجوهر الحقيقي لقانون القومية فيما يخص الفلسطينيين سواء داخل أراضي ١٩٤٨ أو في الضفة والقطاع ،في المقابل تعزيز الهوية والقومية والرمز وبناء الإنسان لخلق واقع بديل لا يقبل التشكيك في وجود أمة يهودية تمارس ثقافتها و تبني حضارتها على أرضها ،هو «محو لقومية وإحياء لقومية أخرى» ذلك أن الجوهر الأساس لأية هوية قومية هو مدى الفهم المشترك لتاريخ هذه الهوية ،فالانفعالات حيال أي هوية قومية أو إقليم قومي لا تكون عفوية والأمم باحتضانها لسكان كثر على الأرض واسعة تتجاوز الخبرة المباشرة لأفرادها وتصبح مجتمعات متخيلة تتكون صورتها من خلال الروايات التاريخية والاحتفالات والرموز التي تتطور تحديداً لإلهام الهوية الجمعية والولاء السياسي ،ولهذا فإن الثقافة والمدرك والمعتقد هي التي تلهم الانفعالات وتوجه مسار العاطفة الوطنية والآمال الشعبية والمخاوف الجمعية وتوحد الأمة ضد أعدائها في سلوك يصب في مصلحة المشروع القومي الشامل الذي يشكل أساس الدولة ، إن الثقافة والمدرك والمعتقد هي مكونات الهوية وهذا القانون الموجه لضرب هذه الهوية التي تربط الفلسطينيين بالمكان عبر الإحالة الدائمة إلى أمرين القدس والأرض ،التوجه إلى القدس وإلى الأرض وتحريرهما هو المشروع القومي الفلسطيني الشامل الذي يجعل من عرب فلسطين شعباً ،وهو مايصنع ثقافتهم وكيانهم ولهذا لابد أولاً من هدم المكون الأساس للثقافة اي اللغة وبعدها

قطع الرابط بالقدس عبر تغيير معالمها ومحوها وتحويلها إلى معالم يهودية ثم إذابتها في الكيان العبري وجعلها رمزاً له ،أيضاً العدوان الدائم داخل أراضي ١٩٤٨ على القرى والبلدات وهدمها بدعوى عدم ترخيصها وشرعيتها واقتطاع الأرض قطعة بعد قطعة في أراضي١٩٤٨ ،وربط الحياة ووسائل المواصلات والخدمات بالأعياد الدينية اليهودية والمناسبات القومية الإسرائيلية هو في حد ذاته ربط لإيقاع الحياة بهذه المناسبات والاحتفالات دون غيرها كنوع من فرض ثقافة الأقوى والمحو التدريجي للثقافة الأم للأضعف فأهم هدف لقانون القومية هو تحويل الفلسطينيين من شعب لمجرد سكان والقضاء على النجاح الذي حققه فلسطينيو أراضي١٩٤٨ على الأخص في الحفاظ على هويتهم الثقافية وتحويلها إلى هوية سياسية عبر البعد الديموجرافي والأساس الاجتماعي والثقافي والأسري ،لذلك استهدف هذا القانون اللغة والأعياد القومية وأيضاً الجغرافيا ممثلة في الالتزام بتشجيع المستوطنات ليضرب القومية الفلسطينية ويفرض القومية اليهودية كأمر واقع ، القانون موجه بالدرجة الأولى لضرب الطبقة السياسية العربية الفلسطينية التي نجحت على حد زعم الباحث الفرنسي هنري لورنس «في بناء هوية مرتبطة بالمكان وبالرمز لذلك فلم يكن غريباً أن تكون رموز الفلسطينيين في مقاومتهم للإحتلال هي المسجد الأقصى وكوفية الفلاح ،ولهذا أيضاً تدرك إسرائيل أهمية بقاء جوهر مشروعها الصهيوني في تجسيده الملموس هو الاستيطان ونزع الأرض وتغيير معالمها تمهيداً لنزع الهوية المرتبطة بالأرض ومحو صفة القومية والشعب عن الفلسطينيين ،فصانع القرار الاسرائيلي يدرك أن التحدي الأكبر الذي يواجهه لبقاء إسرائيل بالشكل الذي صنعته بها المبادئ الصهيونية ليس الجيوش العربية التي لن تحارب ولا الضغوط الدولية المتعاطفة مع كيان إسرائيل ، ولا مجموعة قوى وحكومات روضت وتقبلت الأمر الواقع ،أو صحوة إسلامية صنعت في الأساس لخدمة أهداف الامبريالية ليس لمحاربتها ، بل الخطر الأساسي على وجود كيانه هو المجتمع الفلسطيني في الداخل سواء في ما يسمى بأراضي١٩٤٨ أو في الضفة والقطاع ،إن الصهاينة في حرب حقيقية مع مجتمع ذي هوية راسخ في الأرض بفعل ثقله الاقتصادي والديموغرافي والإجتماعي والأيدولوجي وأيضاً بفعل ميراث العداوة الفلسطينية المدعومة بالعداوة الشعبية العربية تجاه الصهيونية ككيان دخيل محتل وعدواني، ولذلك تستهدف إسرائيل بقانونها الجديد شرعنة تدمير وتحويل المشهد الطبيعي الفلسطيني وتهميش الثقافة العربية الفلسطينية تمهيداً لمحوها ومحو التراث الفلسطيني ليحل محله التراث اليهودي وتثبيت اسطورة أرض الميعاد على أنها المرادف الرمزي لأرض فلسطين ولعل مايحدث من تهويد في القدس خير مثال على ما تبتغيه إسرائيل من قانونها الجديد ،فالحكومة الإسرائيلية نجحت إلى حد كبير في سعيها لتوليد موقف سياسي للمدينة المقدسة من خلال التمدد المعماري المحكم لإثبات يهودية المدينة على

الأرض أيضاً من خلال تحويل الأساطير المرتبطة بالمدينة المقدسة لمعان رمزية وربما كان نقل السفارة الأمريكية للقدس بعد طول تأجيل أحد العلامات الأولية لهذا النجاح .

تسعى إسرائيل لتقويض ومحو حقائق لدعم أسطورة أرض الميعاد لأن هذه الأسطورة هي ما يجمع هؤلاء البشر القادمين من كافة أقاصي الأرض ،وللأسطورة دور مهم في تكوين الدول فهي أداة فعالة وتنظيمية في تحريك الرأي العام ولابد أن تشكل الأسطورة مغزى عقلانياً لدى الجمهور والرأي العام الجمعي في مكانها وزمانها ،قد يعلم أبناء المجتمع أن هذه الأسطورة ليست صحيحة تمام الصحة ولكنهم يتبنون مغزاها لأنها في أساسها مجموعة من المعتقدات المصاغة على هيئة حكاية سردية يتبناها المجتمع عن نفسه وأي تراث قومي قائم على القبول التاريخي للرواية القومية أو الأسطورة القومية، وقانون القومية أصبح هو الدعامة الرئيسية التي سترتكز عليها الأسطورة التي ستبقي دولة إسرائيل على قيد الحياة فهو يتيح تعميم ما حدث في القدس سابقاً من تهويد ،هذا القانون هو إعادة ترتيب للواقع الملموس على الأرض وللمشهد المكاني ولنمط الحياة ليتناسب مع الأسطورة اليهودية ويمحو الأسطورة العربية الفلسطينية.

الإقرار بيهودية الدولة يترتب عليه وجوب أن يكون تراثها بالأكمل يهودياً ويترتب عليه أيضاً تقليص ومحو أية عوامل تراثية أخرى غير مرتبطة بالتراث التوراتي وهذا هو مسعى إسرائيل الحقيقي أن ينظر الناظر إلى التراث دون أن ينتابه الشك ولو لوهلة في مرجعيته اليهودية ،وبذلك تصبح مسألة محو التراث الفلسطيني من الذاكرة الإنسانية في أهمية محوه الملموس من على الأرض بما يعنيه هذا من محو للغة والرمز والهوية والأسطورة والأكيد للوجود المادي ، المحو للآخر هو غرض هذا القانون بشقيه المادي المتعلق بالمستوطنات والمعنوي المتعلق بقومية الدولة وكان هو نفسه الغرض الأساسي لما يعرف بحركة الإعمار في القدس المحتلة وعموم الأراضي الفلسطينية قبل وبعد العام١٩٦٨ الهدف هو خلق واقع جغرافي يعضد فكرة الدولة القومية اليهودية مواكب للأحلام الاستشراقية الغربية وفي الوقت نفسه يحيي أساطير اليشوف القديمة حول مملكة الهيكل ،واقع يتناسب مع جوهر الفكر القومي الصهيوني بصهر الأيدولوجيا القومية الدينية لخلق بيئة محيطة لاتعكس إلا مظاهر هذه الأيدولوجيا ماحية لأي ذكر لسواها وبهذا التحول في المشهد يصبح لا مجال للجدال في الحقوق التاريخية المزعومة للشعب اليهودي كما أنه لامجال للتشكيك في مفهوم الأمة اليهودية ،فنحن هنا أمام توسيع لمفهوم اليهودية كدين أي كمقوم ثقافي ضمن مكونات أخرى لتصبح هي أساس الثقافة في حد ذاتها ولتصبح أسطورتها هي تراث الدولة ،هذه هي الترجمة الحرفية العملية لما كان يعرف ببرنامج القدس أو برنامج توحيد الشعب اليهودي والذي أقره المؤتمر الصهيوني العالمي السابع والعشرون الذي أقيم بالقدس في العام١٩٦٨ بعد أشهر

قليلة من الاستيلاء على القدس الشرقية وورد قي مقرراته :»أن الشعب اليهودي في حاجة إلى مثال قومي عظيم وإلى حركة قومية شاملة تعمل على توحيده في سبيل القيم والتقاليد التاريخية ، وعليه كان تأسيس الدولة اليهودية هدفاً رئيساً للحركة الصهيونية ولكن الهدف النهائي كان دائماً الحفاظ على هوية الشعب اليهودي وإعادة توليد الأهمية الحيوية والإبداع اليهودي ،واليوم وأكثر من أي وقت مضى أصبح من الواضح ضرورة إدراج قوة متحققة لمحاربة الميل نحو محو الثقافة وعلى الحركة الصهيونية بوصفها الجماعة الأكثر تمثيلاً للشعب اليهودي أن تضطلع بدور القيادة لهذا النضال من خلال نظام مكتمل وواسع من التعليم اليهودي الرفيع .... والدولة والأرض هي ادوات أساسية لبناء نظام أخلاقي وقومي يتبعه بناء مجتمع جديد يهودي صرف يسمح للتحول الشخصي الذي هو الأساس للدولة اليهودية والمركز بالنسبة للحلم الصهيوني لصناعة شخص يهودي يكون مواطناً مستقيماً جندياً عند الضرورة ورجلاً مثقفاً ويهودياً مخلصاً بحس المثالية وحس الرسالة».

ما أرساه هذا البرنامج ووفقاً للقانون الجديد فإن إسرائيل هي دولة المواطن اليهودي المثالي فقط أما باقي المواطنين فهي غير مسؤولة عنهم بل هم يشكلون خطراً على الجنس اليهودي النقي بأفكارهم المتخلفة وعاداتهم الرديئة ويجب عزلهم في أقفاص وهو ما يحدث فعلياً في بعض الأحيان ،على سبيل المثال أقامت الحكومة الإسرائيلية ساتراً رملياً يفصل قرية جسر الزرقاء الساحلية الفقيرة داخل أراضي١٩٤٨ وبين مدينة قيسارية اليهودية ذات الثراء الفاحش هذا الساتر الذي زرع بالورود والأشجار وصمم على أنه حاجز طبيعي بسيط ،هو في الحقيقة جدار فصل عنصري اقتصادي وقومي ،نفس الأمر حدث في كيبوتز نير زيف الذي كان زراعياً وأصبح مجتمعاً حضرياً يبعد حوالي الخمسة عشر دقيقة عن تل أبيب حيث طالب السكان الحكومة بإقامة جدار عازل للصوت بطول ١,٥كم وإرتفاع ٤ أمتار لعزل الحي العربي في مدينة اللد التي تتعمد الحكومة الإسرائيلية تركها للفقر والمخدرات والأمراض بدعوى أن سكان اللد يسرقونهم ويتطفلون على حياتهم الخاصة ،وقد توسعت إسرائيل في إقامة الحواجز بين مناطق العرب واليهود بدعوى الحفاظ على الشعب اليهودي من خطر الأعراق الأخرى ومقاومة خطر الاندماج الثقافي والديني والحفاظ على النموذج الأنقى الذي تتطلع إليه الدولة .

هذه الحواجز أدت إلى وجود فجوة كبيرة في المستوى الاقتصادي والصحي والمادي بين اليهود والفلسطينيين وهي خطوة محسوبة تمهد لاستبعادهم السياسي وتثبت وضعهم في الدولة كجزء من النظام الاقتصادي يعمل أغلبه كعمالة رخيصة خدمية غير مؤهلة ،ويأتي التعليم هو الآخر ليكمل هذه المنظومة من التهميش والمحو الثقافي والاجتماعي ،فطبقاً للباحثة في الجامعة العبيرية «دافناجولان عجنون» فإن تعليم العرب في الدال الإسرائيلي يختلف تماماً عن تعليم اليهود ويشبه

إلى حد كبير التدريب على أعمال دنيا ومهنية ،ويشمل الاختلاف جميع النواحي سواء من طبيعة التعليم نفسها لطبيعة الجهات المشرفة عليه والتقليل المتعمد لمقررات الفنون والبرامج الإبداعية بالأخص وحتى الظروف الطبيعية بدءا من عدم توفر الأدوات الأساسية في الفصول وفقر الأنشطة وبرامج الحث على الإبتكار ،وترى الباحثة أن طريقة تعامل وزارة التعليم الإسرائيلية مع المدارس العربية هي الوجه الأوضح للتمييز العنصري وعدم المساواة في المجتمع الإسرائيلي ،والأكثر توضيحاً للتمييز وقهر التنوع العرقي في مجتمع الدولة العبرية ولذلك فلاغرابة في أن حوالي ال٨٪ فقط من الطلاب العرب هم من يصلون إلى التعليم الجامعي وأنه غالباً ما تكون معدلات درجاتهم في القبول أقل من نظائرهم اليهود .

أما في خارج أراضي ١٩٤٨ وفي القطاع وغزة فقد بنيت سياسة الحفاظ على العرق اليهودي منذ العام ١٩٦٧ على ما أسماه آرييل شارون يوماً نقل مصطلح العمق الاستراتيجي من خانة العسكرة إلى خانة التمدين ،حيث تصبح السياسة بمثابة الحرب والحرب بمثابة السياسة ،مما يجعل المستوطنات سداً لحماية القومية ونمط الحياة ،ابتدعه شارون عندما ارتحل من مكان لآخر متسلقاً المرتفعات معه خرائطه ليقرر الموقع الأنسب للمستوطنات في التضاريس المرتفعة والمهمة والعقد الطرفية الحيوية ،وبينما هو يمشي في خطته لعسكرة التمدين تعسكرت كل مجالات الحياة في إسرائيل لتحافظ على طابعها ككيان عنصري توسعي محتل يجند كل مناحي الحياة فيه لخلق إطار المواطن النموذجي المحارب المثقف الباني على حساب الآخرين مدعياً أنهم هم من يجبرونه على فعل ذلك بتصرفاتهم التي تسعى لتدميره منذ اللحظة الأولى قبل أعوام طويلة سبقت جعل تشجيع الاستيطان قانوناً أساسياً ،وبعد احتلال غزة والقطاع كان الهدف الأساسي الذي تبناه الإسرائيليون هو تفكيك مخيمات اللاجئين وتجريفها وشق طرق واسعة داخلها لخلق بنية هندسية تسهل لقوات الاحتلال الدخول والخروج دون مخاطر محتملة متزامناً مع خطط مستمرة للإفقار المنظم للفلسطينيين وتجفيف مواردهم وتبوير أراضيهم عبر السيطرة على موارد الماء كل ذلك بهدف دفعهم إما للارتباط بالاقتصاد الإسرائيلي من خلال أعمال ومشاريع هامشية وإما للنزوح خارج فلسطين والتخلص منهم نهائياً، تلا ذلك في السبعينات تبني الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة على اختلافها نهجاً لإقامة شبكة عنكبوتية تخترق أراضي وحياة الفلسطينيين عبر أمرين ،الأول هو التوسع الاستيطاني ،والثاني هو سلسلة من شبكات الطرق بين المدن والمستوطنات تربط المركز بالبلدات الحدودية والبؤر الاستيطانية دون المرور على المدن والبلدات الفلسطينية وقد شبهت المقالات الصحافية تلك البؤر ببلدات الغرب الأميركي التي كانت تحمي المراكز الحضرية في شرق وغرب ووسط أميركا من هجوم الهنود الحمر ،وحتى في اتفاقيات أوسلو اشتمل المفهوم الأمني

الإسرائيلي على منظومة معقدة من التصورات المناطقية والمعمارية والمؤسساتية يهدف إلى توزيع الكتلة الفلسطينية ضمن الفضاء الإسرائيلي المهيمن وهو ما أطلق عليه الناشط تال آربيل «الأنظمة الحركية الإسرائيلية» ، بمقتضى هذه الأنظمة تسيطر إسرائيل على الفضاء والهواء ومصادرالمياه والطرق وحتى قطر أنابيب المياه الواصله للبيوت والأحياء ،وكل ماتغير هو تمكين المواطن العربي من العيش دون أن يكون بحاجة إلى التعاطي مع إسرائيلي بشكل مباشر أي «سياسة المرايا» كما كانت إسرائيل تطلق عليها وتسعى لتنفيذها منذ العام١٩٦٦ .

أي أن أوسلو هي أيضاً كانت بشكل ما استكمال للنهج المعرفي والعملي الذي يسعى للفصل بين العرب واليهود والسيطرة الشاملة على حركة الفلسطينيين ويرى في هذا الركيزة الأساسية لإرساء الأمن اليهودي الجمعي .

وهو ماحدث فعلاً على أرض الواقع وكان قانون قواعد الاشتباك الذي أصدرته القوات الاسرائيلية في٢٠٠٣ أحد فصوله النهائية ،هذا القانون الذي يمنع أي فلسطيني أن يشخص ببصره نحو أية مستوطنة وإلا كان من حق القناصة في هذه المستوطنة إطلاق النار عليه مباشرة مما دفع الصحافي الإسرائيلي جدعون ليفي للتعقيب على استحالة تطبيقه بقوله «من الصعب أن تجد نافذة في منزل فلسطيني لا يرى الناظر منها بعض السطوح القرميدية الحمراء من المستوطنة المجاورة ..... من محل محترق لبيع الملابس في بيت لحم التي أعيد إحتلالها ،من نافذة حمام في كفر بيت دجن ،من نافذة غرفة المعيشة في قرية سنجل ،من فوهة كهف حيث يقيم سكان الكهوف جنوب جبل الخليل ، من مكتب في نابلس أو مخزن في رام الله من كل مكان يمكنك إستجلاء المستوطنة على أعلى التلة ترتسم كإمارة كولونيالية مخيفة ... منازل منشغلة عما حولها ،تنذر بالوعيد ،وتوحي بالغلبة ،لاحد لنهمها».

وبصدور قانون القومية أصبح للنظام القضائي الإسرائيلي مرجعية قانونية تثبت أن وظيفته الأساسية هي تسهيل مهمة المستوطنين في الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية في الضفة والقطاع ،بل ووضع اللوائح التنفيذية وتوفير الحجج القانونية لتقنين هذا الإستيلاء وأيضاً لخلق ظهير طبيعي لحماية أمن هذه المستوطنات وتوفير سبل الإعاشة لها .

رغم كل هذا تظل الثقافة والهوية الفلسطينية صامدة على أرضها مدافعة عن حقها في الوجود وفي الحرية وفي العيش بالسلام وستبقى المقولة الرعب «كنا هنا قبلكم وسنظل بعدكم» هي الحقيقة الواحدة رغم كل محاولات التمييز والمحو والتهميش مادام هناك من يحمل مفاتيح التراث من جيل إلى جيل.

المراجـع:

١- هنري لورنس –مسألة فلسطين – المجلد الثاني -الكتاب الرابع رسالة مقدسة للعالم المتمدن (١٩٣٢ ـ١٩٤٧) – ترجمة بشير السباعي ـ المشروع القومي للترجمة ط١ ـ٢٠٠٧

٢- هنري لورنس ـ مسألة فلسطين ـ المجلد الثالث تحقق النبوءات (١٩٤٧ ـ ١٩٦٧) - ترجمة بشير السباعي ـ المشروع القومي للترجمة ط١ -٢٠٠٨

٣- فرجينيا تيلي – حل الدولة الواحدة – ترجمة ربيع وهبة - المركز القومي للترجمةط١ – ٢٠١٦

٤- آيال وايزمان – أرض جوفاء الهندسة المعمارية للإحتلال الإسرائيلي – ترجمة باسل وطفة – مدارات للأبحاث والنشر ط١ –بيروت٢٠١٧

5- Simone Ricca –Reinventing Jerusalem – J. B. Turis Press –London 2007- First Edition

6- Sammy Smooha – Arab, Jewish Relations in Israel – United States Institute of peace – Washington2010

7- Teodora Tdorova -Reframing Israel – Palestine: Critical Israeli Responses to the Palestinian call for just and peace – PHD. University of Nottingham –United Kingdome –Jan2014

8- Separate but not equal – Daphna Golan-Agnon – American Behavioral Scientist Magazine –Vol49 –April2006

9- Apartheid, International law, and the occupied Palestinian Territory – John Dugard and John Reynolds – The European Journal of International Law –Vol242013-

10- Religion and the Secular State in Israel –Natan Lerner –Herzeliya Interdisciplinary Center –Tel Aviv University

11- Apartheid outside Africa. The case of Israel – John Quigley - Internet

القضية الفلسطينية والتوصيات في التقرير الإستراتيجي الإسرائيلي السنوي الصادر عن مركز أبحاث الأمن القومي - جامعة تل أبيب ٢٠١٨-٢٠١٩

عليان الهندي*

صدر عن مركز أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي في جامعة تل أبيب التقييم الإستراتيجي السنوي الذي اعتاد المركز نشره منذ عام ٢٠٠٩ حتى اليوم. وقد حل التقييم الاستراتيجي، مكان ما كان يعرف بالتقرير الإستراتيجي السنوي.

يستخدم مصطلح التقييم هنا في أجهزة الأمن الإسرائيلية، خاصة في جهاز الاستخبارات الذي يعد تقييما سنويا يقدم لأصحاب القرار في إسرائيل، يشرح فيه التهديدات والفرص المتاحة أمامها، ويقدم التوصيات المطلوب تبنيها من قبل المستوى السياسي في كل عام جديد.

يحاكي التقييم الحالي المذكور التقارير بشكل كبير جدا، خاصة أن كاتبي التقييم كانوا في معظمهم من كبار ضباط الجيش الإسرائيلي الذين يقف على رأسهم الجنرال المتقاعد عاموس يادلين رئيس المركز. وللتسهيل على القارئ استخدمنا كلمة «تقرير» بدلا من «تقييم".

وحسب المحرران (العميد شلومو بروم وعنات كوارتس)، وجه التقرير الحالي لأصحاب القرار وموجهي الرأي العام والمجتمع الأكاديمي المختص بالشؤون الأمنية في إسرائيل والعالم، والجمهور الإسرائيلي المعني بذلك. شارك في كتابة التقرير سبعة من كبار الباحثين والكتاب والمختصين الذين شغلوا في السابق مناصب عسكرية وأمنية وسياسية ودبلوماسية وأكاديمية رفيعة في مؤسسات الحكم المختلفة في إسرائيل.

تضمن التقرير مقدمة وستة مواضيع هي: إيران –استعدادا لسنة الحسم والتوجهات (سيما شيين وراز تسيمت)، والجبهة الشمالية – على مفترق طرق (أودي ديكل وعنات بن حاييم)، والتقلبات في المجتمع الدولي وتأثيرات ذلك على الشرق الأوسط (إلداد شبيط)، والساحة الفلسطينية-أزمة

*عليان الهندي: باحث في الشؤون الإسرائيلية ومترجم لغة عبرية.

تحمل في طياتها فرصا لإسرائيل (أودي ديكل مسؤول الملف الفلسطيني خلال حكومة إيهود أولمرط)، وهل الديمقراطية الإسرائيلية في خطر (بنينا شربيط باروخ)، والخلاصة التي تتضمن التقييم الاستراتيجي وتوصيات لتبني سياسات (الجنرال المتقاعد ورئيس المركز عاموس يادلين).

خلال التلخيص حرصت على استخدام المصطلحات الإسرائيلية كما هي، لمساعدة القارئ على فهم أوسع للموقف الإسرائيلي، علما أن لا المصطلحات ولا المواقف المذكورة تعبر بأي شكل من الأشكال عن رأيي الشخصي.

كتب التقرير في ظل جمود كامل في المسار الفلسطيني على جبهتيه، في الضفة الغربية وقطاع غزة، ما ترك آثارا سياسية واقتصادية واجتماعية مدمرة على الفلسطينيين، ما يتطلب منهم العمل لتبني استراتيجية جديدة تأخذ بعين الاعتبار استمرار الوضع القائم لسنوات قادمة.

يتضمن التقرير، تلخيصا لما تطرق إليه في الموضوع الفلسطيني، وترجمة كل التوصيات التي قدمها رئيس المركز الجنرال احتياط عاموس يادلين، بالمواضيع المختلفة، في حين لم يتم تلخيص التوصيات المفصلة التي قدمها الباحثون في المواضيع المختلفة، نظرا لاحتواء توصيات التقرير النهائية على كل عناصر التوصيات المذكورة.

القضية الفلسطينية والفرص المتاحة لإسرائيل

الأزمات الفلسطينية العميقة - ذكر التقرير أن الساحة الفلسطينية تمر بأزمات عميقة تشغل الشارع الفلسطيني، نتيجة عوامل مختلفة أهمها:

اليوم التالي بعد رحيل الرئيس محمود عباس - تسبب انشغال أجهزة الحكم الفلسطينية في اليوم التالي بعد انتهاء حكم الرئيس محمود عباس ،بحكم التقدم في العمر، بحالة شلل في عملية اتخاذ القرارات المصيرية في الجانب الفلسطيني. لكن المرشحين «الطبيعيين» لخلافة الرئيس لا يتمتعون بشعبية كافية، ويعتبرهم الجيل الجديد من الفلسطينيين مخيبين للآمال لأنهم من الجيل القديم –جيل تونس.

يشغل الرئيس الفلسطيني ثلاثة مناصب مهمة هي: رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح والسلطة الفلسطينية. وفي حالة رحيله ستبرز ثلاثة خيارات هي: إما قيادة جماعية وتقاسم

الصلاحيات، أو اختيار زعيم من حركة فتح يتولى معظم صلاحيات محمود عباس، أو انقسام وتعزيز مناطق السيطرة المحلية وفق أسس عشائرية وقبلية كتلك السائدة اليوم في الضفة الغربية.

ونتيجة كل ذلك، لا يعرف كيف سيكون جهاز الحكم بعد يوم من رحيل أبو مازن، وهل ستذهب المناطق باتجاه انتخابات عامة أم لا ؟. وكيف ستدمج حركة حماس ؟. وكيف سيرد الشارع الفلسطيني؟.

تراجع فكرة الوطنية - تسبب الجمود السياسي المتواصل مع إسرائيل بخيبة أمل وإحباط متراكمين، ساعدا في تحطيم مركزية فكرة الوطنية الفلسطينية الُموحِدة. وتشير استطلاعات الرأي العام الفلسطينية إلى أولويات أخرى للفلسطينيين مثل الرفاه وحقوق الانسان وتراجع تأييد حل دولتين لشعبين في أوساط الشباب الفلسطيني.

الانقسام الفلسطيني الداخلي - انعدام إمكانية المصالحة بين حركتي فتح وحماس، نظرا للتباعد الكبير في مواقفهما، نتيجة استمرار سيطرة حركة حماس على السلطة في قطاع غزة، ومحاولاتها تحويل نفسها عنواناً مطلقاً هناك، والتباعد الجغرافي بين المنطقتين، ما بدا أنه قضى على الحلم الفلسطيني الموحد رغم اتفاقيات المصالحة الكثيرة. وتحول الانقسام إلى حقيقة شبه مطلقة، وأضعف السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية كممثلين منفردين للشعب الفلسطيني.

الأزمة في قطاع غزة - عدم وجود حلول سحرية لقطاع غزة، حيث يزداد الوضع الانساني خطورة، ويمكن أن ينفجر بسبب الحصار الإسرائيلي، الذي يتسبب في إعاقة بناء البنى التحتية. ويضاف إلى ذلك، العقوبات المالية التي فرضها الرئيس الفلسطيني محمود عباس. كما فشلت حركة حماس في خرق الحصار بواسطة مسيرات العودة، ما تسبب بجولات من التدهور العسكري المحدود، دفع بالطرف المصري ،الجهة الوحيدة القادرة على ضبط الأوضاع، إلى التدخل والسير في ثلاثة مسارات متساوية للتفاوض هي:

- مفاوضات مع حركتي الجهاد وحماس لوقف إطلاق النار وتخفيف الحصار عن قطاع غزة.
- بذل الجهود لعقد مصالحة بين السلطة الفلسطينية وحركة حماس.
- إجراء عملية تبادل للأسرى بين إسرائيل وحماس.

وفي السياق المذكور، نجحت الجهود المصرية بالتوصل إلى تسوية، وليس اتفاق، بمساعدة من المبعوث الدولي لعملية السلام في الشرق الأوسط نيكولاي ملادينوف وقطر كطرف ممول.

وجاءت التفاهمات بهدف المحافظة على التوازن بين الأطراف الثلاثة- السلطة الفلسطينية وحركة

حماس ودولة إسرائيل، ذلك أن أية تسوية بين حماس وإسرائيل تعني بالضرورة مسا بمكانة السلطة الفلسطينية، التي عمل رئيسها على تخريب كل الجهود المنفردة، بواسطة خوض مواجهة مباشرة وغير مباشرة مع مصر والجهات الدولية والمبعوث الأميركي غيسون غرينبلات، وهدد بوقف كل الميزانيات المخصصة للسلطة في غزة. ونصت التفاهمات على:

أ. وقف إطلاق نار طويل مقابل تخفيف الحصار، الذي تضمن:

- تخفيض مستوى العنف على جدار القطاع مقابل توسيع إسرائيل منطقة الصيد فيها.
- زيادة دخول البضائع والسماح بإدخال الوقود بتمويل قطر، التي تعهدت بتزويد حركة حماس بـ ١٥ مليون دولار أمريكي لمدة عام كامل لدفع مرتبات عناصرها.
- إبقاء معبر رفح مفتوحا أمام البضائع والبشر.

ب. صفقة تبادل الجثث والمدنيين الإسرائيليين.

ت. إعادة بناء قطاع غزة.

ث. إعادة السلطة إلى القطاع بشكل تدريجي.

اتفقت الأطراف على أن تنفيذ صفقة تبادل الجثث والمختفين الإسرائيليين تعتبر شرطا للانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية، التي تتضمن إقامة مشاريع وبنى تحتية وخلق عشرات آلاف فرص العمل بتمويل من المجتمع الدولي، وربما تدشين ممر مائي بين غزة وقبرص أو العريش. وفي السياق المذكور، لا بد من الإشارة، أن المصالحة الفلسطينية ضرورية من أجل إدخال المساعدات الدولية، لأن مختلف دول العالم تشترط تقديم المساعدات بواسطة السلطة الفلسطينية.

غير أن الأحداث الأمنية التي وقعت داخل قطاع غزة في أعقاب الاشتباك المسلح مع القوات الإسرائيلية الخاصة، جاءت مع بداية تنفيذ البند الأول من الاتفاق الذي يدعو إلى مجموعة من الإجراءات المذكورة أعلاه، ما تسبب في إعاقة تنفيذ التفاهمات المتفق عليها، التي عادت بسرعة لرغبة إسرائيل بمنع التصعيد.

وفي السياقات المذكورة، لا بد من الإشارة إلى النقاط التالية:

أولا، أجهضت إسرائيل محاولات محمود عباس إخضاع حركة حماس وأجرت مفاوضات معها، ورفضت التقدم بالمسيرة السلمية مع السلطة الفلسطينية التي تعتبر شريكا سياسيا لها.

ثانيا، أجرت مصر اتصالات مع حركة حماس وإسرائيل للتوصل إلى تسوية من دون مشاركة السلطة

الفلسطينية، التي تمثل كل الفلسطينيين، ما يدفع إلى تخليد سيطرة الحركة على القطاع من دون التوصل لأي اتفاق مصالحة، التي لو حصلت لمست بالقدرات الإسرائيلية على مواصلة الفصل بين الضفة الغربية وقطاع غزة.

ثالثا، المعركة التي تخوضها حركة حماس ضد الحصار، هدفها تحسين مكانتها الداخلية ومحاربة حركة فتح والسلطة، من خلال إرباك إسرائيل، وتصوير نفسها أنها قائدة المقاومة الشعبية.

بالنسبة لقطاع غزة، فإن المصلحة الاستراتيجية الإسرائيلية تتطلب: العمل على تفضيل مصالح إسرائيل بعيدة المدى على مصالحها القريبة، وعليها السماح بإعمار قطاع غزة من خلال السلطة فقط، كي تقطف السلطة وليست حماس بذور هذا الانجاز. ولتحقيق ذلك، عليها التنسيق مع مصر والمجتمع الدولي والسلطة الفلسطينية، بهدف تخفيف الأزمة الإنسانية وإعادة الأخيرة إلى القطاع بهدف التقدم في المسيرة السلمية. علاوة على ذلك، يشكل العمل المشترك آلية ضغط كبيرة على حركة حماس وتقييد قدرتها على المناورة. كما أن إشراك قوة تنفيذية دولية في القطاع سيكون عامل ضبط لحماس، تزيد من خسائرها إذا قررت العودة إلى العنف.

وفي جميع الأحوال، مطالبة إسرائيل بإخلاء الدولة الفلسطينية المستقبلية من السلاح، يدفعها عاجلا أم آجلا إلى شن عملية عسكرية ضد القطاع من أجل إخلائه من السلاح المهدد لها.

الواقع الاقتصادي - رغم تميز اقتصاد الضفة الغربية عن اقتصاد قطاع غزة إلا أنه يعاني من مشاكل أساسية هي: تعلق الاقتصاد الفلسطيني بإسرائيل التي تُشغل ١٣٠ ألف عامل فيها وبالمناطق الصناعية في المستوطنات، وتراجع نسبة النمو ٢٪، وارتفاع في الدين العام، الذي وصل إلى ٦٠٠ مليون دولار، وسيصل العجز في الميزانية إلى ١,٢٤ مليار دولار، نتيجة تراجع الدعم الإقليمي والدولي.

أما في قطاع غزة فإن نسبة البطالة تصل إلى ٧٠٪ ويعتبر كل شخص ثاني في القطاع تحت خط الفقر. واستمرار الضغط الاقتصادي سيزيد من خطورة الأوضاع. وذكر تقرير البنك الدولي، أن تخفيف العقوبات على القطاع، وضخ الأموال إليه من السلطة الفلسطينية سيزيد من صعوبات دفع مرتبات موظفيها في الضفة، ما يؤثر على مكانتها هناك.

وتركت الأزمة الاقتصادية آثاراً سياسية في أوساط النخب الفلسطينية (الفتحاوية والحمساوية)، تمثلت بالبحث عن خيارات سياسية أخرى مثل حل الدولة الواحدة بدلا من حل دولتين لشعبين.

العلاقات مع الولايات المتحدة - انعدام ثقة الفلسطينيين بالإدارة الأميركية التي يقودها دونالد ترامب، بعد أن حدد مواقفه بعدد من قضايا الحل النهائي في الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني لصالح

إسرائيل، وأزال عن جدول أعمال المفاوضات القدس التي اعترف بأنها عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأميركية إليها، وأوقف دعم السلطة الاقتصادي، وحيّد الاعتراض الفلسطيني عن أية علاقات بين إسرائيل والدول العربية، وأغلق ممثلية منظمة التحرير الفلسطينة. إضافة أن صفقة القرن لا تتضمن إقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة ولا إخلاء للمستوطنات. ما أفقد الإدارة الأميركية مصداقيتها، ووضع صعوبات كبيرة جدا أمام تقدم أية مبادرة سياسة (صفقة القرن) لإيجاد حل في الصراع بين الجانبين.

ولم تر القيادة الفلسطينية بمواقف وقرارات ترامب، والمقترحات الأميركية التي قدمت من قبل جيرارد كوشنير وغيسون غرينبلات، بأنها تتلاءم مع الواقع وتميل لصالح إسرائيل، وأعلن الرئيس محمود عباس والمقربون منه أن الولايات المتحدة فقدت مكانتها كوسيط نزيه ومحترم، وفي خطاب أمام المجلس المركزي في ٢٨ تشرين أول عام ٢٠١٨ أكد على رفضه لأية مشاريع أمريكية أو لفصل قطاع غزة عن الضفة الغربية ورفع شعار «لا دولة في غزة، ولا دولة من دون غزة». وقال إن سياسة حركة حماس تخدم أجندة فصل قطاع غزة عن السلطة في الضفة الغربية، وأنه لا مساس برواتب الأسرى الذي اعتبرهم خطاً أحمراً.

مأزق سياسي ومستقبل ضبابي

عدم القدرة على اتخاذ قرارات مصيرية، في الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني وتهرب القيادتين من أية استحقاقات مستقبلية، يمنع أي تقدم في المسيرة السلمية، وايجاد حل انساني لقطاع غزة، ويبقي الوضع القائم على حاله.

من جهتها أعلنت القيادة الفلسطينية عن رفضها التعامل مع مقترحات ترامب. في حين فضل بنيامين نتنياهو تأجيل طرح خطة سياسية بسبب الانتخابات، وحتى استيضاح مستقبل الحكم الفلسطيني بعد رحيل محمود عباس.

ومن الواضح أن العرب تراجعوا عن تأييدهم للخطة الأميركية (صفقة القرن)، ولا يوجد اليوم أي طرف عربي يتعامل بجدية معها.

أما الإدارة الأميركية، فتشير تصرفاتها أنها تميل إلى المواقف الإسرائيلية من الحل النهائي الداعية إلى التوصل لتسوية ليست قائمة بالضرورة على قيام دولة فلسطينية كاملة السيادة ولا على حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧. وفي السياق المذكور، صرحت مندوبة الولايات المتحدة الأميركية نيكي هيلي أن حق العودة للاجئين الفلسطينيين وورثتهم أزيل عن جدول الأعمال وأن الحل يتطلب

رؤية جديدة، والحلول السابقة رفضها الفلسطينيون، والصفقة بصغيتها النهائية لم تطرح لأنها لم تتبلور بما فيه الكفاية، وهناك صعوبات في ايجاد مظلة إقليمية تدعمها، تقنع الطرف الفلسطيني بالتعامل معها، ولا يوجد وقت مناسب لطرحها.

من جهتها تهتم إسرائيل بضمان استقرار الحكم بعد رحيل الرئيس محمود عباس، لإدراكها أن عدم وجود سلطة مستقرة يزيد الإرهاب ويدفع أطرافاً أخرى مثل تركيا وإيران وتنظيمات السلفية الجهادية إلى استغلال الوضع، لأنها ترى برحيله فرصة لزعزعة الواقع الحالي لصالح واقع مؤذٍ لإسرائيل في المجالين الأمني والديمغرافي.

توجهات مستقبلية ؟

يواجه مستقبل الحكم في الضفة الغربية ثلاث خيارات هي:

- وجود سلطة عاملة ومتعاونة – تمارس السلطة مهامها وتقدم خدماتها لجمهورها وتسيطر أمنيا، وهي العنوان السياسي الذي يتعاون مع إسرائيل.
- سلطة معادية لإسرائيل - لا تتعاون معها وتسمح بشن «عمليات إرهابية» وتتعاون مع «الإرهابيين».
- سلطة فاشلة - تفقد قوتها وتتوقف أجهزتها عن العمل وتفقد عنصر القوة وغير مؤهلة للعمل كجهة سلطوية مركزية، وربما يؤدي هذا الوضع إلى تصعيد واسع مع إسرائيل.

بالنسبة لإسرائيل، تتطلب مصلحتها وجود سلطة مسؤولة ومستقرة، تعمل بفاعلية وتتعاون أمنيا معها وتحارب الارهاب وحركة حماس وفق مصالح مشتركة، وترى ببناء مؤسسات فلسطينية عنصر ضبط ومصلحة إسرائيلية.

يشار أن عدم وجود أفق سياسي، وتراجع المساعدات الدولية، يقلل من احتمال استقرار واستمرار وجود سلطة مسؤولة عاملة تتعاون مع إسرائيل. وحسب التقديرات فإن احتمالات اندلاع أعمال عنف ازدادت في الآونة الأخيرة بدرجة كبيرة، خاصة أن حماس وبتشجيع من إيران وتركيا تستطيع شن هجمات إرهابية في الضفة الغربية مع استمرار الهدوء النسبي في قطاع غزة، مستغلة بذلك تراجع مكانة الرئيس محمود عباس الصحية والسياسية وحاجته للشرعية الفلسطينية وعلاقته غير الجيدة مع الدول العربية والجمهور.

سياسات إسرائيل: انعكاسات وتوصيات لعام ٢٠١٩

أيقنت الحكومة الإسرائيلية أنه لا يمكن التوصل لتسوية شاملة مع الفلسطينيين لعدة أسباب هي:

عدم وجود قيادة فلسطينية قادرة على التوصل لاتفاق سلام وتنفيذه، حتى لو تواجدت قيادة فهي منقسمة بين فتح وحماس، التي تمنعها إسرائيل من السيطرة على الضفة الغربية.

وجود حكومة إسرائيلية تعتمد في الأساس على اليمين الذي ترفض بعض مكوناته حلاً قائماً على أساس دولتين لشعبين في الوقت الحاضر على الأقل.

مواقف متباعدة في قضايا الحل النهائي، مثل عدم إبداء الجانب الفلسطيني أية ليونة في مسائل حق العودة للاجئين وتقسيم القدس والاعتراف بدولة إسرائيل دولة للشعب اليهودي والتوصل لحل قائم على دولتين وطنيتين.

يشار أن عام ٢٠١٨، الذي اختارت فيه إسرائيل عزل السلطة الفلسطينية، شهد ذكرى مرور ٢٥ عاماً على توقيع الاتفاقيات بين إسرائيل و م.ت.ف، تم خلالها اقتحام مقرات ومؤسسات السلطة، والتفاوض مع حركة حماس، التي لا تعترف بها وتمارس الإرهاب ضدها، للتوصل إلى تسويات أو تفاهمات تتعلق بقطاع غزة. وبذلك تقدم السياسة الإسرائيلية المذكورة، رسائل لمختلف الأطراف، مفادها بأنها تتفاعل مع أعمال الإرهاب الممارس ضدها.

إضافة لذلك، تتمسك إسرائيل بإدارة النزاع مع الفلسطينيين، وتشعر بأن الوقت يعمل لصالحها، وبالتالي لا يوجد مبرر لتقديم مبادرة سياسية قبل اتضاح موازن القوى في الساحتين العربية والفلسطينية. وتتمركز سياسة إسرائيل الحالية في الاستجابة للمخاطر الأمنية، وخلق بيئة قانونية وتشريعية لفرض القانون الإسرائيلي وضم أراضي من يهودا والسامرة.

الوضع المذكور ،يتطلب من دولة إسرائيل، الاستجابة للمقترح الذي قدمه مركز أبحاث الأمن القومي، الذي يدعو لوضع محددات سياسية وأمنية لتحسين وضع إسرائيل الاستراتيجي، وفتح خيارات تؤدي لانفصال سياسي وديموغرافي وإقليمي عن الفلسطينيين، مستفيدة بذلك من تفوقها الاستراتيجي على جميع جاراتها العربيات. والخيارات هي: إما خيار حل دولتين لشعبين أو الدولة الواحدة التي تتضمن خياران هما: إما دولة لكل مواطنيها أو دولة واحدة من دون حقوق متساوية.

وفي حال تبنيها لمثل هذه المبادرة، ستعزز مكانة إسرائيل الدولية، وتزداد إمكانية إقامة علاقات مع دول عربية سنية معتدلة، والأهم من كل ذلك، يتوقف الزحف الحالي إلى الواقع المعقد للدولة الواحدة، ويساعد إسرائيل في تحقيق حلمها بدولة يهودية ديمقراطية وآمنة وذات أبعاد أخلاقية.

لكن لا بد من الإشارة، أن استمرار الوضع الحالي الداعي لفرض القانون الإسرائيلي في الضفة الغربية، يعني أن إسرائيل تزحف نحو الدولة الواحدة، ما يضع صعوبات مستقبلية أمام الفصل بين الشعبين، ويبعد وينهي حل دولتين لشعبين. وتلقى فكرة الدولة الواحدة داعمين كثر في أوساط اليهود، رغم تفوق نسبة المؤيدين للإنفصال عن الفلسطينيين، وكذلك الحال بالنسبة للعرب (خاصة الشباب منهم)، لكن دعم إقامة دولة واحدة في صفوف اليهود، يزول بمجرد وجود قوميتين مختلفتين لا ترغبان بالاندماج سويا في مجتمع واحد.

وإضافة لذلك، لا يوجد نموذج تاريخي ناجح، والخطر من التوجه نحو الدولة الواحدة مع أغلبية عربية، هو بتعريضه للخطر المشروع الصهيوني، كما أن استطلاعات الرأي المختلفة تشير أن الجمهور الإسرائيلي ما زال يؤيد حل دولتين لشعبين والانفصال عن الفلسطينيين، وعندما يتعمق فهم فوائد الانفصال ستزداد نسبة المؤيدين للفصل.

وفي كل الأحوال، لا توجد إمكانية بأن يوافق المجتمع الإسرائيلي على مساواة كاملة الحقوق مع الفلسطينيين في إطار الدولة الواحدة، وستصد كل محاولة فلسطينية للوصول إلى مساواة من قبل اليهود بالقوة، ما يؤدي لعدم الاستقرار واندلاع أعمال عنف، وربما حرب أهلية.

ونتيجة لتعميق سيطرة إسرائيل العسكرية على أراضي يهودا والسامرة وتوسع البناء في المستوطنات ،ما اعتبره الفلسطينيون والمجتمع الدولي فرض وقائع أحادية الجانب من أجل تدمير حل الدولتين، تقلصت الخيارات أمام إسرائيل، وخلقت واقعا معقدا لا يسمح الانفصال، ما يؤدي إلى تراجع مكانة إسرائيل، ويسمح بتجنيد المزيد من اليهود الليبراليين في الولايات المتحدة ضدها، ومضاعفة العمل لمقاطعتها.

إضافة لذلك، ترى إسرائيل بالصراع مع الفلسطينيين صراعا ثانويا مقارنة مع التهديد الإيراني في الشمال، وهي تعمل على حماية عدد من مصالحها الأساسية في الضفة الغربية وهي:

استمرار الهدوء الأمني المعتمد في الأساس على تفكيك البنى التحتية للارهاب، والتنسيق مع الأجهزة الأمنية الفلسطينية، وتبذل جهود اقتصادية لتحسين مستوى الحياة لتقليص الرغبة بالتوجه نحو الارهاب والعنف.

استمرار وجود سلطة فلسطينية مسؤولة ومتعاونة، يمكن رسم قواعد اللعب معها، تهتم بالمدنيين وتعارض تعزيز حركة حماس وجودها في الضفة الغربية، وترفض التعاون مع الجهات المثيرة لعدم الاستقرار مثل إيران، وملتزمة بالتنسيق والتعاون الأمني مع إسرائيل.

استمرار الفصل الجغرافي والسياسي في صفوف الفلسطينيين، وتقليل التأثيرات السلبية القادمة من قطاع غزة إلى الضفة الغربية.

الحاجة لمبادرة وسعي لواقع مُحَسن لإسرائيل

وفق الفهم الأساسي بأن إسرائيل تمر في مأزق بكل ما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، وعلى عكس التقييمات القائلة بأنه لا يمكن عمل شيء، بلور المعهد توجهاً لجهود سياسية وأمنية في الساحة الإسرائيلية-الفلسطينية بهدف:

- تحسين وضع إسرائيل الاستراتيجي وإبقاء الخيارات المستقبلية مفتوحة أمامها.
- منع الزحف نحو الدولة الواحدة، التي تقودنا نحوها الإجراءات الإسرائيلية الحالية.

ويدور الحديث عن انفصال أحادي الجانب، يتمثل بفصل إقليمي وديموغرافي عن الفلسطينيين للمحافظة على إسرائيل يهودية وديمقراطية وآمنة وأخلاقية ويحافظ على المصالح الأساسية والأمنية، ويؤدي لخلق كيانين مستقلين عن بعضهما البعض.

ويأتي الفصل أحادي الجانب لأن خيار حل دولتين لشعبين لم يعد قابلاً للتنفيذ في المستقبل المنظور على الأقل. ونتيجة ذلك أُقترحت ثلاثة مسارات للتقدم، تنص على تنفيذ كل ما يتفق عليه أو قابل للتنفيذ، بدلا من صيغة «كل شيء أو لا شيء». والخيارات الثلاثة هي:

انفصال أحادي الجانب عن إسرائيل من أجل التقدم نحو كيانين سياسيين منفردين ومميزين، لإثبات نوايا إسرائيل الجديدة.

منع الفلسطينيين من استخدام «الفيتو» ضد أي مقترح.

تجنيد دعم إقليمي يتضمن توفير مساعدات للسلطة الفلسطينية لبناء وتحسين الوضع الاقتصادي، وفي نفس الوقت تعزيز التعاون مع إسرائيل.

وقت العمل

الوضع الاستراتيجي الخاص المميز لإسرائيل يمنحها فرصة لتحديد مستقبلها، بدلا من الزحف نحو الدولة الواحدة، ولتحقيق ذلك بفاعلية يجب استغلال الميزات الاستراتيجية التالية:

- الدعم اللامحدود الذي تقدمه الإدارة الأميركية لإسرائيل.
- استعداد الكثير من الدول العربية التعاون مع إسرائيل، ومساعدتها في توفير الظروف المناسبة لقيام دولة فلسطينية مستقلة وفاعلة.

- عدم مركزية القضية الفلسطينة في الوقت الحاضر، إن كان في الشرق الأوسط أو في العالم، ما تسبب في إضعاف قدرة الفلسطينيين على استخدام «حق النقض» في التوصل لأي حل.
- تأييد الجمهور الإسرائيلي المتواصل لفكرة الانفصال كمقدمة لحل دولتين لشعبين.
- استعداد المجتمع الدولي للتدخل، إذا أبدت إسرائيل الرغبة في العودة إلى طاولة المفاوضات.
- إسرائيل دولة قوية ومستقرة، وتتمتع بتفوق عسكري وتكنولوجي كبير على أعدائها، ما يفتح أمامها مجالات العمل بحرية في المجالين الأمني والسياسي.
- ويمكن القول أن خطوات الفصل أحادي الجانب تتلاءم مع المصالح الإسرائيلية، ويعزز استقرارها الاستراتيجي.
- المخطط المقدم من المركز، لا يقدم حلولاً سياسية شاملة، بل مساراً لخلق واقع استراتيجي مُحسن لإسرائيل، يمكنها من المحافظة على بقاء كل الخيارات مفتوحة أمامها.

المبادئ المُوجِهة

إعادة وتركيب وليونة- يُمكن إسرائيل طوال الوقت من اختيار مسارات عمل بديلة وفق الشروط المتغيرة والبيئة الاستراتيجية من أجل تعزيز هدف قيام دولة ديمقراطية آمنة وأخلاقية.

تعزيز عناصر الأمن - المحافظة على حرية العمل في كل مناطق يهودا والسامرة غرب نهر الأردن مع تقليل الاحتكاك بالسكان الفلسطينيين.

تعزيز التعاون مع أجهزة الأمن الفلسطينية - وفق مبدأ كلما زداد عملها قلل الجيش الإسرائيلي من عملياته في المناطق الخاضعة لأجهزة الأمن الفلسطينية.

دمج وعرض وتحديد المصالح السياسية والأمنية والإقليمية لإسرائيل - في يهودا والسامرة استعدادا لتسويات مستقبلية، وتحسين وضع إسرائيل الاستراتيجي في ظل انعدام أفق التقدم السياسي، عبر توضيح نواياهاالمستقبلية بأفعال على الأرض، تؤدي إلى انفصال سياسي وإقليمي عن الفلسطينيين، وايجاد ظروف تمكن من تنفيذ حل مستقبلي قائم على «دولتين لشعبين».

إعادة تنظيم مناطق يهودا والسامرة

الأول: تُسلم إسرائيل السلطة الفلسطينية صلاحيات أمنية في مناطق Bكما هو الحال بمناطقA وتسمح بتواصل جغرافي بين المنطقتين، ويكون التواصل جزءاً من الدولة الفلسطينية المستقلة، أو

جزءاً من دولة في حدود مؤقتة. وتضم هذه المنطقة ٤٠٪ من الأرض و ٩٥٪ من السكان.

الثاني: تمنح إسرائيل السلطة الفلسطينية ٢٥٪ من الأراضي الواقعة في منطقة C للتطوير والمشاريع الاقتصادية لتشجيع الاقتصاد ونقل المناطق المأهولة بالسكان من هذه المناطق إلى السيطرة الفلسطينية. وبمساعدة من المجتمع الدولي تقام مصانع طاقة خضراء وتطور السياحة وتعد بنية تحتية لبناء مساكن وغير ذلك من المشاريع.

وفي المرحلة الأولى يسلم الأمن والتخطيط إلى السلطة الفلسطينية وفق أسس تتعلق بفاعلية عمل السلطة والتعاون الذي تبديه.

الثالث: تكون المنطقة الفلسطينية منطقة متواصلة وتشق لها شبكة مواصلات من شمال الضفة حتى جنوبها بهدف تخفيف الاحتكاك بين الجيش الإسرائيلي والمستوطنين من جهة وبين الفلسطينيين، وتزال الحواجز أمام تطور الاقتصاد الفلسطيني.

الرابع: يستكمل بناء الجدار وتوضح خطوط الفصل والمصالح الإقليمية لإسرائيل وتخصص ما نسبته ٢٠٪ من أراضي يهودا والسامرة كمناطق أمنية خاصة تخضع للسيطرة الإسرائيلية الكاملة وتضم غور الأردن حتى شارع ألون ومفترقات طرق حيوية ومواقع استراتيجية.

تبني سياسات بناء مختلفة في يهودا والسامرة - استمرار البناء في كتل المستوطنات التي يوجد حولها اتفاق عام بين اليهود، ويجمد البناء بالمستوطنات المنعزلة الواقعة في عمق المناطق الفلسطينية، ويلغى الدعم الحكومي وتوسيع البناء بالمستوطنات المنعزلة، التي سيتم إخلاؤها في حال التوصل لتسوية شاملة فقط.

تعزيز حكم السلطة الفلسطينية وبناها التحتية والاقتصادية - تنفذ أعمال خاصة تكون تدريجية من أموال المساعدات الدولية لتحسين وتوسيع صلاحيات السلطة وتخصص مناطق من C لتطوير البنى التحتية والاقتصادية وفق منطق أنها مخصصة لدولة مستقلة.

تعزيز شرعية إسرائيل الدولية والإقليمية - بواسطة إبداء حسن نوايا عملية تدفع باتجاه واقع «دولتين لشعبين» وإقامة تعاون إقليمي يتضمن الأمن والاقتصاد والبنى التحتية.

بالنسبة لقطاع غزة، لا يعتبر حل مشاكله شرطا للتقدم في المسار المذكور، لكن من الأهمية بمكان تجنيد كل الدعم الدولي لتحسين الوضع الإنساني في القطاع وإعادة بناء البنى التحتية فيه، مقابل إيجاد آلية دولية لإيقاف حماس وغيرها من الجماعات المسلحة عن بناء قدراتها العسكرية، وخلق أجواء مناسبة لعودة السلطة الفلسطينية إلى الحكم في قطاع غزة.

وتشير التقديرات أن الإدارة الأميركية التي يترأسها دونالد ترامب، لن تعارض الخطوات الإسرائيلية، لأنها تتماشى مع صفقة القرن.

وأضافة لذلك، الإقليم يتغير ولم يعد يرى بإسرائيل عدواً خاصة من قبل دول مثل العربية السعودية والإمارات اللتين تلتقيان مع إسرائيل في محاربة إيران وتنظيمات السلفية الجهادية، إضافة للعلاقات المتطورة مع مصر والأردن في المجال الأمني.

وفي حالة التقدم في الشق الفلسطيني، فإن ذلك سيفتح أمام إسرائيل كل العلاقات العربية ويحرر دول الخليج من القيودة التي تفرضها القضية الفلسطينية على هذه الدول.

توصيات التقرير

تواجه إسرائيل مجموعة من التحديات المحلية والإقليمية تحدث عنها التقرير، وقدم بخصوصها التوصيات التالية:

التهديد الإيراني: التوصل لتفاهمات واضحة مع الولايات المتحدة، تتضمن بذل جهود استخبارية وإنذار مبكر مشترك، وتحديد الخط الأحمر في حال ألغت إيران العمل بالاتفاق النووي، أو حاولت تصنيع قنبلة نووية. وعلى الطرفين وضع خطط سياسية وعسكرية مشتركة لمنع إيران إذا قررت تجاوز ذلك الخط. وعلى ضوء إنسحاب الرئيس الأميركي دونالد ترامب من الاتفاق النووي وإمكانية تجديد إيران لنشاطاتها النووية، على ميزانية الدفاع الإسرائيلية وخطط الاستنفار العسكري وبناء القوة في إسرائيل أن تسمح بخطوة مضادة ضد إيران النووية. كذلك، هناك حاجة إلى التوصل لتفاهمات مع الولايات المتحدة، يتم من خلالها صياغة جديدة للاتفاق النووي والحلول الوسط التي يمكن التوصل إليها كي لا تمس المصالح الإسرائيلية.

مواجهة إيران في سوريا: نجحت إسرائيل حتى اليوم في معركتها لمنع تعزيز الوجود الإيراني في سوريا، بواسطة تفوقها الاستخباري وقدراتها الهجومية المتنوعة والدقيقة. ويفضل أن تبقى المعركة في الأراضي السورية، لكن على إسرائيل الاستعداد لامكانية أن تتوسع المعركة إلى لبنان أو حتى إيران، لذلك يجب بذل كل الجهود لعدم الدخول في معركة مع الجيش السوري في سوريا. ويشار أن عملية إعادة بناء الجيش السوري بدأت، وسوف يعمل على حماية النظام بقوة أكثر من الماضي ضد الهجمات الإسرائيلية الجوية، ما يتطلب دراسة نقدية للنموذج القائم والاستعداد لإمكانية استمرار إسرائيل بشن هجماتها الجوية، لكن بصورة أقل من الأعوام الماضية، ووفق مخططات واستعدادات أكثر، وكذلك دراسة إمكانية عمليات أخرى.

أمام حزب الله: يجب على إسرائيل الاستمرار في قصف قوافل الأسلحة النوعية المتجهة للبنان من أجل منعها من الوصول إلى حزب الله، طالما تسمح لها البيئة الاستراتيجية الحالية بذلك. إضافة لذلك، يجب الاستعداد لشن هجوم على الصواريخ الدقيقة في لبنان والبنية التحتية التكنولوجية لانتاجها. والقرار حول ذلك، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار أن مثل هذا الهجوم سيتسبب بمواجهة واسعة ومتواصلة تتضمن هجمات والتصدي لهجمات برية وجوية وصاروخية. وعليه، يجب العمل وفق معيار تطور التهديد. وفي نفس الوقت، بجب إعداد الجبهة المدنية الإسرائيلية لحرب في الشمال. وعلى إسرائيل أن توضح أن لبنان وحزب الله هما طرف واحد بالنسبة لها، وستشن هجماتها وفق ذلك، إذا هوجمت. وبخصوص الحرب مع حزب الله وما بعدها، يجب أن تنسق مراحلها المختلفة مع الولايات المتحدة ومع شركائها الاقليميين والدوليين.

النزاع الإسرائيلي-الفسطيني - كان وسيظل المشكلة الأساسية لإسرائيل بعلاقاتها مع جيرانها في المنطقة ومع المجتمع الدولي، وصفقة القرن التي يحاول الرئيس الأميركي دونالد ترامب طرحها تواجه صعوبات. وقطع العلاقات بين الإدارة الأميركية والفلسطينيين يضمن لإسرائيل انتصارها في «لعبة المتهم بإفشال المفاوضات» حتى قبل أن يعلن عن هذه الصفقة.

ومع ذلك، تتطلع الولايات المتحدة والدول العربية السنية المعتدلة إلى خطوات عملية تجدد الثقة بنوايا إسرائيل الجيدة. لكن، الخطوة المراد اتباعها هي مصلحة إسرائيلية من الدرجة الأولى، تسمح لها بترسيم حدودها، وتوضح هويتها كدولة يهودية ديمقراطية وآمنة وأخلاقية.

وستقع إسرائيل بخطأ تاريخي إذا اكتفت بالأمر الواقع، الذي يعني تدهوراً خطيراً نحو واقع الدولة الواحدة. وحسب رؤية دولة إسرائيل نفسها، فقد فتحت في وجهها فرصة استراتيجية نادرة من أجل القيام بخطوات مستقلة ومتناسقة في الساحة الفلسطينية يجب استغلالها.

وفي السياق المذكور قدم ،معهد أبحاث الأمن القومي، مشروعاً يشمل خطوات إسرائيلية أحادية الجانب في المجالين الأمني والسياسي، تتضمن العمل على وقف الزحف نحو الدولة الواحدة، والعمل على خلق واقع يؤدي لكيانين لشعبين، من دون أخذ موافقة الفلسطينيين على ذلك، خاصة فيما يتعلق بإعادة تعريف المسؤولية في مناطق A و B، وتحدد الأراضي التي سيستخدمها الفلسطينيون في مناطق C ، إلى جانب عدم المس بكتل المستوطنات والمحافظة على حرية العمل الأمني الإسرائيلي في كل المناطق. بهذه الطريقة يحسن أمن إسرائيل ومكانتها الاستراتيجية على المدى البعيد ويحافظ على استقرارها.

غزة تحت حكم حماس ليست شريكاً سياسياً – تشهد كل جولة مفاوضات سياسية مع حماس

(التنظيم الإرهابي الذي لا يعترف بإسرائيل) إضعافا للمعسكر المعتدل في الساحة الفلسطينية (السلطة في رام الله) وتشجع القوى التي تعتقد أن إسرائيل لا تؤمن سوى بالقوة. ومع ذلك، لا يبدو أن حماس تملك خيارات عسكرية مهمة، نتيجة تطوير إسرائيل قدرات لمواجهة القذائف والانفاق العابرة للحدود. علاوة على ذلك، لم تنجح الحركة بتزويد السكان باحتياجاتهم، ما تسبب باستعداد حماس للتوصل إلى تسوية بشروط توافق عليها إسرائيل.

في الماضي بدا، وكأنه لا يوجد إمكانية للتوصل لاتفاق بين إسرائيل وحماس –لا مفاوضات للتوصل لتسويات بسبب قضية الجنود المختفين والمدنيين الواقعين في أسر حماس- لرفض حماس الموافقة على مبدأ «إعادة بناء مقابل إخلاء القطاع من السلاح». لكن يبدو أن الأزمة التي تمر بها حماس حاليا ستدفعها باتجاه الموافقة على «هدنة صغيرة» في إطار تسوية. ويجب دراسة هذه الإمكانية مع ضمان أن تتضمن هذه التسوية المطالب الإسرائيلية الدنيا مثل عدم تواصل تعاظم قوة حماس العسكرية.

المعركة العسكرية مع حماس - يجب التأكيد على أن الخطط العسكرية المتوقعة لقطاع غزة لا تتضمن احتلالها، مع التأكيد على وصول القوات الإسرائيلية إلى مراكز ثقل حماس وضربها بشدة مع المحافظة عليها «كعنوان سياسي للقطاع»، وهو ما لم تتعرض له في جولات القتال الماضية. والأهم من كل ذلك، عدم تدفيع السكان ثمن المواجهة القادمة.

مواجهة روسيا والصين – السبيل الأفضل لإسرائيل هو المحافظة على علاقات واسعة، خاصة تجارية مع الدولتين، وإجراء حوار مفتوح معهما. وعلينا ألّا ننسى ولو للحظة أن حليفتنا الوحيدة في المنطقة هي الولايات المتحدة التي نقيم معها علاقات خاصة، ونتقاسم معها قيماً ومصالح لا يوجد لها بديل. بالإضافة لذلك، لا روسيا ولا الصين معنيتان أو تستطيعان منح إسرائيل الدعم الأمني والديبلوماسي الذي توفره الولايات المتحدة لها. لكن المهم في العلاقات مع الصين تعزيز إدارة المخاطر في سياسة الاستثمار الصيني بالبنى الحيوية لإسرائيل، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن الولايات المتحدة تتحسس كثيرا من نقل التكنولوجيا للصين.

وأمام روسيا مطلوب إعادة التوضيح لها أن اسرائيل لا توافق على تزويد سوريا بالوسائل القتالية المتقدمة وكذلك حزب الله ومحاولة تقليل الدعم الروسي لإيران، مع الأخذ بعين الاعتبار هنا الحساسية الأميركية اتجاه روسيا، التي تتعامل بعداء مع أوروبا بشكل عام، ومع أوكرانيا بشكل خاص.

الحرب على عدم شرعية إسرائيل تتطلب التصرف بطريقة مختلفة – علاوة على ضرورة اتباع

سياسة أخرى في الموضوع الفلسطيني، التي ستساعد بشكل كبير في تقليل الانتقادات الموجهة لإسرائيل، على إسرائيل تخفيف عداوتها مع الجهات العاملة على عدم شرعيتها. والمطلوب هو توازن من قبل الجهات السرية والعلنية ومن قبل الجهات المدنية العاملة في التصدي لظاهرة العاملين على حرمان إسرائيل من شرعيتها. والموضوع مهم، وأهم من أن يكون اداة في السياسة الإسرائيلية الداخلية.

وفي هذا المجال، سبق وأن قدم مركز أبحاث الأمن القومي أبحاثاً ودراسات وتوصيات، من أهمها التأكيد على الرد المشترك من قبل دولة إسرائيل ويهود العالم، ومشاركة الجهات الرسمية وغير الرسمية، وبناء بنية معلومات تحتية وشن حرب شاملة بما في ذلك حرب سرية بدمج كل الجهود من مختلف الجهات.

يهود الولايات المتحدة هم عنصر مركزي في المساهمة بأمن إسرائيل - هناك حاجة لبذل الجهود والتقدم بمبادرة لتعزيز العلاقات مع الفئات المختلفة من الجماعات اليهودية، خاصة على الشباب منهم وعلى التيار الإصلاحي منهم. مطلوب اليوم من إسرائيل، إجراء حوار مع الفئات المختلفة في المجتمع الأميركي، الذين يخوضون مواجهة مع إدارة ترامب ولا يوجد لهم تاريخ في معاداة إسرائيل أو يهود الولايات المتحدة، إلى جانب تجديد التعاون والحوار مع الحزب الديمقراطي.

ويمكن القيام بذلك، من دون المس بالعلاقات الطيبة مع الإدارة الأميركية الحالية التي يقودها الرئيس دونالد ترامب وجمهور مؤيديه في أوساط الحزب الجمهوري والانجلوساكسون.

زيادة جاهزية الجيش الإسرائيلي وميزانية وزارة الدفاع - في أعقاب الوضع المتفجر في كل الجبهات، ووجود ضعف معين في الردع الإسرائيلي، على وزير الدفاع «الجديد» ورئيس هيئة الأركان إعادة دراسة نظريات العمل التي وضعت في الخطة الاستراتيجية لعمل الجيش الإسرائيلي «غدعون» وتعزيز جاهزية الجيش لمواجهات في جميع الجبهات. وفي السياق المذكور، يجب زيادة التدريبات وبلورة استراتيجية وخطط عمل ملائمة، تأخذ بالاعتبار آخر التطورات وطرق العمل التي طورتها إيران وحزب الله وحماس.

وفي النهاية، تقترب إسرائيل من عام انتخابات، وهذا الوقت له تأثير كبير وخيارات متعددة في المجال الأمني، وأحيانا تؤدي لعدم التصرف بوعي في الحكومة والكنيست، نتيجة تسلم عناصر جديدة دفة الحكم. ويتطلب ذلك تعزيز الدراسة وتعزيز الثقة وترتيب التعاون بين العناصر الجديدة والأقل تجربة والمؤسسات القائمة.

في مواضيع الأمن هناك أهمية خاصة لثقة الجمهور في عملية اتخاذ القرارات. العصر الحالي يتميز

بتراجع الثقة في مؤسسات الدول، لكن الجمهور في إسرائيل ما زال يثق بالجيش والمؤسسات الأمنية كثيرا، وهذه الثقة ليست مضمونة. الواقع السياسي المنتظر في العام القادم سيرافقه تحديات بالثقة بالمستوى السياسي، وسيثقل ذلك على المستوى العسكري خاصة على رئيس هيئة الأركان الذي يتحمل مسؤوليات كبيرة، خاصة في مجال تقديم تحليل فعال للمستوى السياسي وللجمهور. الاستقطاب السياسي الحالي في إسرائيل والوضع القضائي لرئيس الحكومة (الذي يتولى منصب وزير الدفاع) من شأنها تعزيز النقاش العام والتشكيك بالقرارات الأمنية والسياسية التي سيتخذها. على هذه الخلفية من الممكن المس بشرعية المستوى العسكري في كل ما يتعلق باتخاذ القرارات.

خلاصة

كما التقارير السابقة، أشار التقرير الحالي أن المشاريع السياسية المطروحة اليوم، خاصة ما يسمى بـ «صفقة القرن» التي ستقدمها الإدارة الأميركية للطرفين –الفلسطيني والإسرائيلي- مصيرها الفشل، لأنها لا تلبي مطالب الحد الأدنى للفلسطينيين.

وأكد التقرير كما التقارير السابقة أيضا، أن خيار الأمر الواقع واستمراره على حاله سيؤدي إلى قيام دولة واحدة بنظامين ،أي دولة عنصرية بكل معنى الكلمة، لأن اليهود في دولة إسرائيل يرفضون إعطاء حقوق متساوية لغيرهم، والتشريعات التي سنت منذ تأسيس هذه الدولة حتى اليوم والرأي العام تؤكدان ذلك.

وأشار التقرير ،أيضا كما التقارير السابقة، أن الخيارات السياسية تضيق في وجه إسرائيل، وعليها اتباع خطوات تؤدي لانفصال عن الفلسطينيين، وليس انفصالا عن أراضيهم، الذي يبدو أنه سيصبح عنوان المرحلة المقبلة في السياسة الإسرائيلية، التي عبر رئيس وزرائها بنيامين نتنياهو في أكثر من مناسبة أن عام ٢٠١٩ سيشهد انطلاق مرحلة جديدة من المفاوضات مع الفلسطينيين، تتضمن بعض الصلاحيات المدنية وربما الأمنية، وربما إعادة انتشار جديد للجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية، التي رفضت إسرائيل تنفيذها منذ عقدين تقريبا.

الخطوات الإسرائيلية القادمة لن تهدف إلى إرضاء الفلسطينيين، أو حتى إبداء حسن نوايا اتجاههم، بل ستكون تعبيرا عن مصالح إسرائيلية استراتيجية حيوية تخلد سيطرتها على الأرض الفلسطينية، وتظهر لحلفائها الجدد أنها قدمت التنازلات المذكورة لمنع خدش حياء من يقف على رأس الأنظمة لمواجهة ما يسمى بالخطر الإيراني.

واعترف التقرير أن التهديد الفلسطيني ،على ضعفه، هو التهديد الأخطر والأكبر على المشروع

الصهيوني ودولة إسرائيل، وليست إيران، وقد أثبتت كل الوثائق المفرج عنها والتصريحات والمؤتمرات، منذ نكسة حزيران حتى هذا اليوم، أن هذا الخطر ومواجهته هي أكثر المواضيع التي تشغل النخب الإسرائيلية الحاكمة.

في المقابل، لا تدرك النخب الفلسطينية الحاكمة قوة موقفها المرتكز بالأساس على الوجود الفلسطيني المنتشر في كل فلسطين التاريخية، حيث تخوض صراعات وخلافات داخلية عميقة، تلهيهم عن تبني مشروع فلسطيني شامل، لا يكون ندا وخصما للمشروع الصهيوني ودولة إسرائيل فقط، بل يعيد الاصطفاف العربي والإسلامي حوله، الذي تحاول دول خليجية وعربية وإسلامية تبديده لصالح الوجود غير الشرعي لدولة إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط.

وفيما يتعلق بامكانية اندلاع الحرب القادمة، من الواضح أن إسرائيل حددت وجهتها مسبقا، وهي استمرار شن الهجمات على الأراضي السورية، التي لن تتوقف إلا إذا اتخذت القيادة السورية قرارا بالتصدي لهذه الهجمات، والرد عليها في العمق الإسرائيلي كما هو الحال مع حزب الله في لبنان.

النكبة الثقافية الفلسطينية: الجذور والنتائج

عزيز العصا *

مقدمة

الثقافة اصطلاحاً: هي المعرفة التي تؤخذ عن طريق الأخبار والتلقي والاستنباط، كالتاريخ، واللغة، والفقه والأدب، والتفسير، والفلسفة١. وهي إدراك الشيء، والحصول عليه والظفر به بعد البحث والتفتيش عنه٢.

وفق هذا التعريف، فإن الشعب الفلسطيني بنى حضارة متميزة على أرض الآباء والأجداد، تراكمت بشكل متواصل، عبر مئات السنين، شكلت موروثاً فكرياً، وثقافياً، وعمرانياً وحضارياً يؤكد على هوية الأرض وانتمائها إلى إنسانها. فكانت يافا واحدة من حاضرات الشرق الثلاث؛ إلى جانب القاهرة وبيروت. كما كانت فلسطين، عشية النكبة، تضم عشرات النوادي الرياضية والثقافية، كما شوارعها تزخر بعشرات الصحف والمجلات، إلى جانب إذاعة.

سوف نتطرق في هذا المقال إلى عدد من الشواهد والظواهر التي تبرز أهم أبعاد ومرتكزات «النكبة الفلسطينية»؛ وهو البعد الثقافي الذي تمثّل بهدم الحواضر الثقافية، وإتلاف معظم الموروث الثقافي الفلسطيني؛ من معالم حضارية، ووثائق مكتوبة، ومكتبات، وأية شواهد مادية أخرى. دون أن نغفل أن الشعب الفلسطيني في كل أماكن شتاته ووجوده، وبما يمتلك من «نزعة» المحافظة على وجوده وهويته، أصرّ على عدم التنازل و/أو التفريط بمكتسباته التي حققها عبر التاريخ، فكابد وجاهد من أجل استعادة ما أمكنه استعادته من ثقافته تلك حتى حافظ على كينونته الوطنية التي شكلت شوكة حادّة مؤلمة في خاصرة الدولة العبرية التي وعدها منشئوها من الغرب الاستعماري بأن الشعب الفلسطيني سوف ينتهي مرة وإلى الأبد ولن تقوم له قائمة!

* كاتب وباحث - فلسطين

المشهد الثقافي الفلسطيني قبل النكبة

دخل الشعب الفلسطيني القرن العشرين –قرن الاحتلال البريطاني والنكبة والنكسة والحروب العالمية والإقليمية- وهو يمتلك مشهدًا ثقافيًا كبقية شعوب الأرض، وفق ما تيسّر له من قبل الدولة العثمانية الحاكمة. فمنذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر –احتلال إبراهيم باشا لفلسطين- وحتى زوال الحكم العثماني على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى شهدت فلسطين نموًا متصاعدًا في مكونات هذا المشهد، واستمرّ هذا التصاعد إبّان الاحتلال البريطاني وصولًا إلى النكبة في العام ١٩٤٨م.

وعندما رصد عبد الرحمن ياغي ما أطلق عليه «العوامل المباشرة للنهضة» منذ العام ١٨٣٠م، وجد أنها تتركّز في عدد من المجالات التي استجدت وتم تطويرها بإبداعات فلسطينيّة، وهي: التعليم، والطباعة، والصحافة، والآثار، والأندية والجمعيات الأدبية، والإذاعة، والمسرح، والترجمة(٣). هذه هي مكونات أساسية للمشهد الثقافي، يضاف إليها العديد من المكونات الأخرى، مثل: المعالم العمرانية، والمكتبات، والأرشيفات، والمتاحف، والأسواق، والتراث الشعبي، والحكايات الشعبية، والعادات والتقاليد، والسينما، والفنون والموسيقى، والتأليف والنشر.

هكذا، وجد الأعداء القادمون من خلف البحار أنفسهم أمام شعبٍ يتمتع بمستوى متقدم من الوعي؛ فمنذ القرن التاسع عشر نعم الفلسطينيون بصحافة مكتوبة، حتى أن الأميين منهم طوروا أنماط «قراءة» من خلال الاستماع إلى من يقرأ مضامين الجرائد في جلسات عامة على طريقة الحكواتي(٤). وقد شكّل هذا في مجمله «يقظة ثقافية» للشعب الفلسطيني بمختلف شرائحه الاجتماعية. وكان المجتمع المقدسي من المجتمعات العربية المزدهرة في الشرق الأوسط(٥).

ولكي يتم إنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين، ووفق النظريات الصهيونية، لا بد من محو المشهد الثقافي الفلسطيني أو عبرنته بالكامل؛ من أجل تكوين هوية للدولة الوليدة. فكانت النكبة الثقافية الفلسطينية التي هي قيد النقاش في هذه الورقة.

النكبة الفلسطينية: الأسباب والنتائج

النكبة هي مصطلح فلسطيني يبحث في المأساة الإنسانية المتعلقة بتشريد عدد كبير من الشعب الفلسطيني خارج دياره. وهو الاسم الذي يطلقه الفلسطينيون على تهجيرهم وهدم معظم معالم مجتمعهم السياسية والاقتصادية والحضارية عام ١٩٤٨؛ وهي السنة التي طرد فيها الشعب الفلسطيني من بيته وأرضه وخسر وطنه لصالح، إقامة الدولة اليهودية-إسرائيل(٦).

ولا بد من الإشارة إلى أن مصطلح «النكبة» ليس وليد أحداث العام ١٩٤٨(٧)؛ وإنما كان قد أطلقه الشاعر المصري أحمد محرم(٨) في ١٩٣٣/١١/١٣، عنواناً لقصيدة طويلة أسماها «نكبة فلسطين»، وهي تبكي وجع فلسطين، وتستحثّ همم العرب على نصرتها، منها(٩):

يا فلسطين اصطليها نكبة هاجها للقوم عهد مضطرم

فكأَنَّا منهما في مُلتَقى نكبةٍ تَطغَى، وأُخرى تَسْتَجِمْ

أي أن فلسطين «منكوبة» وكان جرحها ينزف منذ زمن طويل قبل العام ١٩٤٨، الأمر الذي يعني أن ما جرى في ذلك العام ما هو إلا «احتضار» الجريح؛ بعد أن أنهكه النزف الدائم والمستمر. وعليه؛ فإن ما قام به قسطنطين زريق في العام ١٩٤٩ من تسمية «النكبة» في كتابه الشهير «معنى النكبة» تأتي في إطار التوثيق السياسي لمعنى النكبة.

هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى النكبة، والتي تعود، في غالبيتها، إلى جانب الجهل والفقر الموروثان منذ أواخر العهد العثماني الى اختلال موازين القوى بفعل الاستعمار البريطاني المنحاز كلياً للحركة الصهيونية. وعندما حكمت بريطانيا-المُسْتَعْمِرَة فلسطين خلال الفترة (١٩١٧م-١٩٤٨م) استغلت هذيْن الموروثيْن ووظفتهما في الإعداد للدولة اليهودية التي حضرت لإنشائها على أرض فلسطين؛ بالمزيد من الإفقار والتجويع والترويع، للحد الذي جعل الناس يتأسون على أيام العثمانيين. ففي كلمته أمام اللجنة الملكية البريطانية التي حضرت في العام ١٩٣٧ للتحقيق في أسباب إضراب-١٩٣٦، قال د. حسين فخري الخالدي/ رئيس بلدية القدس في حينه: «كنا أنعم حالاً على زمن الحكم العثماني وأكثر طمأنينة مما نحن عليه الآن»(١٠).

لذلك، كانت ذروة النكبة خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٤٩ من القرن الماضي، التي أودت بالشعب الفلسطيني مشتتًا في أصقاع المعمورة، وما نجم عنها من مآسٍ هددت هويته الوطنية؛ نتيجة النمو السريع والصادم للكيان الذي أقيم على أرضها، بعد أن تمكن من طرد أصحاب الأرض الأصليين، والعمل على محو أثرهم وآثارهم، الممتدة لآلاف السنين، باستخدام القوة المفرطة.

يرى «أوري ديفيس» أن النكبة، في الفترة ١٩٤٨-١٩٤٩ أسفرت عن جريمة ضد الإنسانية، من أبرز ملامحها(١١):

جريمة التطهير العرقي الواسع للشعب الفلسطيني.

جريمة الترحيل الجماعي، التي نجم عنها تهجير غالبية من العرب الفلسطينيين الأصليين، يقدّرهم

بثلاثة أرباع مليون فرد، ممن كانوا يقيمون على الأراضي التي وقعت تحت السيطرة الإسرائيلية. وبقي نحو (١٥٠,٠٠٠) فقط داخل حدود الدولة الناشئة (هناك من يقول بأن عددهم نحو ١٧٠,٠٠٠)١٢ تم التهجير الداخلي لهم عن مساكنهم وأراضيهم أيضًا؛ ليصبحوا «حاضرين غائبين».

تجريد المُهجَّرين من ممتلكات عقارية؛ ريفية ومدينية شاسعة، ومن الممتلكات المالية. ويقدر أن العرب الفلسطينيين كانوا يمتلكون نحو (٩٠٪) من الأراضي، التي تتوزع عليها مئات القرى والمدن (تعتبر مدناً إقليمية)، تم محو ٥٠٠ ناحية عربية؛ ريفية ومدينية وتسويتها بالأرض، ليتم إنشاء «دولة إسرائيل».

وضع تلك الثروة الضخمة، المنهوبة بالقوة، لصالح الاستيطان الكولونيالي اليهودي (لليهود فقط). والتي قدرتها الأمم المتحدة، بنحو (١٢٠) مليون جنيه فلسطيني (يساوي الجنيه الاسترليني في حينه؛ والجنيه يقابل حوالى ثلاثة دولارات). وقدرت جامعة الدول العربية ذلك بعشرة أضعاف تقدير الأمم المتحدة.

إلى جانب العمليات العسكرية الموجهة لمحو الشعب الفلسطيني جسدًا وفكرًا ووجودًا، كانت تجري على قدم وساق عمليات المصادرة والنهب، لكل ما أنتجه هذا الشعب من تراكم حضاري؛ كالكتب والتحف الأثرية والسيطرة التامة والكاملة على مساكن الفلسطينيين وبيوتهم وما تحتويه من ممتلكات باعتبارها ممتلكات خاصة بالقادمين الجدد دون الاعتراف بأي حق لأصحابها الأصليين.

النكبة الثقافية الفلسطينية

هذه النكبة متعددة الأبعاد والصور والأشكال. ومن بين تلك الأبعاد، البعد الثقافي للنكبة، الذي هو «أيضًا» متعدد الأنواع والأشكال، إذ يشمل هدم وتمزيق وتشتيت الأثر الحضاري والعمراني والتاريخي والصور الثقافية بأشكالها كافة: المادية وغير المادية. ذلك الأمر هو «النكبة الثقافية»، التي لا تقل وجعًا وألمًا عن أوجاع وآلام الأبعاد الأخرى للنكبة كفقدان الأرض والمسكن ومصدر الرزق والأحبة والخلان والتشرد والتشتت.

منذ أواخر القرن التاسع عشر والصهيونيون يتعاملون مع فلسطين كأرض خالية من البشر، وأن الفلسطينيين الذين يعيشون عليها مجرد «كائنات غير مرئية»، وقناعتهم أنه «لا الصخور ولا الفلسطينيون يمكن أن يشكلوا عائقًا في الطريق إلى الوطن القومي الذي كانوا يتجهون لإنشائه(١٣). وفي إطار سعيهم المبكر إلى تنفيذ «المحو» الثقافي للشعب الفلسطيني، قاموا في العام (١٩٠٩) بإنشاء مدينة تل أبيب بجوار مدينة يافا(١٤).

لذلك؛ ومن منطلق استراتيجية المحو والإنشاء، شهدت النكبة وما بعدها هدماً مبرمجاً، لكل المعالم والشواهد المكوّنة للمشهد الثقافي، والتي تشير إلى فلسطينية المكان والزمان.

وعندما سيطروا على الأرض وحققوا ما وصفه «ديفيس» أعلاه أطلقوا أيديهم في المشهد الثقافي؛ عبثًا وتخريبًا ونهبًا وسرقة. ويورد الباحث الإسرائيلي غيش عميت عددًا من المشاهد التي نكبت المشهد الثقافي، منها(١٥):

أولًا: بتر اليقظة الثقافية الفلسطينية التي تتجلى في الكتب من خلال فقدان مجموعات كتب خاصّة وعامّة، وضياع القصص مع ذهاب الناس الذين حملوها في ذاكرتهم. فقد كانت عمليات النهب والسرقة والسطو، أثناء الحرب وبعدها، واسعة الانتشار بشكل ملحوظ(١٦).

وفي خضم تلك الأحداث، جرى رسم خط فاصل؛ بتجريم النهب الخاص، و»شرعنة!» النهب الذي ينتهي إلى المخازن العامة، واعتباره شرعياً وأخلاقياً(١٧)! وهناك عمليات «مصادرة» جرت وفق شكليْن متكامليْن: استخدام قوة الذراع من جهة، والاستناد إلى القوانين من جهة أخرى(١٨). فتمت عمليات المصادرة والنهب، الكتب والتحف الأثرية أيضًا، وكل أصناف الهواة أو رجال الأعمال استولوا على الأثريات، والمكتبة الوطنية استولت على الكتب، وتم نهب متحف قيسارية، والجيش استولى على المواد الغذائية... وهكذا(١٩).

وأما نتيجة ذلك فكانت، وفق تقديرات عميت:

تم نهب وسرقة (٣٠,٠٠٠) كتاب وصحيفة ومخطوطة من سكان القدس الغربيّة غالبيتها بالعربية، من مختلف المواضيع الفكرية والعلمية، وبعضها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية(٢٠).

نُهبت آلاف الكتب التي كانت تابعة لمؤسسات تربوية وكنائس. ففي ٢٦ تموز ١٩٤٨, كتب أحدهم بأنه قد جمع حتى اليوم نحو ١٢,٠٠٠ كتاب وتزيد. قسم كبير من مكتبات الأدباء والمثقفين العرب موجود الآن في مكان آمن. وهناك بضعة أكياس من المخطوطات التي لم تتضح قيمتها بعد, موجودة بحيازتنا أيضًا. وفي أواخر العام ١٩٤٨، وعندما اشترط الحاكم العسكري توفير سجلّات للكتب، تبين أن هناك كتب قد اختفت، كما أن ممثل الفاتيكان في القدس تشكّى من اختفاء (٣٦) مجلدًا للموسوعة الإيطالية من ممثلية الفاتيكان في جبل صهيون، بعد احتلالها(٢١).

جمع عمال الوصيّ على أملاك الغائبين، في عام ١٩٤٨ والأعوام التي تلته, نحو ٤٠,٠٠٠ كتاب من مدن يافا وحيفا وطبرية والناصرة وأماكن سكنيّة أخرى. كانت غالبيتها كتباً تدريسيّة جُمعت من مؤسّسات تربويّة، ومن مدارس عربيّة أثناء حرب ١٩٤٨, وحُفظت في مخازن أقيمت لهذا الغرض في حيفا ويافا والناصرة والقدس(٢٢).

ثانيًا: من صور النكبة الثقافية:

هناك مجموعة من المظاهر والصور التي تتجلى فيها النكبة الثقافية، ولعل أقلّها ما يقول به «عميت» من أن «الكتب الفلسطينية أضحت نصبًا تذكاريًا غريبًا تتضمن حفظًا وهدمًا، وخرابًا وإنقاذًا»(٢٣)، وورد في تقرير المكتبة الوطنية في آذار/ ١٩٤٩ وصف تلك الكتب بأنها «ممتلكات روحانية هائلة(٢٤).

من جانبٍ آخر قامت عمليات النهب تلك على مجموعة من الرؤى، منها(٢٥):

إبعاد الفلسطينيين عن حدود المجموع القومي، الذي جرى تعريفه بكونه يهوديًا حصريًا.

تعامل الصهيونية مع نفسها باعتبارها وكيلة ثقافية، من مهامّها الأخلاقية بث بشارة التنوير لضواحي أوروبا البائسة عند أطراف الشرق الأوسط. وهناك من ادّعى بأن المكتبة الوطنية أخرجت الكتب من حيازة العاجزين عن فكّ رموزها، ونقلتها إلى الذين يتقنون جني الفائدة منها، لصالح العلم والبشرية. ويرى «إدوارد سعيد» أن «جمع كتب الفلسطينيين» جعل الصهاينة يميلون إلى إنكار وجود الفلسطينيين كأصلانيين.

ومن مظاهر المحو الثقافي أيضًا، أن هناك من المصنّفين من شاهد إهداءات أصحاب الكتب وأسماءهم. وبعد أن تم تصنيف الكتب وفق أسماء مالكيها٢٦، إلا أنه في سنوات الستينات أزيلت عن الكتب العربية أسماء المالكين٢٧، لتستبدل بعبارة «الأملاك المهجورة Abandoned Property»، واختصارها بالحرفين (AP)، أما الكتب المطبوعة باللغات الأجنبية فاندمجت ضمن المكتبة من دون أي أثر، كما أن هناك نحو (٥٠٠) مخطوطة فلسطينية جُمعت في الحرب ولا تظهر في الفهرس المحوسب(٢٨).

لقد تم «بتر» العلاقة بين الكتاب وصاحبه، ويشير فهرس المكتبة الوطنية إلى أن هناك (٥,٧٨٧) كتابًا تحمل شارة (AP)٢٩. كما أنه عند استقرار وضع الدولة الفتية، وُضع منهاج خاص يهدف إلى جعل مواقف الفلسطينيين أكثر إيجابيًا من الدولة، وكانت كتب التدريس الفلسطينية تتكدس في مخازن وزارة المعارف(٣٠).

وعليه، لم تجرِ طوال تلك السنين، منذ الاستيلاء على تلك الممتلكات، أيّ محاولة لإعادة كتب الفلسطينيّين إلى أصحابها أو ورثتها الحقيقيّين. ولا تفوتنا الإشارة إلى أنه يتم التعامل مع تلك الكتب على أنها لم تكن بقايا من الماضي بل جزءا من نسيج الحياة الراهن(٣١). علمًا بأن المكتبة الوطنية لم تستوعب كل الكتب التي جُمعت أثناء الحرب؛ فهناك نحو (٤٠,٠٠٠) كتاب حُفظت في المخازن التي أقامتها وزارة المعارف، وفي أواخر الخمسينات مُزِّق وأبيد أكثر من نصفها(٣٢).

الثقافة الفلسطينية.. السمات والخصائص

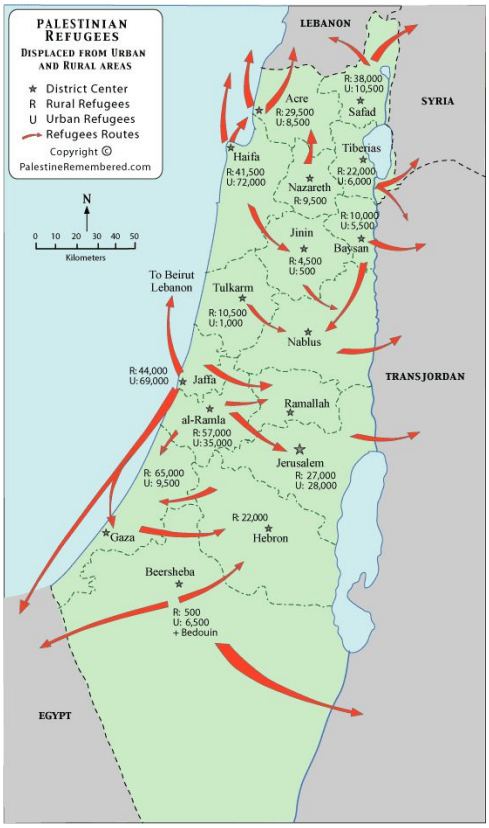

تشتت الشعب الفلسطيني في أصقاع المعمورة، وفي جميع الاتجاهات. وتبين الخريطة التالية الاتجاهات التي تشتت إليها الفلسطينيون والتوزيع الديمغرافي المهجَّر من الريف والمدينة.

لقد كانت النتيجة أن الشعب الفلسطيني أصبح عبارة عن ثلاثة أقسام رئيسية، هي: ١) من بقي في حدود الدولة العبرية في العام ١٩٤٨م. ٢) من بقي على أرض ما تبقى من فلسطين: في الضفة الغربية وقطاع غزة. ٣) الشتات الذي كان في معظمه في الدول العربية المجاورة لفلسطين: مصر، وسوريا، ولبنان، والأردن والعراق.

بهذا، نجد أن هوية الفلسطيني، بالمعنى المتعارف عليه بين البشر غير قائمة؛ فقد كانت موجودة و «سُرقت»، وعلى الفلسطيني أن يبحث عنها ويجدها. أي أن هوية الفلسطيني الحقيقية، تتمثّل، أولاً وأخيراً، في استعادة هويته المسروقة٣٣. وعلى هذه القاعدة فإن الثقافة الفلسطينية مرّت منذ النكبة في العام ١٩٤٨، بما يوصف بأنه في آنٍ معاً٣٤:

تجربة مأساوية ومعقدة معاً، هي سيرورة مفتوحة على آفاقٍ متعددة، تستحضر الأمل ولا تتعامل مع التفاؤل.

إيمانية ومتحولة: إيمانية في موقفها الثابت المدافع عن الحق الفلسطيني، ومتحولة في تجديد الأسئلة وتنقيحها وتعميقها.

تنص روايتها على أن تاريخها موحد؛ ومن العبث قسمتها على تاريخ سبق «النكبة» وآخر تلاها.

كما أن سؤال الهوية الثقافية الفلسطينية يصطدم بثلاث إشكاليات تسبق السؤال وتعقبه في آن٣٥:

غياب الجماعة الآمنة المستقرة.

غياب الدولة التي تمركز الإنتاج الثقافي والمعرفي.

الوضع الإنساني المأساوي، الممتدة جذوره إلى ١٩٤٨ ، في مرحلة أولى، وحرب ١٩٦٧ في مرحلة ثانية، والحروب التي شنت على الفلسطينيين في لبنان في مرحلة ثالثة، وعثار الفلسطينيين في العراق في مرحلة رابعة، ومأساة الفلسطينيين في سوريا في مرحلة خامسة.

ومحصلة هذا كله، أن الفلسطينيين يحملون «ثقافتهم» و»يعضون عليها بالنواجذ: وهم في وضع «لا إنساني»، سماته: الاغتراب، الانقسام، التشتّت، اللاتجانس كسؤالنا: ما العلاقة الثقافية بين فلسطيني يعيش في المملكة العربية السعودية وآخر يعيش في فنزويلا؟ واللامساواة. حيث إن وضع الفلسطيني، حقوقياً، في السويد على سبيل المثال، يختلف عن وضع نظيره في لبنان، البلد العربي الذي يمنع اللاجئ الفلسطيني عن ممارسة المهن جميعها، تقريباً، باستثناء ما لا يقبل اللبناني القيام به... إلخ.

الفلسطينيون أصحاب ثقافة حية لن تندثر

رغم الشتات الثقافي الموصوف أعلاه، وبعد أن تخلص الفلسطينيون من أثر الصدمة، شرعت كل فئة منهم ببلورة وتطوير مشهد ثقافي متصل بالوطن الأصلي والتراث والحضارة، حتى تشكّل المشهد الثقافي الفلسطيني المتّسم بمركزيّة الفعل والإنتاج والتنظيم والنقد، مثل:

أولًا: سيطرت منظمة التحرير الفلسطينية، ومن خلال المؤسسات البحثية والفنّية والإعلاميّة الّتي أنشأتها، على المشهد الثقافي في الشتات، وحددت على نحو كبير البنى والمعاني والأسماء المصنّفة ضمن «الثقافة الفلسطينيّة الوطنيّة» أو «الثقافة الثوريّة»(٣٦).

ثانيًا: نشطت حركة الثقافة الوطنية الفلسطينية في أراضي ٤٨، وسرعان ما غدت الوعاء الحافظ للهوية الوطنية، في وجهتين محدّدتين: ١) في وجهة التمرد على النسيان. ٢) في وجهة شحن الذاكرة الجماعيّة لفلسطينيّي أراضي ٤٨ بحقول خصبة من الدلالات التاريخية والثقافية المرتبطة بالنكبة وآثارها، والمرتبطة أيضًا، بالهوية الوطنيّة للفلسطينيّين(٣٧).

أولًا: نشطت حركة الثقافة الوطنية الفلسطينية في أراضي ٤٨، وسرعان ما غدت الوعاء الحافظ للهوية الوطنية، في وجهتين محدّدتين: ١) في وجهة التمرد على النسيان. ٢) في وجهة شحن الذاكرة

الجماعيّة لفلسطينيّي أراضي ٤٨ بحقول خصبة من الدلالات التاريخية والثقافية المرتبطة بالنكبة وآثارها، والمرتبطة أيضًا، بالهوية الوطنيّة للفلسطينيّين(٣٨).

ثالثًا: ما بعد أوسلو وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية: إذ حملت منظمة التحرير الفلسطينية التي حضرت إلى أرض الوطن الإرث الثقافي الذي بنته في الشتات لتستمر به على أرض فلسطين كفعل ثقافي مؤسساتي رسمي في مناطق نفوذ السلطة، فتم تعزيز الأجسام التمثيلية في حقل الثقافة الفلسطينية، والتي يقع على عاتقها رعاية الثقافة والعمل على تنميتها في أوساط الشعب الفلسطيني، فبرز نوعان من الجهات: الرسمية وشبه الرسمية، وتشمل (حتى اللحظة) تسع مؤسسات يمكن ترتيبها كرونولوجياً (زمانياً) على النحو التالي٣٩:

دائرة الإعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية (١٩٦٥).

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين (١٩٧٢).

المجلس الأعلى للتربية والثقافة (١٩٧٧).

اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم (١٩٨٥).

وزارة الثقافة الفلسطينية (في رام الله)، وأسست مع تأسيس السلطة الفلسطينية (١٩٩٤). ووزارة الثقافة الفلسطينية (في غزة)، وانشقت بعد أحداث غزة وسيطرة (حماس) على السلطة هناك (٢٠٠٧).

بيت الشعر الفلسطيني في رام الله (١٩٩٨).

مؤسسة فلسطين للثقافة – بيروت (٢٠٠٥).

رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين- غزة (٢٠١٠).

اتحاد الكتاب العرب الفلسطينيين - حيفا (٢٠١٠).

الخاتمة

يتضح مما سبق أن الحركة الصهيونية جاءت إلى فلسطين، بدعم مطلق وبتخطيط محكم من أوروبا الاستعمارية، التي رأت في الكيان الإسرائيلي نافذتها بل ممرها الآمن للسيطرة على المنطقة، وهذا ما قامت به بريطانيا على مدى ثلاثين عامًا ونيّف من سيطرتها على فلسطين وإعدادها لذلك اليوم الذي أُعلن فيه عن إنشاء الدولة العبرية على أنقاض الشعب الفلسطيني الذي ظنوا أنهم بتشريده وتهجيره وقتله ومحو آثاره قد انتهى مرة واحدة وإلى الأبد، فكانت النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني،

بأبعادها المختلفة. وقد تناولنا في هذه الورقة واحدة من تلك الأبعاد وهو «النكبة الثقافية».

تطرقت الورقة بنظرة عامة إلى النكبة التي أصابت المشهد الثقافي الفلسطيني، وتوقفت بشئ من التفصيل عند نكبة الكتاب الفلسطيني، وفق الشهادة التي سجلها الباحث الإسرائيلي «غيش عميت»، والتي يتبيّن منها حجم الحقد والغيظ الذي أفرغته القوات الصهيونية المهاجمة على الإرث الثقافي والمعرفي الذي يربط الفلسطينيّين بأرضهم، كما بذلت الحركة الصهيونيّة جهودًا جبّارة من أجل «بتر» هذا الارتباط ونصّبت من نفسها وصيّة على فلسطين بأثر رجعي؛ من خلال نفي أي وجود ثقافي أو حضاري على هذه الأرض قبل إنشاء كيانها في العام ١٩٤٨م.

وانتهت الورقة بالإشارة إلى ما قام به الشعب الفلسطيني في الشتات وعلى أرض فلسطين، من إعادة بلورة كينونته، فنشأ الحراك الثقافي بين الفلسطينيين الذين بقوا في حدود الدولة العبرية، وتمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من بث «الثقافة الفلسطينيّة الوطنيّة الثوريّة». وفي ذلك كله وجدت الدولة العبرية نفسها في حالة من الصدمة أمام الشعب الذي اعتقدت باختفائه يظهر مرّة أخرى ويعيد تشكيل هويته الوطنية سواء في الشتات أو على أرضه التاريخيّة، لا سيما فلسطينيو-٤٨ الذين أصبحوا يشكلون الحافظة للهوية الوطنيّة الفلسطينية التي تشكل نقيضًا طبيعيًا صلبًا للدولة التي يعيشون في كنفها، وهم في حالة من التواصل الوجداني والمعنوي مع فئات الشعب الفلسطيني الأخرى في الضفة وقطاع غزة والشتات.

الهوامش:

١ الزين، سميح (١٩٧٩). الثقافة والثقافة الاسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. ٢. ص. ٣١.

٢ الظاهر، حسن، والطيب، أحمد، والبدوي حسن، والعسال، خليفة (١٩٩٣)، بحوث في الحضارة الاسلامية، دار الحكمة، الدوحة ط. ١. ص. ١٢.

٣ ياغي، عبد الرحمن (٢٠٠١). حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة. منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية. ط٢. ص: ٦٢-١١٨.

٤ كبها، مصطفى (٢٠٠٧). «الثقافة الفلسطينية قبل النكبة». مستل من «الثقافة، الهوية، الرؤيا: وقائع مؤتمر الثقافة الفلسطينية في الداخل- ستون عاماً على النكبة: التحدي والانتماء.. الواقع والرؤيا (تقديم وتحرير: إياد البرغوثي). مؤسسة الأسوار للتنمية الثقافية والاجتماعية. عكا. فلسطين. ط١، ص: ٢٩».

٥ عميت، غيش (٢٠١٥). بطاقة ملكيّة: تاريخ من النهب والصون والاستيلاء في المكتبة الوطنية الإسرائيلية". ترجمة: «علاء حليحل». المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار). رام الله. فلسطين. ص: ٨٩.

٦ انظر مصطلح «النكبة» على الموقع الالكتروني لموسوعة ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org/wiki/

٧ في ١٩٣٣/٣/٢٦ اجتمع الزعماء الفلسطينيون ويقدر عددهم بألف شخص في مدينة يافا وقرروا في اجتماعهم تطبيق مبدأ اللاتعاون مع الحكومة باعتبارها مسؤولة عن «نكبة» فلسطين (جبارة (٢٠٠٢)، ص: ١٦).

٨ هو الشاعر أحمد بن حسن بن عبد الله محرّم، ولد في (أبيا الحمراء) في الوجه البحري بمصر عام ١٨٧٧، من أبوين شركسيّين، وتوفي في مدينة دمنهور عام ١٩٤٥.

٩ العصا، عزيز (٢٠١٤). النكبة الفلسطينية: نتاج ١٥٠ عاماً من التحضير. مجلة العودة. مركز بديل. انظر الرابط التالي (أمكن الوصول إليه في ٢٠١٩/٠١/٠٩): http://www.badil.org/ar/component/k2/item/٢٠١٧-٠٣html.article

١٠ الخالدي، حسين فخري (٢٠١٤). ومضى عهد المجاملات... مذكرات –بيروت ١٩٤٩-. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن. المجلد الأول. ط١. ص: ٩٦-٩٧.

١١ ديفيس، أوري (٢٠١٥). إسرائيل الأبارتهايدية «وجذورها في الصهيونية السياسية. دار الشروق للنشر والتوزيع. رام الله. فلسطين. ط١. ص: ٢٩-٣٠، ٥٦-٥٨، ٨٧.

١٢ أنظر: غانم، هنيدة (٢٠١٨). دور المثقف الفلسطيني في بناء الهوية الجمعية: جدلية الجنوسة، والقومية، والتحرر في خطاب المثقف في أراضي ٤٨. مستل من «الثقافة الفلسطينية في أراضي ٤٨ –الواقع، والتحديات، والآفاق- مجموعة باحثين. تحرير وتدقيق: علي مواسي. ص: ٤١-٦٥».

١٣ بابه، إيلان (٢٠٠٧). ترجمة: أحمد خليفة. التطهير العرقي في فلسطين. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت، لبنان. ط١. ص: ١٩-٢٠.

١٤ الخالدي، وليد (١٩٨٧). قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني (١٨٧٦-١٩٤٨). مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت، لبنان. ط٤ (رام الله، ٢٠٠٩). ص: ٣٨.

١٥ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٩١-٩٥.

١٦ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٩١-٩٥.

١٧ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٩٣.

١٨ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٩٥.

١٩ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٩٥.

٢٠ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٨٧. في مذكرة صادرة عن المكتبة الوطنيّة في شهر آذار ١٩٤٩, ورد وصف لهذه الأعمال من خلال الأشخاص الذين قاموا بالمهمة. حيث شعر المختصون من المنتصرين، فور احتلال جيش الهغاناه للقطمون والأحياء القريبة منه، بخشية على مصير مجموعات الكتب الخاصّة والعامّة الموجودة في الأحياء التي تم استباحتها.

٢١ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٩٧-٩٩.

٢٢ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٨٧، ١٢١.

٢٣ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١٠٩.

٢٤ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١١١.

٢٥ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١٠١-١٠٣.

٢٦ يشار إلى كتب خليل السكاكيني (SAK)، وإلى نمر (NIMR).

٢٧ خصص «عميت» نحو خمس صفحات من كتابه لذكر قصص خاصة بمالكي تلك الكتب، منهم: ناصر الدين النشاشيبي، وإسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني، وخليل بيدس، ويعقوب فرج، ود. توفيق كنعان، وفؤاد (أو فايز) أبو رحمة، وحلمي عبد الباقي، ويوسف هيكل (أنظر: عميت (٢٠١٥). ص: ١١٣-١١٨).

٢٨ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص:١٠٧-١١٠.

٢٩ خلال فحص أول (٥٠٠) كتاب؛ AP١-AP٥٠٠، تبين أن ٣٠٪ منها كتب نثر، و٢١٪ إسلاميات، و١٨٪ منها فقه اللغة والخطابة، ونحو ١١٪ كتب العلوم الطبيعية... الخ (ص: ١١٠).

٣٠ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص:١٢٠-١٢١.

٣١ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١٨٧.

٣٢ عميت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١١٨.

٣٣ القلقيلي، عبد الفتاح ، وأبو غوش، أحمد (٢٠١٢). الهوية الوطنية الفلسطينية: خصوصية التشكل والإطار الناظم. إصدار: بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين. بيت لحم، فلسطين. ص: ٢٣.

٣٤ فرحات، محمد (٢٠١٤). م. س. ص. ١٠.

٣٥ درّاج، فيصل (٢٠١٢). «فلسطين: الهوية والثقافة» في الكتاب السنوي للعام ٢٠١٢، مؤسسة ياسر عرفات. ص. ٤٩-٦٥ ، ص. ٦١.

٣٦ مواسي، علي (٢٠١٨). الثقافة الفلسطينية في ظلّ المعازل واللّانظام. مستل من «الثقافة الفلسطينية في أراضي ٤٨ –الواقع، والتحديات، والآفاق- مجموعة باحثين. تحرير وتدقيق: علي مواسي. ص: ٠٩-١٩».

٣٧ شلحت، أنطوان (٢٠١٨). أفكار وهواجس متّصلة حول المشهد الثقافي في أراضي ٤٨. مستل من «الثقافة الفلسطينية في أراضي ٤٨ –الواقع، والتحديات، والآفاق- مجموعة باحثين. تحرير وتدقيق: علي مواسي. ص: ٢١-٣٩».

٣٨ المصدر نفسه

٣٩ الشيخ، عبد الرحيم (٢٠١٣). الهوية الثقافية الفلسطينية: المثال، والتمثيل والتماثل. في مجموعة من المؤلفين، "التجمعات الفلسطينية وتمثلاتها ومستقبل القضية الفلسطينية" (رام الله: مسارات/ المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الإستراتيجية ، ٢٠١٣). ط. ١. ص. ٦٩-١٤٣.

أوراق عربية

أكثر من نصف قرن على النكبة العربية الثانية

محمود الورداني *

أكثر من خمسين عاما مرّت على الهزيمة العربية الفادحة في حزيران/يونيو ١٩٦٧، وبهذه المناسبة المُهينة حقا للعرب جميعهم، وحتى لا ننسى، بادرت دار المرايا للنشر المصرية بإصدار الطبعة الثانية بعد أن نفدت الطبعة الأولى فور صدورها، من الجهد المشترك لستة باحثين متخصصين تناولوا أدق تفاصيل الهزيمة الكبرى التي أظن أنها أكثر فداحة من النكبة العربية الأولى في ١٩٤٨.

الكتاب هو» في تشريح الهزيمة» حرره خالد منصور الذي شارك أيضا بكتابة الدراسة الأولى:» الهزيمة المحتومة.. سياق ووقائع حرب الأيام الستة»، بينما كتب باقي دراسات الكتاب محمد العجاتي الذي تناول» الناصرية والهزيمة: انتكاسة أم انهيار للمشروع العربي»، وسامح نجيب الذي كتب عن فشل التنموية الناصرية، بينما اختار مصطفى عبد الظاهر دراسة الحركات الإسلامية في زمن الهزيمة، وكتب بلال علاء عن « تيه القافلة»، وأخيرا كتب خالد فهمي عن» هزيمة ١٩٦٧ الهيكلية والمستمرة».

وكما يرى القارئ من مجرد عناوين دراسات الباحثين، فإن» تشريح الهزيمة» ليس مجرد عنوان للكتاب، بل هو أحد الأهداف الأساسية للكتاب بكامله، أي دراسة الهزيمة على مختلف الأصعدة والجوانب لتقديم لوحة بانورامية بالغة الاتساع. تشريح الهزيمة وإعادة اكتشاف دقائقها وتفاصيلها ربما كان الهدف الأكبر وليس مجرد أحد الأهداف الأساسية.

أود أولا أن ألفت النظر لبعض الوقائع والأحداث المتماثلة تقريبا بين النكبة الأولى في ١٩٤٨، والنكبة الأكثر فداحة في ١٩٦٧، ويبدو أن محرر الكتاب لم ير حاجة لدراسة مثل هذه التماثلات، ولذلك خلا الكتاب منها.

---

* كاتب وروائي - مصر

على أي حال، سوف ألقي أولا نظرة سريعة للغاية على بعض تلك التماثلات، و يبدو لي أن النظم العربية التي حاربت في ١٩٤٨ سلّمت فلسطين لإسرائيل بلا مواربة، وأعتمد هنا على كتاب لي نشرته دار الهلال المصرية عام ٢٠٠٧ عنوانه» حدتو.. سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية» ذكرتُ فيه أن تلك الأنظمة اتخذت قرار الحرب قبل أيام من المعارك، ولم تكن تعرف أية معلومات استراتيجية مؤكدة عن العدو. وحسب ما أورده محمد حسنين هيكل في كتابه» العروش والجيوش» فإن» يوم صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، أي قبل ستة أشهر من بدء القتال على أرضها، لم يكن احتمال الحرب فضلا عن قرار الحرب واردا على بال الدولة في مصر، ولا حتى كخاطر ينشغل به طرف من أطراف السلطة، يستوي في ذلك القصر الملكي والوزارة القائمة في الحكم والأحزاب السياسية خارج الحكم.

ويضيف بأرقام تبعث على الذهول: «إن الجيش المصري دخل فلسطين وهو لا يعرف شيئا عن جيش اليهود ولا قادتهم ولا عدتهم العسكرية وأسلحتهم ومدى قدرتهم على القتال. كان عدد الجيوش العربية بالمتطوعين ٢٦ ألفا، بينما كان عدد الجيش اليهودي ١٢٠ ألف رجل وامرأة، وكنا نطلق عليهم العصابات الصهيونية تهوينا من شأنهم واحتقارا لهم".

وحسب هيكل أيضا فإن اللواء محمد المواوي القائد العام للقوات المصرية في فلسطين قال لوزير الدفاع بالنص» نحن غير مستعدين إطلاقاً» وكرر الكلام نفسه لرئيس الوزراء، لكن الأخير قال إن المسألة سوف تسوّى سياسيا، وأن الأمم المتحدة ستتدخل، وأن الاشتباكات ستكون مجرد سياسة».

ناهيك عن موقف الملك عبد الله آنذاك، بل إن الجنرال الإنجليزي جلوب باشا كان قائدا للفيلق العربي بكامله وليس مجرد قائد للجيش الأردني.

تقريبا تكررت المأساة نفسها بعد تسعة عشر عاما في النكبة الثانية، من حيث الاستعداد للحرب وسير المعارك. وتؤكد دراسات الكتاب أننا لم نخسر ما كان قد تبقى من فلسطين فقط (الضفة الغربية تحت الإدارة الأردنية مؤقتا، وغزة تحت الإدارة المصرية مؤقتا) بل خسرنا سيناء والجولان أيضا، والأكثر فداحة أن ما نحن فيه الآن من انهيار سياسي واجتماعي وثقافي شامل هو من بين تداعيات النكبة الثانية.

أما دراسات كتاب تشريح الهزيمة فتنطلق من فرضية أساسية، حسب المحرر، تقوم على أن هزيمة ١٩٦٧ ليست فقط» ماضيا نتعلم منه ولكنها حاضر حي، بمعنى أنها حدث تأسيسي لحقبة مازلنا نعيشها حتى اليوم» ويضيف» ومن ثم فإن تقييمنا للهزيمة وأسبابها وسياقها هو بحث في جذور

حاضرنا ومعانيه الكبرى» . فهي ليست مجرد هزيمة عسكرية خسرت فيها كل من مصر وسوريا والأردن أجزاء من أراضيها فقط، بل أيضا « بداية النهاية لمشروع تنموي قومي عربي يُدار من أعلى، ولوعود دول ما بعد الاستقلال الاقتصادية والاجتماعية» . وأخيرا وبعد الهزيمة بسنوات قليلة شهدنا الصعود السياسي الواضح لتيارات الإسلام السياسي كبديل للمشروع القومي المنهار.

وفي الدراسة الأولى للكتاب يركّز الكاتب على البُعد الداخلي للهزيمة، من خلال ثلاث تحولات رئيسة لتصاعد الأحداث حتى المواجهة العسكرية. الأول هو ورود تقارير سوفياتية عن حشود عسكرية إسرائيلية على حدود سوريا لضربها في نهاية إبريل وبدايات مايو ١٩٦٧. الثاني قرار عبد الناصر إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، ويعتبره الكاتب» الخطأ التكتيكي المذهل الذي أدى لانهيار استراتيجي شامل فيما بعد». والأخير قرار إسرائيل شن حرب هجومية بدلا من الاقتصار على رد فعل محدود على إغلاق خليج العقبة.

ثم تمضي الدراسة بعد هذا إلى الرصد التفصيلي لسياق ووقائع حرب الأيام الستة. ومثلما جرى في نكبة ١٩٤٨ عندما دخلت الجيوش الحرب وهي لا تملك أدنى أسباب الاستعداد لخوضها، فإن ضعف المستوى التدريبي وتضارب الخطط العسكرية كان مثيرا للدهشة. وعلى سبيل المثال وعندما بدأ حشد القوات المصرية في سيناء في ١٥ مايو ١٩٦٧، كانت هناك أربع خطط عسكرية لم يُنفذّ أي منها لأنها جميعا حبر على ورق وليست هناك إمكانات لتنفيذها ولا معلومات عن العدو.

ومنذ مناورة عام ١٩٥٤ لم يتم تدريب وحدات الجيش في مناورات فعلية، وإلى جانب تزييف تقارير تدريبات ضرب النار، لم يجر خلال سنوات ٦٥، ٦٦، ١٩٦٧ تدريب أي لواء مكتمل. واعتمادا على كتب القادة العسكريين المشاركين في الحرب، فإن النقص في قوات الجيش صبيحة المعركة زاد عن ٣٣ بالمائة.

كانت أوضاع القيادة العسكرية بائسة للغاية عشية الحرب. فالقائد العسكري لمصر، المشير عامر، سبق أن أثبت فشله وانهياره السريع إبان العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ عسكريا وإبان الوحدة مع سوريا سياسيا ولم يكن يفقه شيئا فيما يتعلق بالحروب، بل إن عبد الناصر سبق له أن ضغط على محمد نجيب أول رئيس للجمهورية بعد انقلاب الضباط الأحرار عام ١٩٥٢، ليرقّي عامر أربع رتب مرة واحدة من صاغ إلى لواء، وظل وجوده على رأس الجيش المصري منذ ذلك الحين لتأمين الجيش ومراقبته خشية أي انقلاب عسكري محتمل. وظلت تلك هي المهمة الأساسية لعامر بحُكم الصداقة التي ربطت بينهما منذ تزاملا في الحرب عام ١٩٤٨.

على سبيل المثال غيّر عامر خطط القتال أربع مرات مما أنهك القوات الميدانية قبل أيام من اندلاع القتال. ويؤكد الفريق محمد فوزي رئيس الأركان في كتابه» حرب الثلاث سنوات»، إن» جميع المعلومات أو التقديرات أو تحليلها عن العدو أو مقدرته القتالية أو أساليب قتاله وقدراته والنطاق الأقصى الفعال لطائراته كانت خاطئة، الأمر الذي جعل تخطيط العمليات الحربية التي أقرها المشير عامر بناءً على معلومات وتقديرات المخابرات الحربية خاطئة كذلك".

المثير للدهشة أن عبد الناصر، كما ذكر فوزي في الكتاب نفسه، أبلغ عامر وكبار القادة في الثاني من يونيو، أي قبل الحرب بثلاثة أيام، إن إسرائيل قد تهجم يوم الرابع والخامس من يونيو، فما كان من عامر إلا أن أمر بتوزيع تقرير من المخابرات الحربية يتضمن ما يفيد إن إسرائيل لن تُقدم على أي هجوم وأن» الصلابة العربية الراهنة ستجبر العدو على تقدير العواقب".

وإذا كان ناصر قد توقع الهجوم في الرابع أو الخامس من يونيو، فإن عامر قرر زيارة القوات في سيناء في صباح الخامس من يونيو!! وكان ذلك معناه أن تتوقف قوات الدفاع الجوي عن عملها تماما، مادامت طائرة عامر في الجو، أي أن الأخير أهمل عمدا تحذيرات ناصر... وهكذا قصفت طائرات العدو في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة كل قواعد مصر الجوية وكل قاذفاتها الثقيلة والخفيفة أي نحو ٨٥ بالمائة من القوات الجوية.

وفي مواجهة ذلك الوضع الكارثي، طلب عامر بعد ظهر السادس من يونيو من رئيس الأركان أن يقدم له في خلال عشرين دقيقة خطة لسحب القوات من سيناء!!كان عامر منهارا، لكن فوزي قدّم خطة للانسحاب خلال ثلاثة أيام، فأجابه المشير بأنه أعطى أمر الانسحاب بالفعل.. وللقارئ أن يتخيل الفوضى الناجمة عن إعطاء أمر بالانسحاب دون خطة محددة.

ما يدعو للمزيد من الغضب أن عبد الناصر نفسه حتى بعد ظهر السابع من يونيو لم يكن قد أدرك فداحة الهزيمة، ولم يكن قد عرف أن عامر أصدر أمر الانسحاب الكارثي. ويضيف كاتب الدراسة أنه « لو لم يكن قادة الجيش وعامر ورئيس البلاد قد انهاروا سريعا وفقدوا السيطرة، لكان من الممكن أن تتمسك القوات المصرية بالمضايق»، فالقوات هناك كانت محصنة، وتستطيع الدفاع حتى لو كانت بلا غطاء جوي.

وإذا كان هدف إسرائيل «إذلال» العسكرية المصرية على حد تعبير الكاتب فقد تحقق ذلك الهدف، وتحقق معه فرض حل سياسي يضع نهاية للمشروع القومي الناصري المعادي لوجود إسرائيل، وفي غضون أربعة أيام تم الاستيلاء على القدس والضفة الغربية وسيناء والجولان، إلى جانب خسائر فادحة أخرى. فمثلا كانت الخسائر استشهاد١٢ ألف جندي وضابط مصري، و٧٠٠

أردني و٦٠٠٠ جريح، ومقتل ٤٥٠ سوريا وجرح ١٨٠٠، فضلا عن الأسرى بالآلاف. وفي نهاية الحادي عشر من يونيو كانت مساحة إسرائيل قد تضاعفت ثلاث مرات ونصف، وخسرت مصر كل دخلها من قناة السويس، وسيطرت إسرائيل على حقول البترول في سيناء.

وينتهي الكاتب إلى أن هزيمة ١٩٦٧ فرضت واقعا جديدا تماما، وانقلبت من « الطنطنة حول إزالة إسرائيل إلى مجرد إزالة آثار العدوان، وبات مصير الفلسطينيين في مهب الريح، وبدأ العد التنازلي لأفكار القومية العربية، وسرعان ما تحولت الأنظمة القومية خصوصا في سوريا والعراق إلى أنظمة قمعية دموية".

وإذا كانت الدراسة الأولى تستغرق ما يزيد على سبعين صفحة من الكتاب فذلك لأنها تركز على سياق ووقائع الحرب، ثم تتوالى الدراسات الخمس التالية والتي وردت باعتبارها فصولا من لوحة فسيفساء عريضة تسعى للإلمام بالصورة بكل تفاصيلها. وسوف يلحظ القارئ أن هناك بعض التكرار في الوقائع، وهو أمر طبيعي لأن الكتّاب الستة يتناولون الوقائع ذاتها عشية وأثناء وفي أعقاب حرب الأيام الستة.

في هذا السياق يركز محمد العجاتي مثلا في دراسته على محاولة الإجابة على السؤال التالي: هل الهزيمة شكلّت مجرد انتكاسة للمشروع العربي أم انهياراً له؟

كانت الهزيمة في جوهرها هزيمة للمشروع التحرري التقدمي ذي البُعد الاجتماعي، وفي الوقت نفسه لم تفتح الباب لتوسيع هامش الديمقراطية، وبادرت الملكيات الرجعية العربية بتوسيع رقعة نفوذها، وبدأ الدور السعودي مثلا يتحول إلى المشروع المركزي الحافظ للمنطقة والداعم لها. كما تحول الخطاب القومي إلى خطاب فوقي وسلطوي، بدلا من دوره كخطاب لوحدة الشعوب العربية. كذلك تراجعت القضية الفلسطينية وتزايدت الخلافات حولها بسبب تجميد الخطاب القومي في حدود تحرير الأرض التي احتُلت بعد الهزيمة.

لكن الدراسة تُلفت النظر مع ذلك إلى أن أهم التحولات الإيجابية في أعقاب الهزيمة هو التحول النوعي في شكل وطبيعة المقاومة الفلسطينية. وبعد عام ١٩٦٨ تأكدت عدة نتائج هي تأكيد الهوية الفلسطينية « وفي القلب منها نظرة الفلسطينيين في العموم لأنفسهم كشعب ثوري يكافح من أجل تحرير أرضه»، ثم» التجسيد المؤسساتي لهذه الهوية عند استيلاء الحركة الفدائية على منظمة التحرير في ١٩٦٩»، وأخيرا تطوير نوع من الممارسة السياسية داخل التنظيمات شبه العسكرية.

أما سامح نجيب في دراسته» هزيمة ٦٧ وفشل الدولة التنموية المصرية» فلا يطرح محاولة لتقديم تفسير اقتصادي للهزيمة، بل يعرض للسياقات والمقدمات الاقتصادية لتلك الهزيمة، ليبرهن على أن هناك علاقة مؤكدة بين حجم هزيمة ١٩٦٧ وحجم أزمة الدولة التنموية الناصرية، ويستبعد في هذا السياق واحدة من الأفكار الشائعة التي تذهب إلى أن الحرب كانت مؤامرة لإفشال مشروع تنموي ناجح، ومثل هذه الأفكار في نظره ليست سوى محاولة لتبرير الفشل والهزيمة معا.

من جانب آخر فإن متابعة الأداء الاقتصادي قبل الحرب يُظهر أن الدولة الناصرية سقطت سريعا في مصيدة القروض والمساعدات الخارجية، كما فشلت الخطة الخمسية الوحيدة، ومن الصعب فهم مقدمات وتوابع هزيمة ١٩٦٧ خارج سياق تلك التجربة الفاشلة.

اختار مصطفى عبد الظاهر ان يتناول في دراسته الحركات الإسلامية في زمن الهزيمة، ويرى أن تاريخ الأيديولوجيا الإسلامية في مصر ارتبط برؤيتها لمفهوم العمل السياسي، وقد شهد هذا المفهوم مرحلتين رئيسيتين: الأولى مرحلة التأسيس على يد حسن البنا عام ١٩٢٨، وكان الأخير آنذاك مؤمنا بالتقدم والسبق الغربي، وأنه من الممكن للمسلمين أن يحققوا مكتسبات الغرب المادية، دون التخلي عن اعتقادهم الديني وعن أخلاقهم.

أما المرحلة الثانية فيطلق عليها كاتب الدراسة « مرحلة زمن الهزيمة» وكانت هزيمة ١٩٦٧ أهم تجلياتها، وإن لم تكن التجلي الوحيد. أثارت تلك المرحلة أسئلة جديدة حول أسباب الهزيمة، وإذا كانت تلك الأسئلة تشبه إلى هذا الحد أو ذاك ما طُرح بعد هزيمة ١٩٤٨، إلا أن التبريرات الشائعة وقتها أرجعت الهزيمة لفساد الحكام العرب وموالاتهم للاستعمار، ومع هزيمة ١٩٦٧ انتقلت المسؤولية إلى النظام الناصري وغيره من الأنظمة.

انقسم رد فعل الإسلاميين على حدث جلل كهذا إلى محورين. الأول هو ما طرحه سيد قطب في كتابه» معالم في الطريق» الذي أسس لقطيعة معرفية داخل الحركة الإسلامية مع مقولات البنا مثل الإصلاح، واستبدلها بمقولتي الحاكمية الجاهلية. وإذا كان قطب قد أعدم عام ١٩٦٦، إلا إن أتباعه رأوا في الهزيمة دليلا عمليا على ما بشّر به، وعلى المسلمين العودة إلى أصولهم بعد أن أصابتهم الجاهلية التي تشبه الجاهلية التي قضى عليها ظهور الإسلام، ولا حل إلا اللجوء للعنف للقضاء عليها.

أما المحور الثاني الإصلاحي فيقوده المخلصون لتعاليم البنا، وهو لم يكن فقط مجرد رد فعل على أفكار قطب، بل أيضا ردّاً على فشل المشروع الناصري. ويُعد كتاب المرشد الثاني للإخوان المسلمين

حسن الهضيبي « دعاة لا قضاة» التعبير الأمثل عن وجهة نظر هذا التيار، حيث خصص أغلب صفحات كتابه للرد على أفكار قطب، ويؤكد كاتب الدراسة أن ما أسس له الهضيبي يُعد جذرا للتطورات اللاحقة حتى عام ٢٠١٣، ويضيف «أنه- الهضيبي- احتفظ بما في أيديولوجيا البنا من غموض وإصلاحية وتلفيق بين المصادر، ولكنه تشبث أكثر بالدولتية وأدواتها، كنتيجة للخوف من ميل اليائسين من أبناء الحركة إلى اعتماد العنف أداة وحيدة للتغيير".

وينتهي عبد الظاهر إلى أن كثيرا من التحليلات تذهب إلى أن من أهم آثار هزيمة يونيو على الحركات الإسلامية كان ظهور الحركات التكفيرية والمسلحة المتأثرة بأفكار قطب.

الدراسة التالية في الكتاب هي «تيه القافلة» لبلال علاء، الذي استمد العنوان من عبارة وردت في كتاب جمال عبد الناصر» فلسفة الثورة» الصادر بعد الثورة. ويتفق مع الدراسة السابقة في أنه تم استيعاب هزيمة ١٩٤٨ على أنها نتيجة للاستعمار والحكم الملكي والفساد،» لكن هزيمة ١٩٦٧ جاءت في ظل أنظمة بنت شعبيتها على معاداة كل ذلك، فصارت هزيمة لشعارات التقدم والاشتراكية والوحدة» ويضيف» وهزيمة للأب أمام أبنائه.. الحقيقة أن إسرائيل نجحت في إزالة هيبة تلك الأنظمة تماما".

ويستخدم تعبير تيه القافلة في سياق يؤكد أن إنجازات نظام عبد الناصر والضجيج والشعبوية وقوة ماكينات الدعاية الجبارة، كانت وراء عدم رؤية» القافلة» على حقيقتها (وواضح طبعا أن القافلة هي نظام يوليو ١٩٥٢ والشعب معا) لأنه تم محو حركة الناس بشكل دؤوب، وبات التعرف عليها صعبا، بل صار الشعب نفسه « مجرد فرضية في سردية سلطوية». ويلفت النظر أن المرتين الوحيدتين اللتين خرج فيهما الشعب رغم أنف النظام هما عندما هُزم عبد الناصر وحاول التنحي، إلا أن الجماهير الغفيرة تجاوزت كل الحواجز وخرجت مظاهرات صاخبة في ٩و ١٠ يونيو ١٩٦٧ تطالبه بالعدول عن قراره بالتنحي. أما المرة الثانية فكانت بعد موته في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠. والمقصود هنا خروج الجموع، لأن حكم الناصرية قام أساسا على قمع الجميع وإلغاء الديمقراطية وتأميم الحياة السياسية.

وأخيرا .. من الملاحظ خلو الكتاب من دراسة أو أكثر ترصد الوضع على الجبهتين السورية والأردنية، ليس فقط من الزاوية العسكرية، بل على مختلف الأصعدة . الهزيمة كانت شاملة حقا، والأهم حسبما يؤكد محرر الكتاب أننا مازلنا نعيش تداعياتها، وما زلنا نتنفسها..

بين يدي التنمية البشرية الانسانية

عبد الفتاح القلقيلي*

لماذا انسانية و ليس بشرية فقط ؟

يقول بعض الفلاسفة ان هناك موضوعا بشريا وموضوعا انسانيا. وحسب هذا الرأي فالناس بشر باعتبارهم الفسيولوجي ولذلك يقولون «طب بشري» لأنه علم يتعاطى مع التركيب الفسيولوجي للإنسان، وهو بذلك يختلف عن الحيوانات في الدرجة وليس في النوع، أي انه المرحلة الارقى في سلم الحيوانات.

أما الانسان فهو المرحلة الأرقى من البشر باعتبارهم السيكولوجي، ولذلك في حين يعتبر «الطب» علماً بشرياً، يعتبر «الادب والفن وعلم النفس والاجتماع والقانون» علوماً انسانية وليست علوماً بشرية.

ويرى بعض علماء الاجتماع انه كما أن للمجتمع بناء تحتي وبناء فوقي (الاقتصاد عمود البناء التحتي والسياسة عمود البناء الفوقي) فإن للإنسان بناء تحتي وبناء فوقي ايضاً. العلوم البشرية تبحث في البناء التحتي، والعلوم الانسانية تبحث في البناء الفوقي. وعطف الوالدين على ابنائهم جزء من البشرية لأنه مرحلة ارقى من مراحل عطف الوالدين الحيوانية على ابنائهما وكذلك تعلق الابناء بالوالدين. أما عطف الابناء على الوالدين فهو جزء من الحالة الانسانية لإن الابناء الحيوانيين لا يعطفون على والديهم.

ولذلك اذا اتصف احد الوالدين بعدم العطف على ابنائه نقول انه ليس من البشر أما اذا اتصف احد الابناء بعدم العطف على الوالدين يبقى بشراً ولكنه ليس انساناً.

---

* كاتب وباحث - فلسطين

وقد وردت كلمة «بشر» في القرآن الكريم ٣٧ مرة، وكلها بمعنى «كائن من لحم و دم» (عكس الملائكة و الجن)، اي ان مفهوم «بشر» تعبير فسيولوجي و ليس سيكولوجيا. و يرى البعض ان سن الرشد ثلاثة انواع :

أ – سن الرشد البيولوجي «البلوغ»، وهو السن الذي عندما يبلغه البشر (ذكورا و اناثا) يصبحون قادرين على ممارسة الجنس الايجابي (الذي يمكّن نظريا من الانجاب لحفظ النوع).

ب – سن الرشد السيكولوجي (النفسي)، وهو المرحلة التي يبلغها الانسان فيصبح قادرا على التمييز بين ما هو صائب و ما هو خاطئ او ضار له.

ج – سن الرشد السوسيولوجي (الاجتماعي)، وهو المرحلة التي يبلغها الناس فيصبحون قادرين على التمييز بين ما هو صائب وما هو خطأ او ضار لمجتمعهم .

و العمر مؤشر على سن الرشد (باشكاله الثلاث)، و لكنه ليس دليلا قاطعا عليه، حيث يتنوع الناس في سنوات سن رشدهم .

الفكر :

الفكر هو المكون الاساسي للانسان، بل هو دليل وجوده او مبرره. قال ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) «أنا افكر فأنا موجود !!» «وقال لين بياو (١٩٠٨- ١٩٧١) «اولى شيء في الاشياء الانسان، وأولى شيء في الانسان السياسة، وأولى شيء في السياسة الافكار، وأولي شيء في الافكار الافكار الحية». والافكار الحية هي الافكار التي تظهر انعكاساتها في الممارسة (أي هي الافكار الممارَسة).

الفكر هو مكون للانسان، ولكنه يكتسب كينونته الاجتماعية في إحدى الحالتين:

أن يجري التعبير عنه (أو إظهاره) شفاهياً أو كتابياً أي نقله للناس عن طريق آذانهم أو عيونهم أو أي حاسة أخرى لهم.

ب – أن يتصرف صاحبه استناداً له، أي يجري التعبير عنه بالمسلك. وهنا يحاسب المجتمع على المسلك: تحبيذاً أو قبولاً او رفضاً أو إدانة. وإذا كان موقف المجتمع من المسلك سلبياً فقد يغفر لصاحب المسلك هذا شيئاً ما إذا كان هذا المسلك السيء سوءاً في التعبير عن فكرة جيدة، وهنا يلتمس المجتمع عذراً للمخطئ. وإذا لم يكتسب الفكر كينونته الإجتماعية لايتحمل صاحبه تبعاته الإيجابية أو السلبية مهما كان مجتمعه محافظاً أو ليبرالياً.

يخيل لصاحب «الفكرة» أنها واضحة جداً في ذهنه، ولكنه حينما يطرحها شفاهياً ينقص وضوحها

بعض الشيء، وحينما يكتبها تقل وضوحاً عن ما كانت عليه عند قولها. وذلك لأن الفكرة تنفصل عن الانسان بطرحها قولاً، وكتابةً، ولكن القول غير منفصل تماما عن القائل. فشخصيته تؤثر فيما يقول، ويستطيع أن يدعم فكرته، ويدافع عنها بالقول أو بالحركة، وبتعابير وجهه، اما المكتوب فينفصل تماماً عن الكاتب وبذلك تكون «الفكرة» مستقلة وتواجه مصيرها وتدافع عن نفسها، وسمعة صاحبها ذات تأثير بسيط في توضيحها.

الفن يأخذ حدثاً ويجسده ويبني حوله، ويعتبر هذا الحدث ممثلاً للمجتمع ككل. أما العلم فيأخذ حدثاً ويعتبره محرضاً على دراسة ظاهرة ذات علاقة بالحدث.

مثال : أ - «اذا حدث ان انتحرت عاشقة بسبب عشقها» يأتي الفنان فينتج عملاً موسيقياً او لوحة او قصيدة او قصة تجسد هذا الحدث. أما العالم فهذا الحدث قد يحرضه على القيام بدراسة عن الانتحار، أو بدراسة عن العشق، أو بدراسة عن المرأة. اما كاتب التقرير فيُعد سرداً عن الحدث ومسبباته ونتائجه المباشرة، وربما غير المباشرة ايضا.

ب : اذا مر شخص من قرية وكان جائعاً وقابل شخصاً من اهلها وابلغه بجوعه ولم يتجاوب معه ولم يطعمه، فاذا كان فناناً وكرّس بخل ولؤم هذه القرية بلوحة او قطعة موسيقية او قصيدة او قصة، لا يجوز لأحد ان ينتقده باتهامه بضيق الافق .

أما اذا كان عالماً أو باحثاً، واستنتج من ذلك ان اهل هذه البلدة بخلاء أو لؤماء فالجميع ينتقده ويتهمه بالانحياز واللاعلمية، فربما يكون استنتاجه خاطئاً جداً .

نظرية المعرفة :

اختلفت المدارس الفلسفية حول تعريف «المعرفة»، فقالت الماركسية بانها عملية انعكاس الواقع او عرضه في الفكر الانساني، و ترتبط ارتباطا لا ينفصم بالممارسة، و تُستخدم في النشاط العملي من اجل التغيير واخضاع الطبيعة للمتطلبات الانسانية (الموسوعة الفلسفية الماركسية). اما الاسلام فعرفها بانها ادراك الحقيقة و القوانين و السنن الالهية، و هي بمطلقها لله وحده و بجزئيتها للناس، و لا يتعارض ما ياتي به الوحي من حقائق لا مع الحقائق الواقعية الملموسة ولا مع العقل، و باب النظر والبحث في طبيعة الخلق او في اي جزئية منه لا يمكن ان يغلق (المعهد العالمي للفكر الاسلامي ١٩٨١). و ترى بعض المدارس الاسلامية ان المعرفةهي محصلة تفاعل المعلومات الخارجية مع العملية الدماغية. و تقترب هذه الرؤية مع المذهب النقدي الليبرالي و مع مذهب «كانط» الالماني اللذين سياتي ذكرهما بعد قليل .اما الليبرالية ففيها عدة مذاهب في نظرية المعرفة، و اهمها اربعة:

المذهب العقلي الذي يرى ان العقل مصدر المعرفة، و المذهب التجريبي الذي يرى ان العالم الخارجي الذي تدركه الحواس هو مصدر المعرفة، و المذهب النقدي الذي يرى ان معطيات الحواس تشترك مع معطيات العقل في توليد المعرفة، و المذهب الحدسي الذي يرى ان المعرفة الحقيقية لا تصل الينا عن طريق العقل او الحواس او تفاعلهما وانما عن طريق «الحدس»، و اتباع هذا المذهب هم الصوفيون في الغرب و الشرق بغض النظر عن دينهم.

و تفرق المدرسة الفرنسية بين «نظرية المعرفة» باعتبارها تهتم بجميع انواع المعارف، و»الإبستمولوجيا» (epistemology) باعتبارها تهتم بالمعرفة العلمية بالتحديد. اما المدرسة الانجليزية فتكاد لا تفرق بين المصطلحين ، ونحن ناخذ بذلك للتسهيل.

و قد اعتمدت الجامعات ومراكز البحث «علم اجتماع المعرفة» كعلم جديد النشاة، شانه شان علم الاجتماع السياسي و علم الاجتماع الاقتصادي. وهو يدرس ارتباط المعرفة بالوجود الاجتماعي انطلاقا من ان الانواع المختلفة من المعرفة انما ترتبط بسياقها الاجتماعي.

وكان الفيلسوف الاندلسي «ابن ماجه» المتوفّى عام ١١٣٨ اول من قسّم المعرفة طبقيا، او لنقل قسّم الناس طبقيا حسب «معارفهم» في كتابه «تدبير المتوحد»، حيث اعتبر الطبقة الدنيا هم ذوو المعرفة التي تخضع للاهواء المتقلبة، و المرتبة الوسطى هم الذين يفكّرون تفكيرا نظريا و يتمكنون من الاستدلال العقلي وهؤلاء يحق لهم ان يكونوا اعضاء في مجتمع السعداء، و اما المرتبة السامية فهم ذوو الحدس العقلي وهي المرتبة التي عندها يكتمل عقل الانسان ويدرك نفسه بنفسه و يعرف الاشياء من داخلها لا من خارجها فقط ويحق لهؤلاء ان يحكموا مجتمع السعداء.

و يتفق ابن خلدون (المتوفّى عام ١٤٠٦م) مع ابن ماجه في طبقات المعرفة، الا انه يختلف معه ليرى ان المجتمع لا يتحدد مستوى تطوره بمستوى تطور معرفته، بل العكس هو الصحيح، اي ان مستوى تطور المجتمع هو الذي يحكم مستوى تطور المعرفة.

و جاء «كوندرسيه» (١٧٤٣- ١٧٩٤ م) ليرى راي ابن ماجه، و اما سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥ م) فيرى راي ابن خلدون. وجاء كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) متطرفا في هذا المجال ليقول ان نمط الانتاج هو الذي يحدد تطور الحياة الاجتماعية و السياسية و العقلية على وجه العموم، و يؤكد ان وجود الناس الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم و ليس العكس. و استخلص ان الافكار السائدة في كل حقبة تاريخيةهي افكار الطبقة السائدة.

و يقول المثل الشعبي : «كلب الشيخ شيخ الكلاب ، وكلام الشيخ شيخ الكلام»

اما ماكس فايبر (١٨٦٤-١٩٢٠م) فيرى انه لا توجد علاقة ترابطية حتمية بين المعرفة و الواقع

الاجتماعي. وقد كان لفايبر تاثير كبير على علم الاجتماع المعاصر (الغربي البرجوازي).

وتتفق المدارس المختلفة حول نظرية المعرفة، وحتى المتناقضة منها، على ان المعلومات هي المادة الخام للمعرفة _ كان ذلك منذ بداية التنظير اليوناني وما زال حتى يومنا هذا. و يتفق الجميع ان مستوى المعرفة محكوم الى درجة ما بمستوى المعلومات المتوفرة. وهذا لا يعني ان المعلومات الهامة تنتج بالضرورة معرفة هامة، و لكنه يعني ان المعرفة الهامة تنتج عن المعلومات الهامة. واليوم، يُعتبر جمع المعلومات (الداتا data) هو المجال الاهم في العلوم الانسانية وخاصة في مشاريع التنمية باشكالها.

وعملية انتاج المعرفة محكومة بنواميس الانتاج عامة، و العملية هي مجموعة الانشطة المتداخلة او المتفاعلة التي تحوّل المُدخَلات الى مخرَجات. و يمكن تأطير معادلات الانتاج بالانماط التالية :

مُدخَلات١ + انشطة١ = مُخرَجات١ (نواتج outputs)

مُدخَلات٢ (مخرَجات١) + انشطة٢(سياسة POLICY) = مردود (OUTCOM)

مُدخَلات٣ (المردود) + الظروف (السياسة العامة) = الاثر(المردود العام)

المفاهيم

تعريف المفهوم : Concept

هو « انعكاس « جوهر الظاهرة أو الشيء في عقل الانسان . ويُستخلص بواسطة التعميم والتجريد . وهو نتاج معرفة متطورة تاريخياً من مرحلة ادنى الى مرحلة اعلى حتى تصل الى رتبة « الانعكاس المطابق للواقع» . ولكل مفهوم « تفرّد « عن المفاهيم الاخرى ، ولكن هنالك علاقات وتداخل بين العديد من المفاهيم . . و هناك مستوى آخر من المفاهيم، وهي المصطلحات التي يسميها بالاقانيم ICONS (دليل ال RBM لوكالة CIDA).

وتتدرج دقة المفاهيم حسب التسلسل التالي :

الرياضيات .

العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، ....)

العلوم النباتية .

العلوم الحيوانية .

العلوم البشرية .

العلوم الانسانية : و تتدرج دقة المفاهيم في العلوم الانسانية كما يلي :

علاقة الانسان مع الطبيعة (علم الاقتصاد ...)

علاقة الانسان مع الانسان (علم الاجتماع ، السياسة ...)

علاقة الانسان مع نفسه (علم النفس ...)

نلاحظ ان دقة المفاهيم تتناسب عكسيا مع حيوية مجالها.

القانون :

أ-التعريف : هو حكم العلاقة بين عاملين (ظاهرتين) او اكثر حكماً مستقلاً عن ارادة الانسان . . وترى الماركسية ان القانون ليس مستقلا عن ارادة الانسان ووعيه ومُناه و نواياه فقط، بل هو(اي القانون) الذي يتحكم بذلك الوعي و تلك الارادة والمُنى والنوايا .

امثلة : ١- في الطبيعة، يتناسب حجم الغاز تناسباً طردياً مع درجة الحرارة بشرط بقاء العوامل الاخرى (الضغط، الحيّز) على حالها (قانون بويل).

٢-في الاقتصاد، يتناسب السعر (الثمن) تناسباً عكسياً مع العرض بشرط بقاء العوامل الاخرى (ذوق المستهلكين ودخلهم) على حالها .

في الادب، يتناسب اقبال القارئ تناسباً طردياً مع جمال الصورة في النص بشرط بقاء العوامل الاخرى (الاسلوب وذوق القارئ) على حالها .

ب - ما الفرق بين «القانون» في المحاكم و»القانون» في العلوم ؟

الاول موضوع (أي تضعه جهة ما) ليحكم العلاقات في المجتمع وهو ذو علاقة بإرادة الانسان سواء بإصداره او بالالتزام به، و ليس هذا القانون موضوع دراستنا. أما الثاني فمُكتشف (أي تكتشفه جهة ما) ويحكم العلاقة بين الظواهر أو الاشياء حكماً مستقلاً عن ارادة الانسان، و هذا القانون هو موضوع دراستنا .

ج - صياغة القانون

يصاغ القانون في العلوم الطبيعية كاستخلاص لتجارب تجري في المختبر حيث تحّرك بعض العوامل وتثبت عوامل اخرى لملاحظة العلاقة بين العوامل المتحركة – كما في قانون بويل مثلاً .

أما في العلوم الانسانية فتصاغ القوانين كاستخلاص لملاحظة ومتابعة ظواهر عبر مراحل مختلفة، ثم اللجوء الى «التجريد» و «التصور» واحياناً اجراء دراسات ميدانية.

ولذلك تمتاز القوانين في العلوم الطبيعية بالدقة والثبات النسبي وامكانية التعبير عنها رقمياً، أما في العلوم الانسانية فهي تقريبية وغير دقيقة ويصعب قياسها رقمياً. وغالبا ما يستعاض عن الارقام بالمستويات : أ ، ب ، ج (اول ثاني ثالث)

د - دور القوانين في الحياة : القوانين في الحياة (العلوم الطبيعية والانسانية) تعمل عمل الحركات اللاارادية في الجسم (كعمل القلب او الكبد او البنكرياس ...) وذلك لتنظيم عمل الجسم. اما حركات الجسم الارادية الميكانيكية (كالتنفس) فتشبه عمل القوانين القضائية في المجتمعات الديموقراطية.

ها – صحة القوانين العلمية و خطأها

القوانين الخاطئة، وهي المقولات التي تتوهم علاقة غير صحيحة او غير موجودة بين الظواهر او الحالات. و بعض هذه القوانين صيغ خطأ عن قصد وبعضها عن غير قصد. والتي عن قصد، بعضها ساذج وبعضها عميق (الجبرية والقدرية، ثبت ان كلاهما خاطئ) .

القوانين الصحيحة، هي المقولات التي تحدد علاقات بين الظواهر او الحالات، علاقات يثبت الواقع صحتها، مثل :

+ الدراسة والنجاح، يتناسب النجاح تناسباً طردياً مع الدراسة.

+ العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق (السعودية حتى عام ١٩٥٦ كانت عملتها ذهب وفضة وفي عام ١٩٥٧انزلت الى السوق عملة ورقية في عام ١٩٥٩. لم يكن في السوق عملة ذهبية وفي عام ١٩٦١ لم يعد هنالك عملة فضية).

المؤشر ((Indicator :

هو حكم للعلاقة بين ظاهرتين ولكنها علاقة اقل حكماً (أي اقل دقة) من العلاقة التي يحكمها القانون. بمعنى آخر المؤشر هو حالة تدل على حالة اخرى وان كانت لا تقيسها قياساً دقيقاً.

ومن الامثلة على ذلك :

كثرة المساجد مؤشر على كثرة المصلين، ولكننا لا نستطيع القول ان كثرة المساجد تتناسب تناسباً طردياً مع كثرة المصلين.

السعر المرتفع مؤشر على الجودة، ولكننا لا نستطيع القول أن السعر يتناسب تناسبا طردياً مع الجودة.

ج - الغيوم مؤشر على قرب نزول المطر، ولكننا لا نستطيع القول أن كثافة الغيوم تتناسب طردياً مع كثافة المطر.

د - كثرة الانفاق مؤشر على ارتفاع الدخل، ولا نقول يتناسب الانفاق طردياً مع الدخل.

ويقابل المؤشر في الطب الأعراض، فالصداع الخلفي من اعراض ارتفاع الضغط، ولكن ليس الصداع الخلفي شرط ارتفاع الضغط، و ليس العكس ايضا.

الموحي : إن كان المؤشر يدل على حالة موجودة ، فإن الموحي يدل على حالة متوقعة . وما ينطبق على المؤشر ينطبق على الموحي، و ان كان الاول اكثر دقة من الثاني.

الحوار والتحقيق :

الحوار بين طرفين او اكثر متساوي الحقوق والصلاحيات حتى إذا لم يتساوو في المقدرات سواء خارج اطار الحوار او داخله ، وإن كان متوقعاً الغلبة لذوي المقدرات الاعلى.

أما التحقيق فهو حوار مشوّه لانه بين طرفين الأول يسأل والثاني يجيب حتى لو كان الثاني ذا مقدرات اعلى من الأول سواء خارج اطار التحقيق او داخله.

ونتائج التحقيق قد تكون احكاما ظالمة او عادلة. ونتائج الحوار الناجح تكون اتفاقا بين الاطراف المتحاورة، وقد يكون بها ظالم ومظلوم، او مستفيد وخاسر، وقد يكون الجميع مستفيداً في المحصلة النهائية، و قد يكونون جميعا خاسرين.

وجدير بالملاحظة أن هنالك ما يُدعى بالحوار ولكنه في الحقيقة تحقيق، وبالتالي هنالك ما يدعى اتفاق وهو في الحقيقة احكام وقبول لهذه الاحكام .

ومن الامثلة على ذلك :

الاتفاق الذي يوقّع عليه المنتصر والمهزوم بعد حوار بينهما، هو في الحقيقة حكم يصدره المنتصر ويقبله المهزوم بعد أن قام الأول بالتحقيق مع الثاني، ولكن الطرفين يصرّان على تسميته حواراً واتفاقاً . الطرف الأول يقصد من ذلك تأكيد ديمقراطيته وانسانيته وشرعية النتائج حيث انها تعبر عن رغبة الطرف الثاني، أما الطرف الثاني فيقصد من ذلك حفظ ماء الوجه والايحاء بأن ارادته حرّة وكرامته محفوظة. وهو في الحقيقة انقاذ ما يمكن انقاذه، والتضحية بالمهم للحفاظ على الاهم حسب وجهة نظر الطرف الثاني.

تداخل المفاهيم وتفردها

١-المشكلة والاشكالية: المشكلة تحتاج حلاً والاشكالية لاحل لها وتحتاج ادارة.

٢-انفصام الشخصية كمشكلة وكاشكالية، كل شخص لديه انفصام شخصية (له شخصيتان) وهذه اشكالية وعند المغالاة بها تصبح مشكلة أي مرض تحتاج علاجاً وادارة معاً.

العولمة والعالمية: العولمة ازالة للذات أو رضوخ للسائد عالمياً أما العالمية فهي تحديث وتطوير للذات حتى تصل الى مستوى السائد عالمياً. اي ان العولمة رضوخ و العالمية مشاركة.

٤ -السيطرة والهيمنة:

الهيمنة هي السيادة دون مقاومة المسود لتلك السيادة، ولذلك فالمهيمن من اسماء الله الحسنى، ويحاول الطغاة أن تكون سيادتهم هيمنة أي انعدام كل اشكال المقاومة حتى بالفكر او القول او العمل السلمي. اما السيطرة فهي سيادة غير مقبولة، و غالبا ما يقاومها المسود، ولذلك ليس المسيطر من اسماء الله الحسنى. وجاء في القران الكريم ما ينفي عن الرسول السيطرة «لست عليهم بمسيطر».

-المِلك: امتلاك المحسوس.

المُلك: امتلاك المحسوس ومالكه، و لذلك فان المُلك لله وحده.

الملكوت: امتلاك المحسوس وغير المحسوس ومالكهما، (ولله ملكوت السماوات و الارض)

- الادارة هي تنظيم العلاقة بين عوامل الانتاج، أو تنظيم العلاقة بين عناصر أو مكونات احد عوامل الانتاج، و تلك العلاقة هي التي تحدد النتائج (الادارة المستندة على النتائج - RBM). أي أن الادارة هي تنظيم علاقات العوامل أو مكونات العامل الواحد، تلك العلاقات التي تتحكم بالنتائج.

- الحرية والمسؤولية:

يعتقد البعض أن الحرية استبعاد للمسؤولية، ولكن الحقيقة أن الحرية موجبة للمسؤولية.

فالقانون العام في المنطق والعدالة، هو: «لا مسؤولية بدون حرية». أي هنالك ترابط بين الحقوق والواجبات، والحكمة المشهورة تقول: اذا اخذ ما وهب اسقط ما وجب. وفي الاشكالية بين كون الانسان مسيراً أم مخيراً، يناقش البعض أنه اذا كان الانسان مسيراً فلا تجوز محاسبته.

- التكديس والتراكم: التراكم الكمي يؤدي الى تغيير نوعي، اما نتائج التكديس فتبقى شكلية (اي

تغير في الشكل لا في النوع). فالتراكم عملية تجميع حيوية (نمو)، اي ان المنتوج الناتج عن الزيادة الاولى يكون مُدخَلا في عملية الزيادة الثانية وهكذا دواليك....

- الزيادة والنمو :

الزيادة : اضافة إجمالية، و غالبا ما تكون خارجية غير عضوية. أما النمو فهو اضافة لكل خلية (او مكوّن)، و هي داخلية وغالبا ما تكون عضوية.

- التعسف والطغيان:

التعسف هو سوء تطبيق القانون أي المبالغة بالعقوبة، و/أو الاكتفاء بالادلة الضعيفة في الادانة، و/أو ليّ عنق القانون ليدين المتهم، ويقع سوء استعمال الحق و سوء استغلال الصلاحيات ضمن التعسف.

أما الطغيان فهو تطبيق القوانين الظالمة كالقوانين التي سنتها وتسنها اسرائيل للتعامل مع الفلسطينيين سواء في «اسرائيل» أو في المناطق «المدارة» ، أو كالقوانين الرومانية الخاصة بالعبيد، أو القوانين الرأسمالية وخاصة في بدايتها حينما كان العاطل عن العمل يُسترقّ، وفي هذه الحالة لا يكون الالتزام بالقوانين فضيلة.

- الحقوق والاحتياجات: لا بد من الاشارة اولاً الى ان الحقوق مطلقة والواجبات نسبية أي أن الحقوق مقدمة على الواجبات، فالاولى مقدسة والثانية ضرورية. واسرائيل ترفض كل الحقوق الفلسطينية، وشعارهم انهم على استعداد أن يبحثوا احتياجاتنا مهما كبرت وليسوا على استعداد لبحث حقوقنا مهما صغرت. و هذه سياسة كل الانظمة العنصرية و انظمة الطغيان عموما.

- الاعلام والاعلان

الاعلام من أعلمَ، أي اخبر ولذلك لابد من الصدق أي يجوز اخفاء المساوئ واظهار المحاسن ولكن لا يجوز قول غير الحقيقة. ومن يقول غير الحقيقة يتحمل مسؤولية قوله.

الاعلان: من أعلن، أي نشر أو أشهر وبه يجوز التزويق، أو ما يمكن أن نسميه الكذب الابيض الذي لا يؤذي احداً. ومن يؤذي باعلانه احداً بشكل مباشر يتحمل مسؤولية قوله.

البعض يمارس الاعلام بأصول وقواعد الاعلان أي لا يلتزم بالحقيقة. وبذلك يصبح اعلامه غير فعال وغير مجدٍ .

أي منظومة قيم لحاضر ومستقبل بني البشر نحن بحاجة إليها اليوم؟

سهيل فرح *

نتأمل مليا ونحن نودع عاما جديدا من عمرنا في منظومة قيم الانسان الحضارية على امتداد كوكبنا، فلا نشعر الا بحالة من القلق الشديد على علاقتها بحاضرها ومستقبلها. وهذا ينطبق على ثلاثي منظومات القيم. المنظومة الليبرالية وكل متفرعات ما بعد الحداثة. المنظومة الاشتراكية الكلاسيكية وبعض مشتقاتها المعاصرة. المنظومة الدينية بكل تجلياتها من جماعة اهل الكتَاب ومن خارجها.

ولهذا القلق الوجودي مسبباته المادية والروحية الكثيرة التي تستدعي سيلان حبر غزير للاقتراب من ادراك مجمل مسبباته ونتائجه علها تشفي ولو قطرة من غليل الضرورات الملحة لملء البياض الذي لا ينتهي من صفحات يوميات الحياة... والمهم لا بل الجوهري في هذا السياق، هو محاولة الإجابة عن السؤال المصيري الذي يطرحه معظم بني الانسان القاطنين على هذا الكوكب المعذب والممثل بكلمتين مكررتين؟ إلى اين؟ ما مصيرنا؟

هذا السؤال الاصعب في حياة كل منا يستدعي بلا شك تضافر، لا بل استنفار كل الطاقات المفكرة لدى الليبراليين واليساريين وممثلي المؤسسات الدينية والعلمانية وكل الذوات المفكرة في العلوم الانسانية والطبيعية ومعهم كل طاقة إنسانية تتميز بالتفكير التحليلي النقدي من العامة والخاصة.. ولعل الجميع من اهل العدل والحكمة يطمح إلى التخلص من الخلايا الهرمة في المنظومات الاكسيولوجية الثلاث التي اتينا على ذكرها في البداية والعمل على تفعيل الدورة الإيجابية البناءة في كل منظومة باتجاه مد جسور عقلانية بين ايجابياتها.

---

* باحث وكاتب - لبنان

هذا يتطلب إشغال العقل الموسوعي النووسفيري الحكيم في خيارات حضارية امثل، علها ترجح الولوج في عصر الخيارات التفاؤلية لتكون بديلا حقيقيا لموجة خطابات " النهايات " التي يروج لها المتشائمون من حملة قيم المنظومات الثلاث: نهاية التاريخ، نهاية العالم، نهاية الله، نهاية معنى الحياة، نهاية الانسان.

وفِي هذا السياق لدي بعض الخواطر أو التأملات اردت من خلالها ان أتبادل الرأي والنصيحة حولها مع ثقافة عين القارئ المعني والمتتبع، واخص بالاشارة تحديدا أولئك الذين تراودهم ايضا نفس موجات القلق...

فِي البداية سأسعى وباختصار شديد جدا لتشخيص الداء المتواجد في المنطقة المعتمة لكل مجموعة متمركزة "انانية" منغلقة على نفسها. يحدوني من بعد ذلك أمل، وإن لم يكن مداه شديد التفاؤل، بان يستنفر اخيرا العقل الإنساني الخير كل طاقاته الإيجابية من اجل إيجاد الحلول التي تخرجه من دوامة القلق الوجودي وتدخله في تحديات جديدة لولادة بدائل حضارية اكثر عدلا ولنهج منظومة قيم اكثر جمالا واخلاقية ومحبة... سأسعى - وينتابني حذر شديد - لتقديم مجموعة تأملات تهدف للخوض في غمار لا بل مغامرة البحث والاستشراف في عالم يوم وغد هذه القيم. وألخصها باثني عشر.

الاول: يتوجب الاعتراف بان ضياع انسان اليوم في معظم اصقاع المعمورة مرده إلى فقدان بوصلة الأمان المادي والروحي على حاضره ومستقبله.

الثاني: وهو متصل عضويا بالأول، الإقرار بان فقدان بوصلة الأمان هذه سببها الاساسي هو شحّ العطاء الايجابي البنّاء التي لم تعد تؤمنه لبني البشر في الواقع لا المنظومة الليبرالية بموروثها الحداثوي الكلاسيكي والمعاصر ولا ما اصطلح على تسميته بعصر ما بعد الحداثة، وهذا ينطبق ايضا على حملة الخطابات الاشتراكية الكلاسيكية والمعاصرة، وعلى حماة النصوص والمؤسسات الدينية. هذه حقيقة لا يمكن ان تتعامى عنها أي بصيرة إنسانية عادلة.

الثالث: هذه الخلايا الهرمة التي فتكت في أفكار وسلوكيات هذه المنظومات الثلاث لا تبرر استمرار حفاظها و استمرارها للحرب الشاملة الهجومية او حتى الدفاعية التي تخوضها على اكثر من جبهة كل منظومة ضد زميلتها. فكل منظومة مهما ادعت بأنها تعمل من اجل ادخال الطمأنينة المادية والنفسية والعقلية وحتى الروحية لبني الجنس البشري الواحد على هذا الكوكب مدعية بان مفتاح بوصلة الحقيقة و الخلاص بيدها، والنتيجة الملموسة المرئية هي المزيد من استعار حدة الصراع العبثي-الجنوني بين المنتمين الى هذه المنظومة او تلك.

الرابع: ان رضوخ البشر للعبة الصراع الجهنمية التي يعتبرها الكثيرون بأنها أزلية لا بديل عنها بين مفاهيم او صور "الملاك والشيطان"، "الراسمالي والبروليتاري "، "الديموقراطي وغير الديموقراطي"، " العقلية الغربية والعقلية الشرقية"، "المتدين والعلماني"، وغيرها الكثير من "الثنائيات القاتلة"، تلك التي لا ترى إلا الأسود عند الاخر والأبيض عندها، كل هذه الثنائيات لا تؤدي إلا لتحصن صاحبها ضمن أسوار عقيدته ومنظومته الدوغماتية المغلقة الواحدة. وهي بهذا توصد ابواب الحوار العقلاني، وتهمش التواصل الإنساني الخلاق وتضع حواجز عالية منعا لتلاقي وتفاعل وتعاون مناطق التناضح الحضاري الخيرة والاستفادة من نقاط القوة عند كل طرف.

الخامس: ان خطر املاء النمط الاقتصادي والثقافي الواحد لدى (المعولمين الأقوياء)، يقابله خطر الخردقة في سراديب "الغيتوات" الضيقة للهويات القومية والثقافية والمذهبية. فكما ان مظاهر العتمة وضيق الرؤيا صاحبت وتصاحب كل انواع التوتاليتارية الشمولية للخطابات النيوليبرالية والشيوعية السابقة، كذلك يهيمن على حملة الهويات الضيقة ومعها المروجون للخطابات الدينية المطعمة بروح تبني "الحقائق المطلقة"، شبح المشاركة عن وعي او غير وعي بتلك اللعبة الجهنمية المغرقة في أوهامها المشحونة بكل انواع التعصب و المؤدية في ظل مناخ غياب الثقافة و الممارسة الروحانية المتسامية و الشاملة الى الركون لاسترخاء السكينة النفسية و الكسل الروحاني على مستوى مناخاتها الداخلي. فهي باطنيا و حتى سلوكيا لا تؤمن بظاهرة التنوع والتعدد والتمايز . وهي تعيد اختلاق أجواء تربوية و سلوكية داخلية لا تؤدي الا الى المزيد من الانغلاق على الذات ليس فقط الثقافية او الدينية بل ايضا المذهبية و الجهوية. و تؤدي عند البعض وهو ليس بالقليل ليس فقط لإقفال مرصد لباب التعايش السلمي – الإنساني معه بل الى إشعال الطاقات العصبية الغضبية الدموية لدى اتباعها... والجميع من حملة "الدوغماتيات المغلقة" على اختلاف مصادرهم و مسالكهم يشعلون مراجل الحطب التي تحرق الأخضر واليابس في اجساد ونفوس وارواح البشر.

السادس: ان غياب المقاربة الانتربولوجية العقلانية الهادئة ذات النزعة الانسانية المتكافئة لكل ما تفرزه الطاقة الفيزيولوجية والنفسية والعقلية والروحية بجوانب انتعاشها وهوانها هو الذي يخلق "الأنانيات – النرجسية السيئة" للأفراد و الجماعات ، و هو الذي يؤسس ل "الرؤى المركزية" الاحادية الجانب لكل طرف سواء حمل طابعا جغرافيا – حضاريا اوروبيا او غربيا، آسيويا او دينيا ، او حتى عقائديا حزبيا . فمن كل تلك المناخات النتنة المريضة تفوح كل موجات الاستعلاء الفارغ و التمييز والتي تدعي بتفوق او تدني هذا العرق او الثقافة او الحضارة او العقيدة الجيوسياسية او حتى الدينية والروحية ، و الكل يتعامى عن حقيقة انتربولوجية بشرية بسيطة عنوانها بأننا نحن بني الانسان الواحد...

السابع: لعل الجنس البشري ما زال في طور تغليب "الحيوانية الغرائزية" في افعاله على تمثل وتطبيق المشاريع الانسانية الخيرة للجميع... في مجمل سلوكياته تتحكم غريزة الصراع من أجل البقاء، ومن هنا نرى بان العقيدة الداروينية الاجتماعية هي السائدة وبها يتمثل بشكل فاقع المبدأ العبثي "البقاء للأقوى"... وهو- هو نفسه الذي يسكن بقوة في عقول صانعي السياسات والمجمعات العسكرية، وراسمي البرامج الجيوسياسية ووزارات الحرب والمال والصناعة، و لا نلمس هذا فقط عند الكبار على تباين مواقعهم ومواقفهم ، بل عند الصغار أيضا... من هنا نلمس التفريخ المتواصل لكل انواع المشاحنات والنزاعات والحروب التي تفتك بجسد و نفس الأكثرية الساحقة من سكان هذا الكوكب المعذب .

الثامن: لم تتوفر حتى اللحظة الحكمة الوجودية المرتكزة على الفلسفة الوسطية الذهبية التي تقر بان مساحات السلام والعدوانية، الانفتاح والانغلاق، النور والظلمة متواجدة، بنِسَب متفاوتة طبعا، لدى كل الناس. والتحدي عند الجميع يكمن بكيفية التغلب على كل فوران العدوان، وسجون الانغلاق وعتمات الظلمة. ولم تنجح اي محاولة دينية او دنيوية ايّا كان خطاب صاحبها ، ما لم يبدأها الانسان بنفسه، ما لم يشرّع كل اسارير عقله وقلبه وروحه لكل مجالات ورحاب السلام والحرية وحكمة كل المعارف و التجارب البناءة الإيجابية للأنا و الآخر الحضارية .

التاسع: كل الذي يجري معنا ومن حولنا لا يوحي الا بالمزيد من الدمار والقهر والظلم وإشعال كل انواع الحروب الاقتصادية والتجارية والإعلامية- النفسية والدينية. وبالتالي ضخ آلة الدمار بكل انواع القوة الرعناء للتقنيات العسكرية والسباق الجهنمي العبثي على التسلّح دون الاكتراث بأقدس مخلوقات الله على هذا الكوكب الفاقد توازنه ، دون الالتفات الى المنطقة الاكسيولوجية الاكثر خلودية في الشخصية الانسانية ، دون تشغيل منطقة الحوار العقلاني واستنفار الطاقات البناءة من اجل توسيع وتعميق إرادة الشراكة والتعاون الخلاق بين الحضارات.. وفي هذا المناخ الموتور غربا وشرقا تبدو الجماعة من امثالنا مهمشين- حالمين وكانهم منبوذون يأتون إلينا من كوكب آخر...

العاشر: لا ينهض عالمنا من كبوة أزماته العضوية الإيكولوجية والديموغرافية والمالية والجيوسياسية والقيموية – الاكسيولوجية ما لم يعلِ من شأن ثقافة الحوار والشراكة الفعلية المنتجة والبناءة والمفيدة في كل المجالات وعلى كل المستويات وبشكل متكافئ لجميع بني البشر بلا استثناء. ولا تفلح الحقائق العلمية ما لم تعتمد على المقاربة التكاملية العلمية البناءة والمنهجية التعددية وإدارة التنوع الثقافي بعين إنسانية شاملة.

الحادي عشر: تبقى اوركسترا حضارة الانسان المعاصر تعزف باصوات نشاز تؤذي ثقافة الأذن وتوسع من مساحة التصحر في الروح الإنسانية ، ما لم تشتغل كل مجموعة على نفسها من اجل اعلاء الجانب الاكسيولوجي والعقلاني و الإنساني العام في شخصيتها الذهنية والعملية . وأقصد بذلك المجموعات الست الاساسية للحضارات القائمة على القارات الخمس لكوكبنا وتحديدا الأوروبية و الاميركية، و الروسية – الأوراسية و الهند – صينية و الإسلامية و الاوقيانية.

الثاني عشر : البشرية امام خيارين لا ثالث لهما: إما الاستمرار والهلاك من خلال الانعاش الدائم للأمراض الفتاكة التي تفرزها الأنانيات المتنوعة المعاني و الممارسات المفرطة في نرجسيتها لدى الأفراد و الجماعات، تلك المتجذرة في ذهن وسلوك الحكام والمحكومين، لدى الأقوياء والضعفاء. وإما الخيار الذي يعطي أملا حقيقيا باستمرار الحضارة الانسانية العادلة على الارض من خلال يقظة العقل النووسفيري الحكيم الطامح على كل مستويات القول والفعل في كل مجالات الحياة إلى استنهاض واستمرار التربية اليومية للعقل والنفس والسلوك من أجل تمثل وتبني وتجسد القيم الانسانية والسماوية المشتركة واختصرها بثلاث : الحقيقة والخير والجمال.

الحقيقة التي يتقبلها الجميع تأتي من خلال حكمة العقل العلمي البناء والمنفتح على كل اسرار وانوار السماء. والخير يتمثل من خلال تبني وتمثل كل قيم الأخلاق المتسامية للبشر. والجمال، بالمعنى الدوستويوفسكي له، الذي لا يتمثل إلا من خلال العمل الدائم على مستوى الفرد والجماعة لتكون ثقافة اللسان ودفء عاطفة القلب ومحبته وأرجحية حكمة العقل حاضرة دائما بدءا من ادق تفاصل يومياتنا وحتى اتخاذ اكثر القرارات مصيرية في حياتنا.

كل عام وأنت، أيها القارئ العزيز، منشغلٌ معنا في ورشة بناء حضارة العدل والمحبة والسلام.

عن سياسات الهوية والقومية
في فيلم «الهوراي بومدين.. ثائر يبني دولة»

أحمد عز الدين أسعد*

ملخص

انشغلت هذه الورقة في تحليل فيلم «الهوراي بومدين.. ثائر يبني دولة» في ضوء نظريات القومية وسياسات الهوية، والفيلم هو من إنتاج شركة الجزيرة الوثائقية، وهو مكون من جزئين، ومدته ما يقارب الساعتين. تجري الحوارات التوثيقية في متن الفيلم مع سياسيين وعسكريين جزائريين، سياسيين عرب، سياسيين فرنسيين، مؤرخين جزائريين وفرنسيين وعرب، وعلماء اجتماع جزائريين وفرنسيين وعرب. يحكي الفيلم رواية تاريخية وسياسية وعسكرية لرئيس الجمهورية الجزائرية هوراي بومدين، من فترة طفولته، انخراطه في الثورة الجزائرية، قيادته هيئة أركان جيش التحرير، توليه وزارة الدفاع بعد الاستقلال، توليه رئاسة الجمهورية الجزائرية، ومن خلال سيرة بومدين يروي لنا الفيلم الرواية القومية الجزائرية، ويبين لنا مركبات الهوية الجزائرية وتجاذباتها، وطبيعة المجتمع الجزائري وبنياته الاجتماعية والثقافية والسياسية. وفي ضوء قراءة الفيلم ضمن سياقات القومية العربية وسياسات الهوية يمكن الاستنتاج أن الفيلم قد أبدع في التأكيد على عروبة وقومية الجزائر، ونجح في تبيان الرواية الهوياتية الجزائرية من زوايا متعددة في ضوء التنوع والتعدد الذي يكوّن المجتمع الجزائري.

* باحث في الدراسات العربية والإسرائيلية، فلسطين

الكلمات المفتاحية

هوراي بومدين، الهوية الجزائرية، الجمهورية الجزائرية، الثورة الجزائرية، المجتمع الجزائري، الجزيرة الوثائقية، سياسات الذاكرة، الاستعمار وحركات التحرر الوطني، العرب والبربر، والقومية العربية.

أولًا. مقدمات تأطيرية حول الهوية الجزائرية

١. المكونات الكلاسيكية للهوية الوطنية

تتمثل المركبات الأساسية لأي هوية في (الأرض، الناس، والحكاية)، وكذلك هو الحال في الهوية الجزائرية؛ فهي تتألف من الحدود الجغرافية أي الأرض، والجزائر كجغرافيا تقع في شمال أفريقيا، وعاصمتها مدينة الجزائر، وتقع العاصمة في شمال البلاد، وتبلغ المساحة الإجمالية للجمهورية الجزائرية ٢٣٨١٧٤١ كم مربع، وهي عاشر أكبر دولة في العالم، والأولى عربيًا وأفريقيًا، والثانية إسلاميًا، تطل شمالًا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتحدها من الشمال الشرقي تونس، وشرقًا ليبيا، وغربًا المغرب، ومن الجنوب الغربي الصحراء الغربية وموريتانيا ومالي، ومن الجنوب النيجر. ووفق الإحصاء الرسمي الجزائري تتألف الجزائر من ٤٨ ولاية، وكل ولاية تحوي عدداً من الدوائر والبلديات ومجموع الدوائر وفق الإحصاء الرسمي ٥٤٧، أما البلديات فمجموعها ١٥٤١,[١]

بينما أشارت التقديرات الإحصائية الرسمية إلى إجمالي عدد السكان الجزائريين المقيمين فيها في عام ٢٠١٥ إلى ما يقارب ٣٩٩٦٣٠٠٠ نسمة.[٢] أما اصل سكان الجزائر فهم الأمازيغ الطوراق، وهاجرت إليها القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية مثل (بنو هلال وبنو سليم)، ويدين ما نسبته ٩٩٪ من السكان بالدين الإسلامي، وهناك أقلية يهودية ومسيحية في الجزائر.

أما بخصوص مركب الحكاية في الهوية الجزائرية فيتمثل في أن الجزائر تلقب ببلد المليون ونصف المليون شهيد؛ نسبة لعدد شهداء ثورة التحرير الوطني، التي دامت سبع سنوات ونصف السنة. ويصف الدستور الجزائري الإسلام والعروبة والأمازيغية المكونات الأساسية للهوية الجزائرية. ويرى عز الدين الصحراوي بأن اللغة العربية كانت من أبرز مكونات الشخصية الجزائرية الوطنية، وحافظ المجتمع الجزائري على عروبته ولغته داعيًا إلى اعتبارها لغة رسمية في المدارس والإدارة. وبقي المجتمع الجزائري متمسكًا بها بفظل المساجد والزوايا؛ التي أدت دورًا مميزًا في تعليم اللغة العربية للناشئة، وعمقت الحس الوطني من خلال تلك المؤسسات التي شكلت مراكز تعليمية وشبه مدارس.[٣]

كما يستنتج مولاي نكاع في دراسته الموسومة «ملامح الهوية في السينما الجزائرية» بأن للدين الإسلامي وتعاليمه ثقلاً في ترسيم ملامح الهوية الجزائرية واصطباغها بطابع الدين الإسلامي.[٤] ويضيف أن الشعب الجزائري متعدد اللغات لكن اللغة العربية هي السائدة والرسمية حسب دساتير الأمة، وهي لغة الإدارة والإبداع والتخاطب. أما الأمازيغية فهي لغة تم اعتمادها كلغة وطنية في فترة حديثة. ولا يمكن تجاهل أو التغاضي عن اللغة العامية الأكثر انتشارًا وتداولًا في الاوساط الاجتماعية، وتعتبر اللغة العامية سليلة اللغة العربية، رغم المفردات المقترضة والدخيلة إليها من اللغات الأخرى كالفرنسية والإسبانية والتركية، والتي دخلت إلى المعجم الجزائري بفعل الاحتكاك مع تلك اللغات والأقوام، ويتواصل الجزائريون بهذه اللغة العربية غير الفصيحة بنسبة ٩٥٪.[٥] كما يعتبر التاريخ مقوماً من مقومات الهوية الجزائرية بالرغم من انضواء الشعب الجزائري تحت مسمى الهوية العربية الإسلامية؛ باعتبارها هوية الأمة جمعاء، إلا أن التاريخ المغربي في منطقة شمال إفريقيا قد حدد خصوصية هوياتية للشعب الجزائري.[٦] ويقول هوراي بومدين «لا مجال للمقارنة والمفاضلة بين اللغة العربية وأي لغة أجنبية أخرى فرنسية أو إنجليزية، لأن الفرنسية كانت وستبقى مثلما بقيت في ظل الاستعمار لغة أجنبية لا لغة الجماهير الشعبية.»[٧]

لقد شكلت الدولة في الجزائر القطاع الدولاني الواسع في ترسيم الهوية الجزائرية ويشير لياس بوكراع إلى دورها الوسيطي في كل الميادين الاجتماعية (ثقافة، إعلام، رياضة، صحة، تعليم، بحث علمي، دين، تجارة، نقل.. إلخ) فالدولة تستملك كل المجالات الاجتماعية، ومنذ عام ١٩٦٧ تفرض الدولة نفسها بوصفها المرجع الأساسي لتراكم رأس المال.[٨]

٢. اثر التقسيمات الاستعمارية في ظهور الدولة القومية

هناك تصور قومي جزائري بأن العمق التاريخي للمجتمع الجزائري يمتد من العهد النوميدي إلى الفتح الإسلامي، وظهرت الدولة الرستمية كدولة أولى وبعدها الحمادية والزيدانية، ودخلت الجزائر عهوداً جديدة تحت الحكم العثماني. وترجع بدايات ظهور الوعي القومي مع حقبة الاستعمار الفرنسي، وقد تأسست الدولة الجزائرية الحديثة في عهد الأمير عبد القادر، وقد تحرر الجزائريون بفعل المحافظة على مقومات الهوية الجزائرية: الإسلام، اللغة العربية، والبعد الأمازيغي، إلى جانب خوض حرب التحرير الجزائرية التي أرخت لهوية جزائرية كتبت بدماء الشهداء. وقد ساهم الانخراط في الحياة الثقافية والسياسية الفرنسية في بروز وعي وطني أسس لفعل ثوري بخصوصية

جزائرية مغاربية عربية إسلامية.[٩]

كما يجادل إدموند بيرك الثالث أن بعد الحرب العالمية الأولى أصبح من الصعب على فرنسا إبقاء هيمنتها على شمال أفريقيا استعماريًا؛ نتيجت التناقضات في النظام الاستعماري الذي منح امتيازات للمستعمِرين وسحق مجتمع المستعمَرين، وأدى هذا التناقض والتميز إلى بروز تأريخ وطني متميز في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين كرد على التاريخ الرسمي الاستعماري المهيمن، وظهرت في الخمسينات والستينات من نفس القرن حركات التحرير الوطنية القوية، التي دافعت عن تاريخ شمال أفريقيا ووصلت ذروتها بالثورة الجزائرية.[١٠]

٣. أنماط السلطة السياسية

عملت الجمهورية الجزائرية على ترسيم حدودها بعدد من الأشكال، منها الاتفاقيات ومعاهدات التعاون البينية، فقد خاضت الجزائر حربًا مع المملكة المغربية سنة ١٩٦٣ على حدود برية، لكنها أبرمت اتفاقيات لحلها من اجل ضمان حسن الجوار الإيجابي. وبالرغم من محاولة الجزائر ضبط إشكاليات الحدود إلا أنها ما زالت تعاني أزمة في ذلك من قبيل الهجرات غير النظامية والجريمة المنظمة والارهاب العابر للحدود. وما زالت تعاني من إشكالية حدودية مع المملكة المغربية والحدود مغلقة منذ أكثر من ٢٠ عاماً.[١١]

في حين تنطلق الرواية الجزائرية عن الحدود خصوصًا الإشكالية الحدودية مع المملكة المغربية، من مبدأ الحق الموروث عن الاستعمار وهو يعود في الأصل إلى منطق القانون الروماني بمعنى ما تملكه تستمر في امتلاكه، وهذا التصور قد تمسكت به الجزائر ودافعت عنه بقوة قبل تأسيس منظمة الوحدة الأفريقية، وكان دفاع الجزائر عن هذا المبدأ الاستعماري هو دفاع عن الدولة الجزائرية ووحدتها الجغرافية.[١٢] في حين بين ميثاق الجزائر ١٩٦٤ أن كل أدوات الدولة القائمة باستثناء جيش التحرير الوطني تشكل إرثًا استعماريًا.[١٣]

كما يشير بوكراع إلى أنه في «سنة ١٩٦٢، مدد النظام الجزائري، العمل بالإرث الذي تركه الاستعمار، دفعة واحدة. وقد ظل الجهاز الإداري الفرنسي قائمًا، إذ أنه لم يتم تدميره ولا استبداله، مجرد التمديد له. وإن قانون كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٢ قد مهد العمل، جملة وتفصيلًا، حتى إشعار آخر بالتشريع الفرنسي الذي كان قائمًا قبل الاستقلال، ما عدا بعض النصوص التي كانت تصطدم بالسيادة الوطنية أو الكرامة الوطنية. وهكذا، فإن البنى السياسية – الإدارية الجزائرية شكلت، من حيث الأساس، استمراراً للبنى الموروثة من الفترة الاستعمارية.»[١٤]

٤. ماهية البنى الاجتماعية

يلخص بوكراع إرث القرن والنصف من الاستعمار وأثره على المجتمع الجزائري بثلاث عواقب اجتماعية ويسميها الافتقار الاجتماعي، وهي: ضعف البرجوازية الجزائرية، وقوة نسبية للبرجوازية الصغيرة والمتوسطة، وصغر حجم الطبقة العاملة بالمقارنة مع كتلة العمال الناقصة.[١٥] والأمازيغ أربع مجموعات وهم: بربر القبائل، بربر الشاوية، بربر مزاب، وبربر الطوارق. في حين لا تتجاوز نسبة اتباع الدين المسيحي في الجزائر ٠,٤٪ من الكاثوليك والبروتستانت.[١٦] كما واجه المجتمع الجزائري أزمة الهوية نظرًا لانقسامه بين اتجاهات مختلفة، فالبعض تمسك بالاتجاه العروبي، وأخر يرى في الإسلام بديلًا ومحققًا للتوازن في الشخصية القومية، في حين ارتبط آخرون بالهوية الأفريقية البربرية.[١٧]

٥. سياسات الذاكرة والنسيان

في تعليق عبد السلام بنعبد العال على زيارة الرئيس الفرنسي السابق نيكولا سركوزي للجزائر وإحباطه من تاريخ فرنسا الاستعماري، ورغم ذلك التاريخ الاستعماري، لم يعتذر الرئيس الفرنسي، ويقول بنعبد العال «قد سبق لمانديلا أن صرح ذات مرة: (نعم للصفح، لا للنسيان). إن تكاثر مشاهد التوبة والصفح المطلوب اليوم يدلان على حاجة مستعجلة لهذه الذاكرة، وعلى الرغبة في التوجه الصريح نحو الماضي. على هذا النحو، فإن الصفح فعالية متواصلة تعمل ضد المؤسسة التي تنزع بطبيعتها إلى «تدبير النسيان»، وأحيانًا تحت غطاء الاحتفال بالبدايات والتسامي بها و»تخليدها» المتواتر الذي يجعل الواقعة مجرد «يوم ذكرى». لكن، لا ينبغي أن ننسى أن ذلك لا يتم إلا بانتزاعها من التاريخ الفعلي وتكريس نسيانها بـ»الارتقاء» بها نحو زمن الأسطورة الذي يحيا الوهم الأبدي للاستعادات المتكررة.»[١٨]

كما يجادل الزواوي بغوره بقوله «يقوم التاريخ بنوع من التصحيح الدائم للحقيقة كما تظهر في الذاكرة.»[١٩] ووفق منطق رضوان زيادة يتم إحياء الذكرى عن طريق أي حدث أو واقعة أو بناء يستخدم بمثابة آلية للتذكر. ويمكن أن يتم إحياء الذكرى بشكل رسمي (مثل إقامة نصب تذكاري)، أو غير رسمي (مثل بناء جدارية في مجتمع محلي)، رسميًا من طرف الدولة أو تلقائيًا من طرف المواطنين. ويسعى الناس إلى إحياء ذكرى أحداث الماضي لأسباب عديدة، منها الرغبة في استحضار ذكرى الضحايا و/أو التعرف عليهم، أو تعريف الناس بماضيهم، أو زيادة وعي المجتمع، أو دعم أو تعديل رواية تاريخية، أو تشجيع تبني الاحتفال بالذكرى/ أو عملية العدالة الانتقالية.»[٢٠]

كما يلخص صالح فيلالي السياسة الثقافية في عهد بومدين على المستويين النظري والعملي في ما يلي: «على المستوى النظري تم تحديد المبادئ التالية: نشر التعليم في كامل التراب الوطني، ديمقراطية التعليم ومجانيته، استرجاع الثقافة الوطنية، إصلاح التعليم، تعريب الإدارة، وأخيرًا الكفاح ضد التبعية الثقافية. على مستوى الممارسة الايديولوجية من الممكن القول أن المبادئ المتعلقة بنشر التعليم ومجانيته وديمقراطيته في جميع المستويات، وكذا إصلاح البرامج التربوية، قد تم تطبيقها بنجاح.»[٢١]

ثانيًا. وصف الفيلم

١.المعلومات الببلوغرافية

العنوان: هوراي بومدين.. ثائر يبني دولة.

رابط المنتج القومي: الجزئين

https://www.youtube.com/watch?v=xJ59vxjW7Nk

https://www.youtube.com/watch?v=bncRPM-AwJM

سنة الإنتاج: ٢٠١٣.

الجهة المنتجية: الجزيرة الوثائقية.

اسماء المخرجين أبرز الممثلين: فتحي جوادي، صالح الوسلاتي.

القائمون على العمل؛ والممولون: شبكة الجزيرة الوثائقية.

٢. السيناريو والبحث التاريخي والخط الحكائي في الفيلم الوثائقي

الباحثون غير معروفين في السيناريو التاريخي، لكن أدار الحوارات صالح الوسلاتي، يجمع الفيلم رواية شخصية وسياسية وعسكرية لهوراري بومدين ومن خلال الرواية الشخصية والسياسية والبحث التاريخي لحياة بومدين تم القاء الضوء على حالة المجتمع الجزائري قبل ثورة التحرير وبعدها، وتبين طبيعة المجتمع الجزائري ومكوناته البشرية والتاريخية والثقافية وغيرها. يبدأ الفيلم بخط حكائي يبين مشاهد العنف التي وقعت في الجزائر قبل انطلاق الثورة الجزائرية بوقت قصير، ويعرج على حرب ١٩٦٧ ثم يبدأ بسيرة حياة بومدين على الحدود المغربية الجزائرية، ويستمر بعد انتصار الثورة الجزائرية، وتنصيب أحمد بن بيلّا رئيسًا للجمهورية الجزائرية، ويبين

المواقع القيادية التي تولاها بو مدين قائد أركان جيش التحرير الجزائري قبل الاستقلال، ووزير الدفاع بعد الاستقلال، ثم رئيسًا للجمهورية الجزائرية، ويبين الخط الحكائي سياسات بومدين في التعريب والتأميم وبناء الدولة الجزائرية وهويتها، وينتهي بسؤال من قتل هوراي بومدين.

ثالثًا. تحليل فيلم «هوراي بومدين.. ثائر يبني دولة»

١. التأطير التأريخي للفيلم: من حياة بومدين ١٩٣٢- ١٩٧٨

يبدأ الفيلم بمقدمة وثائقية، تعرض لقطات ومشاهد وثائقية لاندلاع وانطلاق الثورة الجزائرية في ١ نوفمبر ١٩٥٤، ومشاهد لانتصار الثورة الجزائرية في ٥ جويلية ١٩٦٢، ومشاهد من خطاب بومدين أثر الحرب العربية- الإسرائيلية في ٥ جوان/ حزيران ١٩٦٧ ليقول «للأمة العربية وشعوبها أن الجزائر ترفض الهزيمة»، ويوظف الفيلم مشاهد وخطابات من تأميم النفط والغاز في الجزائر من الشركات الفرنسية. ويبدأ الفيلم في الجزء الأول من النهاية في بداية الفيلم، يبدأ الفيلم بنهاية الشخصية المركزية في الفيلم؛ بموت هوراي بومدين رئيس الجمهورية الجزائرية، ويظهر نعش بومدين مغطى بالعلم الجزائري، ويحضر مراسم وداع وتأبين بومدين عدد كبير من المسؤولين الجزائريين، ويرثي عبد العزيز بوتفليقة (وزير الخارجية آنذاك، ثم رئيس الجمهورية الجزائرية) بومدين بكلمات تعبر عن سمات الراحل بومدين وشخصيته، ويقول فيه «وداعًا يا هوراري بومدين يا من علمتنا كيف يموت الإنسان العظيم في صمت ووقار، وكيف يحترق إلى النهاية ليبدد الظلام.» وهذه المشاهد الأولية في الفيلم تبين مركزية بومدين في بناء الدولة الجزائرية، وتثبيت هويتها كدولة عربية لغتها الرسمية اللغة العربية، ودولة عربية تحررية تساند الدول العربية في حربها ضد أعدائها.

كما يبين الفيلم ارتباط حياة بومدين بتاريخ الجزائر لفترة طويلة من الزمن، وتظهر تلك العلاقة التي بدأت بين بومدين والجزائر من خلال الثورة التحريرية الجزائرية، ويورد الفيلم شهادة تبين ما قاله عبد الحفيظ بوصوف (رئيس المخابرات الجزائرية أثناء الثورة) عن بومدين، فقال بوصوف «هذا الرجل فيه شيء ما.. ذكاء خارق.» وهذا ما اكسب بومدين لاحقًا موقعية قيادية في جيش التحرير الجزائري، لقد التحق بومدين بالثورة على الحدود الجزائرية المغربية وترقى في الجيش، ونال ثقة بوضياف وأصبح بومدين رئيس أركان جيش التحرير الجزائري على الحدود التونسية، ومع حلول عام ١٩٦٢ كان عل رأس جيش قوامه ٢٠ ألف جندي. لقد وصف بومدين بأنه «كان إنسانًا جافًا.. هادئًا.. ذكيًا.. له ذاكرة خارقة للعادة، يستمع دون أن يعلق ولكنه يدرك جيدًا

أهدافه.» وهنا يضيء الفيلم من خلال الحديث عن حياة بومدين التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي للجزائر من خلال تتبع سيرة حياة بومدين التي تتقاطع مع مسيرة حركة التحرر الجزائري والدولة الجزائرية.

إلى جانب ذلك؛ يروي الفيلم قصة تفجر الثورة الجزائرية، فمعركة سطيف في ٨ مايو ١٩٤٥ نشبت على اثر الاحتفال بانتصار فرنسا في الحرب العالمية الثانية، فلم يرق لفرنسا رؤية العلم الجزائري مرفوعًا إلى جانب العلم الفرنسي، وراح ضحية مجزرة سطيف ١٥-٥٠ ألف مواطن جزائري حسب الرواية الفرنسية. وكانت هذه حادثة فاصلة في تاريخ الجزائر، حفزت الجزائريين على الثورة، والتمرد على الاستعمار الفرنسي. وفي عام ١٩٥٠ استدعت فرنسا بومدين للخدمة العسكرية حسب المادة ١٠٩ من الدستور الفرنسي، حيث كانت تعتبر أرض الجزائر ومستعمرات فرنسية أخرى أرضاً فرنسية، وهرب بومدين إلى تونس وحاول الإلتحاق بجامعة الزيتونة؛ لكنه لم ينجح في ذلك، وذهب إلى مصر، وهناك تم تدريبه مع شبان جزائريين آخرين من طرف الجيش المصري، وكان له دور في تزويد الثورة الجزائرية بالأسلحة. وفي تجربة بومدين هذه يمكن تقديم رواية عن تاريخ الجزائر العسكري والسياسي والاجتماعي وعلاقاتها مع محيطها العربي، وخصوصًا العلاقة مع تونس والمغرب وليبيا ومصر، كدول دعمت الثورة الجزائرية واحتضنت قياداتها ودربت مقاتلي جيش التحرير الجزائري.

يشير الفيلم إلى تزايد الحديث عن بومدين منذ سنة ١٩٦٢؛ أي منذ توقيع اتفاقية إيفيان بين جبهة التحرير الجزائرية وفرنسا، فقد نقد بومدين اتفاقية إيفيان وتحفظ على الجوانب الثقافية حول اللغة العربية ومكانتها في الاتفاقية، ووصف الاتفاقية بأنها لا تحقق طموح الجزائريين. في حين دعم بومدين، في مؤتمر طرابلس يونيو ١٩٦٢ أحمد بن بيلّا لرئاسة الجمهورية الجزائرية، وقد خطب في المؤتمر بن بيلّا، وكان خطابه في غاية التعقيد، وخلط بين التوجه الاشتراكي والعروبة والإسلام. ونشأ تحالف بين بن بيلّا وبومدين أفضى إلى تسلم الأخير وزارة الدفاع الجزائري، ثم أسس بومدين جيشاً عصرياً.

٢. التأطير السياسي: نهج السياسات الوطنية والقومية

يلقي الفيلم الضوء على عدد من التأطيرات السياسية الجزائرية التي انشغل بها بومدين وأهمها: ثورة التحرير الجزائرية واستقلال الجمهورية الجزائرية، والتنمية والتحديث وتعريب الجزائر، تأميم النفط الجزائري، تدعيم منظمة عدم الإنحياز، المساهمة في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية،

وتبني سياسات ضد التطبيع ودعم المقاومة الفلسطينية والعربية.

يبين الفيلم أسباب الثورة الجزائرية المباشرة مثل مجزرة سطيف، ويشير إلى عنف الاستعمار الفرنسي ضد الجزائر والجزائريين. كما يلقي الفيلم نظرة على تحولات الحكم في فرنسا وصعود ديغول إلى الحكم وكيف خاض حرباً قوية ضد الثورة الجزائرية؛ لكنه فشل في تدمير المقاومة الجزائرية. في حين يركز الفيلم في تأطيره السياسي على شخص بومدين ودوره السياسي والعسكري في الثورة ثم في عملية بناء الدولة الجزائرية في مرحلة ما بعد الثورة، يلقي الفيلم الضوء على طبيعة الخلافات السياسية والعملياتية والدولاتية بين أركان الثورة الجزائرية المركزيين، فالفيلم من خلال تقديم رواية بومدين يشير إلى ممارسات واحداث مركزية أخرى في التاريخ الجزائري.

كما يبين الفيلم أن تفرد بن بيلّا في الحكم والسلطة، أدت تلك السياسية إلى انقلاب بومدين عليه، ويركز على استقلال الهوية والشخصية الجزائرية من خلال رفض طلب المصريين بتسلم بن بيلّا وتسكينه في مصر، فطلبوا من بومدين أن يعيش بن بيلّا في مصر لكن بومدين، رفض وقال أن بن بيلّا عزل بقرار جزائري ويحاكم وفق القانون الجزائري، وقد أرسل الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر (المشير عامر) من اجل عدم تنفيذ حكم الإعدام على بن بيلّا واعتبر بومدين ذلك تدخلًا في الشؤون الداخلية الجزائرية.

سعى بومدين لبناء جزائر جديدة، وارتكزت الثورة التحديثية للجزائر وفق منطق بومدين على ثلاث جوانب الثورة الصناعية والثورة الزراعية والثورة الثقافية. كما انخرط بومدين في القضايا العربية والأفريقية وقضايا الجنوب والعالم الثالث. وساند الدول العربية في حرب ١٩٦٧ وخطب قائلًا «الجزائر تعبئ جميع جهودها وإمكانياتها الحربية من اجل معركة الشرف والمصير. إنكم تحملون مجد ثورة نوفمبر فإما أن تنتصروا أو تستشهدوا.» وفي اعقاب حرب ١٩٦٧ دعا بومدين لحل عسكري للقضية الفلسطينية وهذا جعل إسرائيل تتابع جماعات المعارضة لبومدين من اجل دعم مشروع الإطاحة ببومدين. وإلى جانب النشاط السياسي الثوري لبومدين خاض نشاطًا ثوريًا اقتصاديًا فعمل بقوة على انجاز سياسة تأميم النفط والغاز. وفي حادثة مقتل شخص جزائري في فرنسا، أوقف بومدين الهجرة للعمل في فرنسا، ليعطي موقفًا سياسيًا جريئًا، من اجل تأمين ظروف عمل مناسبة وكريمة للجزائريين في فرنسا. ويمكن إيجاز سياسة بومدين بمعاداة الإمبرياليات العالمية، وقد قاد منظمة الوحدة الأفريقية، ودعم حركات التحرر في أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية، وعمل على تقارب بين الدول العربية والأفريقية وحثها على الاعتراف بمنظمة التحرير واعتبار الابرتهايد والاستعمار الإسرائيلي عملة واحدة بوجهين. وسطر بومدين مقولة سياسية تاريخية بقوله»نحن مع فلسطين ظالمة ومظلومة.» وأرسل دفعة أسلحة كبيرة لمنظمة التحرير الفلسطينية -حمولة طائرة

كاملة-، واستخدم البترول كسلاح سياسي على اثر حرب ١٩٧٣. وطرح بومدين فكرة سياسية جديدة أن الصراع ليس شرق غرب إنما شمال جنوب وقال أن النظام الاقتصادي العالمي غير عادل وطالب بنظام اقتصادي عادل في خطاب له في الأمم المتحدة في أبريل ١٩٧٤. وفي محاولات بومدين رفض التسوية السلمية العربية مع الكيان الصهيوني، أسهم في تأسيس وقيادة جبهة الصمود والتصدي التي رفضت فكرة توقيع اتفاقية سلام بين جمهورية مصر العربية والكيان الصهيوني. أما بخصوص العلاقة مع المملكة المغربية، فكانت العلاقة إبان الثورة جيدة، وبعد الاستقلال برزت مشكلة الحدود التي رسمها الاستعمار الفرنسي، وبرزت فكرة احترام حدود الاستعمار في المشاورات الأفريقية البينية لأن تعديل الحدود يؤدي إلى حروب مدمرة.

٣. التأطير الثقافي: سياسات التعريب والوطننة

ورد في الفيلم أن والد بومدين هو عربي جزائري، وأمه بربرية جزائرية؛ وهذه التركيبة الاجتماعية جعلت بومدين يقول عن نفسه لمراسل صحافي فرنسي؛ أن بومدين بشخصه يجسد الشعبين (العرب، والبربر) وهما الشعبان اللذان يكونان الجزائر. كما يشير الفيلم أن اسم بومدين الحقيقي محمد بوخروبة وقد ولد في منطقة قالمه.

يبرز الفيلم عدداً من الأمور التي تبين التأطير الثقافي للهوية الجزائرية ومنها على سبيل المثال لا الحصر: تظهر لافتة كتب عليها اسم شارع وهو «شارع جيش التحرير الوطني»، وشارع آخر كتب على لافتته «شارع الشهداء»؛ وتدلل اسماء هذه الشوارع أن الدولة الجزائرية اتبعت سياسات احياء الذاكرة وتخليدها؛ بتسمية الشوارع باسماء فواعل ثورية مثل جيش التحرير وباسماء الشهداء. كما تظهر في الفيلم جدارية كبيرة لبومدين مبنية من الحجر في إحدى المدن الجزائرية، والجداريات تبنى من اجل تخليد الذاكرة وصناعة سياسات ذاكرة بشكل مرئي وبصري دائم. كما حث بومدين على عقد ملتقيات دينية تخص الدين الإسلامي كل سنة وعمل على تحديد يوم الجمعة يوم عطلة رسمي بدل يوم الأحد، ووضع حجر أساس للجامعة الإسلامية للأمير عبد القادر في قسنطينة. أيضًا؛ طبق سياسة التعريب وكان يحث جميع الوزراء على التعريب في مؤسساتهم، وكان بومدين يرى أن الهوية الجزائرية قد مست، وأنه لا بد من إعادة تركيز الهوية العربية الإسلامية، وسعى إلى تحقيق استقرار ثقافي للجزائر وعدم الاعتماد على فرنسا، وقال بومدين أن «الطموح ليس التعريب بل استرجاع اللغة وتطويرها حتى لا تبقى لغة الشعر والغراميات.»

لكن يبين الفيلم خلافاً وقع بين مركبات أساسية من الثورة الجزائرية أيضًا خلاف داخل مركبات

الدولة مع بومدين، كون بومدين اعتمد وهو وزير الدفاع على ضباط قادمين وفارين من الجيش الفرنسي، وكان هناك انتقادات على هذه السياسة وتمت المطالبة بتنحيتهم ومنح الضباط الدارسين في الشرق وباللغة العربية من اجل قيادة الجيش، وأدت هذه الأمور إلى اقصاء المعارضين لسياسية بومدين، وعمل بومدين على تعريب الجيش فيما بعد. كما دعم بومدين بناء قوة من الطلبة الجامعيين كقوة عسكرية وثقافية ودعم انجاح الثورة الزراعية.

٤. تقاطع الفيلم مع مركبات الهوية

يتقاطع الفيلم بشكل مركب مع تنظيرات الهوية وعناصرها الأساسية (الأرض، الناس، الحكاية)، ففي الفيلم عدد كبير من المشاهد والمقاطع والشهادات والإشارات إلى تلك المركبات من حيث وصف للجزائر كأرض تم استعمارها من قبل الاستعمار الفرنسي، واعتبرت الجزائر ولاية فرنسية أي أرضاً فرنسية، وأظهر الفيلم كيف عملت الحركة الثورية الجزائرية على تحرير الأرض الجزائرية، وعملها على صيانة الحكاية/ الرواية الوطنية الجزائرية، كما اشترك في الثورة غالبية المكون السكاني الجزائري من العرب والبربر ومناطق القبائل في ثورة التحرير، وهذه النقاط يبينها الفيلم وأن أعضاء من قيادة جبهة التحرير الجزائرية هم من البربر.

في حين يتقاطع جزء من الفيلم مع هوية الثقافة العربية وتجاذبات العروبة والإسلام، ويتجلى هذا التقاطع في السياسات التي حاول أحمد بن بيلّا تبنيها في عملية بناء الدولة الجزائرية وبناء الهوية الجزائرية، من خلال محاولته المزج بين البعد العربي الإسلامي مع توجه اشتراكي، لكن هذا التوجه لم ينجح بن بيلّا في تحقيقه، لكن قاد بومدين حركة تعريب وإعادة بعث للغة العربية لتأكيد الطابع العروبي للجزائر كدولة عربية تدين بالدين الإسلامي، وهذا ما أشار إليه الدستور الجزائري.

كما يظهر تقاطع الفيلم مع سياسات الذاكرة وسياسات بناء الهوية الوطنية الجزائرية من خلال اظهار اسماء بعض الشوارع في الجزائر المسمية باسماء وطنية جزائرية، واظهر جدارية وطنية لها علاقة برموز الجزائر الثورة (جدارية بومدين) وهذه الجدارية تؤكد على مركزية بومدين في تثبيت الهوية الجزائرية، كما ضمن الفيلم النشيد الوطني الجزائري في الفيلم وهو نشيد يعبر عن ملحمية الهوية الجزائرية الثورية، أيضا تمت الإشارة إلى قضايا أساسية في تحقيق نهوض ثقافي وسياسي واقتصادي وتنموي ببعد تحرري ثوري ورفض التدخلات الخارجية حتى لو كانت عربية.

خلاصة: الوطنية وسياسات الهوية الجزائرية

من خلال الفيلم يبرز أن هناك دوراً مركزياً للدولة الجزائرية في إرساء أسس الهوية الجزائرية، وذلك من خلال تبني أجهزة الدولة الايديولوجية والعنفية سياسات وطنية جزائرية من اجل بناء الهوية الوطنية الجزائرية المستقلة. وقد تجلت سياسات الهوية في الفيلم في عدد من الأمور أهمها: رفض التبعية السياسية والاستقلال السياسي، تأميم النفط الجزائري الذي ساهم في نهوض الجزائر اقتصاديًا، اتباع سياسات التعريب في أجهزة الدولة المختلفة واستعادة اللغة العربية كلغة رسمية في الجزائر، دعم التعليم، تعميم ثقافة جزائرية جامعة بأبعادها العربية الإسلامية، وتحديد يوم الجمعة كعطلة رسمية بدل يوم الأحد.

كما تبنت الجزائر نهجاً هوياتياً مقاوماً وداعماً لحركات التحرر الوطني في العالم ولاسيما في العالم الثالث، وعززت الهوية الجزائرية أفقها وانتماءاتها واصطفافاتها فانفتحت الجزائر على القارة الأفريقية، وبنت علاقات صداقة وتعاون بين عدد من الدول، وشاركت في قيادة منظمة الوحدة الأفريقية، وانفتحت كذلك الجزائر على العالم الثالث ودول الجنوب وتزعمت حركة عدم الإنحياز مع دول أخرى مثل الهند ويوغوسلافيا ومصر.

وما يمكن استنتاجه أن الفيلم بين عمق الهوية الجزائرية ببعدها العربي والأمازيغي وارتباطهما مع الديانة الإسلامية التي يدين بها غالبية سكان الجزائر، ولا يمكن حصر الهوية الجزائرية بأبعادها السابقة وإنما عمل بومدين على توسيع أفق ومدارات الهوية الجزائرية لتكون أفريقية، جنوبية، عدم انحيازية، وثورية تناصر الثوار أينما كانوا وشكلت الجزائر قبلة للحركات الثورية في العالم.

قائمة المراجع

١. إدموند بيرك الثالث. «التفسير النظري لتاريخي الاستعمار والقومية في المغرب العربي.» علي عبد اللطيف أحميدة (محرر). ما بعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي: التاريخ والثقافة والسياسة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ٢٠١٤.

٢. بغورة، الزواوي. «الذاكرة والعدل موقف بول ريكور.» يتفكرون. عدد ٢. خريف ٢٠١٣.

٣. بن عزوز، حاتم. «إستراتجية الدولة الجزائرية في الحفاظ على الهوية الوطنية(اللغة العربية نموذجًا).» مجلة العلوم الاجتماعية. عدد ١. أكتوبر ٢٠١٧.

٤. بن نكاع، مولاي أحمد. ملامح الهوية في السينما الجزائرية. وهران: جامعة وهران- كلية

الآداب واللغات والفنون (أطروحة دكتوراة غير منشورة). ٢٠١٣.

٥. بنعبد العالي، عبد السلام. «الصفح والمصالحة.» يتفكرون. عدد٢. خريف ٢٠١٣.

٦. بودبزة ناصر، وشوقي الشاذلي. «مقومات الشخصية وتشكيل الهوية الجزائرية من خلال مكتسبات التلاميذ.» مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. عدد خاص. د.ت.

٧. بوكراع، لياس. الجزائر: الرعب المقدس. ترجمة خليل أحمد خليل. بيروت: دار الفارابي. ٢٠٠٣.

٨. جهينة، شريف راضية. حرب الرمال ١٩٦٣ بين الجزائر والمغرب الأقصى الأسباب والانعكاسات. بسكرة: جامعة محمد خضير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (رسالة ماجستير قسم التاريخ). ٢٠١٥.

٩. دخان، نور الدين، وعيدون الحامدي. «مسار تأمين الحدود الجزائرية: بين الإدارة الاحادية والصيغ التعاونية الإقليمية.» دفاتر الفلسفة والقانون. عدد ١٤. جانفي ٢٠١٦.

١٠. الديوان الوطني للإحصائيات. الجزائر بالأرقام نشرة ٢٠١٣-٢٠١٥. الجزائر: الديوان الوطني للإحصائيات. ٢٠١٦.

١١. زيادة، رضوان. «إحياء الذكرى أو ترميمها، والعدالة الإنتقالية.» يتفكرون. عدد ٢. خريف ٢٠١٣.

١٢. الصحراوي، عز الدين. «اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية.» مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية. عدد ٥. جوان ٢٠٠٩.

١٣. العمار، منعم. «الجزائر والتعددية المكلفة.» سليمان الرياشي وآخرون. الأزمة الجزائرية: الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٩٦.

١٤. فيلالي، صالح. «إشكالية الثقافة في الجزائر: المبادئ الأساسية والايدولوجيا الممارسة.» سليمان الرياشي وآخرون. الأزمة الجزائرية: الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٩٦.

الهوامش

١ الديوان الوطني للإحصائيات. الجزائر بالأرقام نشرة ٢٠١٣-٢٠١٥. الجزائر: الديوان الوطني للإحصائيات. ٢٠١٦: ٥.

٢ المصدر السابق: ١٠.

٣ عز الدين الصحراوي. «اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية.» مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية. عدد ٥. جوان ٢٠٠٩: ١٠.

٤ مولاي أحمد بن نكاع. ملامح الهوية في السينما الجزائرية. وهران: جامعة وهران- كلية الآداب واللغات والفنون (أطروحة دكتوراة غير منشورة). ٢٠١٣: ١١٤.

٥ المصدر السابق: ١٢١-١٢٢.

٦ المصدر السابق: ١٥١.

٧ هوراي بو مدين. الخطاب الإفتتاحي لندوة التعريب الأولى في الجزائر. بتاريخ ١٩٧٥/٣/١٤.

٨ لياس بوكراع. الجزائر: الرعب المقدس. ترجمة خليل أحمد خليل. بيروت: دار الفارابي. ٢٠٠٣: ٧٨.

٩ بودبزة ناصر، وشوقي الشاذلي. «مقومات الشخصية وتشكيل الهوية الجزائرية من خلال مكتسبات التلاميذ.» مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية. عدد خاص. د.ت. ١٣١.

١٠ إدموند بيرك الثالث. «التفسير النظري لتاريخي الاستعمار والقومية في المغرب العربي.» علي عبد اللطيف أحميدة (محرر). ما بعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي: التاريخ والثقافة والسياسة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ٢٠١٤: ٤٥.

١١ نور الدين دخان، وعيدون الحامدي. «مسار تأمين الحدود الجزائرية: بين الإدارة الاحادية والصيغ التعاونية الإقليمية.» دفاتر الفلسفة والقانون. عدد ١٤. جانفي ٢٠١٦: ١٧٧-١٩٧.

١٢ شريف راضية جهينة. حرب الرمال ١٩٦٣ بين الجزائر والمغرب الأقصى الأسباب والانعكاسات. بسكرة: جامعة محمد خضير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية (رسالة ماجستير قسم التاريخ). ٢٠١٥: ٤٢-٤٣.

١٣ لياس بوكراع. مصدر سابق: ٦٨.

١٤ المصدر السابق: ٧١.

١٥ المصدر السابق: ٦٦-٦٧.

١٦ https://www.sasapost.com/minorities-in-algeria/ (استرجع بتاريخ ٢٠١٨/٣/١٥)

١٧ منعم العمار. «الجزائر والتعددية المكلفة.» سليمان الرياشي وآخرون. الأزمة الجزائرية: الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٩٦: ٤٨.

١٨عبد السلام بنعبد العالي. «الصفح والمصالحة.» يتفكرون. عدد٢. خريف ٢٠١٣: ٧.

١٩ الزواوي بغورة. «الذاكرة والعدل موقف بول ريكور.» يتفكرون. عدد ٢. خريف ٢٠١٣: ١٨.

٢٠ رضوان زيادة. «إحياء الذكرى أو ترميمها، والعدالة الإنتقالية.» يتفكرون. عدد ٢. خريف ٢٠١٣: ٣٩.

٢١ صالح فيلالي. «إشكالية الثقافة في الجزائر: المبادئ الأساسية والايدولوجيا الممارسة.» سليمان الرياشي وآخرون. الأزمة الجزائرية: الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٩٦: ٤١٢.

الحلف غير المقدس.. المشايخ ورب الدم العبري

سعد القرش*

يحلو لبعض خطباء المساجد سباب قوم يسمونهم «الفراعنة»، ويقصدون بهم ملوك مصر القديمة، ويتهمونهم بالكفر غافلين عن الآية القرآنية «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»، إذ عاش أغلب هؤلاء الذين يسمونْ «الفراعنة» قبل أن يبعث الله إليهم «رسولا»، قبل زيارة أسطورية ذكر العهد القديم أن إبراهيم الخليل قام بها لمصر، ولا يوجد أثر مصري يشير إلى تلك الزيارة، كما لم يسجل دليل تاريخي أو أثري، مصري أو غير مصري، أن مصر كانت مسرحا لحادث خروج بني إسرائيل.

أقول «حادث»، لأنه وفقا للعهد القديم كان أكبر من زلزال، تسونامي كوني ترك آثارا عسكرية واجتماعية، ورسم خريطة جيوسياسية لبلد خرج منه بنو إسرائيل، وآخر سيصير جارا مثيرا لعواصف مزمنة. ويكتفي هؤلاء الوعاظ الطيبون بترديد ما ذكره القرآن كحقيقة تاريخية، ويضيفون إليه بكثير من الشماتة والتشفي بعضا مما يلمون به من إسرائيليات توعدت بالانتقام من مصر، والثأر التاريخي لشعب الله المختار. ولا يمس هؤلاء الوعاظ شيء من القلق فينظرون في «اجتهادات» باحثين صهاينة يسعون إلى التوفيق بين خرافات وأساطير اكتسبت بالتقادم قوة الحقيقة، وبين منطق يتساءل عن ذلك الرب العبري الذي تستهويه الدماء، ويحث على السرقة بالاحتيال. ولكن هؤلاء الوعاظ يتجاوزون عن هذا الأمر، ولا يرون غرابة في استحالة «خروج» هذا العدد الكبير من اليهود تسللا، وكانوا وفقا للعهد القديم «ست مئة ألف راجل، ما عدا النساء والأطفال، وخرج أيضا معهم كثير من الأغراب، وغنم وبقر ومواش كثيرة». ويصطف هؤلاء الوعاظ، من دون قصد، مع اليهود في العثور على جذور تاريخية تُبعث فيها الروح، كواجهة لصراع حضاري.

---

* كاتب وروائي - مصر

يذكر العهد القديم كيف حرض يهوه، إله موسى، على سرقة حليّ المصريين وأمتعتهم: «وفعل بنو إسرائيل كما قال لهم موسى، فطلبوا من المصريين مصاغ فضةٍ وذهبٍ وثيابا. وأعطى الرب الشعب حظوة عند المصريين فوهبوهم ما طلبوا. وهكذا سلبوا المصريين». رب الدم العبري ليس مفارقا متعاليا عليما، ولكنه يهبط بنفسه في منتصف الليل، ينزل من عليائه؛ لكي يمارس القتل، في اندفاعة هائجة لا يميز فيها بيتا لمصري عن آخر لإسرائيلي، وتجنبا للوقوع في الخطأ يدعو شعبه المختار إلى وضع علامة إرشادية على البيت المستهدف بالتدمير: «وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر. فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بهيمة. ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضا». وفي الإصحاح التالي يقول: «فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة، وأضرب كل بكر في أرض مصر. من الناس والبهائم... أنا الرب. ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر. ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعيدونه عيدا للرب. في أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية».

ولو أعمل الوعاظ العقل لتأكد لهم أن في قصص القرآن «عبرة لأولي الألباب»، ولا أظنهم في استسهال اتهام الملك رمسيس العظيم بالكفر وتعذيب بني إسرائيل، واعتباره «فرعون الخروج» قد ألموا بما كتبه إيمانويل فلايكوفسكي (١٨٩٥ ـ ١٩٨٠) في موسوعته «عصور في فوضى»، وهي محاولة تعارض «حرس العقيدة»، لإعادة ترتيب وقائع التاريخ القديم، واختلاق رابط بين التاريخ المصري وما يسمى التاريخ اليهودي، «وحل مشكلة تزامن تاريخي هذين الشعبين القديمين، وكل منهما يحتل مركزا مرموقا في التاريخ»، تمهيدا لإفساح مجال لوجود فاعلٍ لبني إسرائيل في فلسطين، بتلفيق لئيم يجعل من الأسطورة تاريخا، عبر الانطلاق من حقائق لتوثيق الأساطير.

في الجزء الأول من الموسوعة وعنوانه «عصور في فوضى.. من الخروج إلى الملك أخناتون»، يقول إن الخروج ليس معجزة إلهية، ولكنه مع البلايا العشر أحداث طبيعية نتجت عن اختلال كوني، بسبب اصطدام ذيل مذنب بالكرة الأرضية فاختل مركز دورانها، وحدثت تلك الظواهر «الطبيعية»، ومنها انحسار الماء، ثم اندفاعه في مدّ زلزالي، موج كالجبال.

في إجماع نادر على أسطورة، يتفق سيسيل دي ميل وستيفن سبيلبرج ودار الإفتاء المصرية على أن رمسيس الثاني «فرعون الخروج». ولكن عنوان هذا الجزء «من الخروج إلى الملك أخناتون»، من موسوعة فلايكوفسكي، يمنح رمسيس الثاني البراءة من تهمة تعذيب اليهود، ويرى الكاتب اليهودي أن الخروج سابق بعدة قرون على رمسيس الثاني، وأن مملكة سليمان في فلسطين عاصرت حكم الملكة حتشبسوت (١٥٠٣ ـ ١٤٨٢ قبل الميلاد)، التي توفيت قبل تولي رمسيس الحكم بنحو ٧٩ عاما،

كما يفترض أن الخروج سابق على أخناتون ببضعة قرون، وقد بدأ حكم رمسيس الثاني بعد الوفاة الغامضة لأخناتون بنحو ٥٨ عاما. ولكن اليهود انتقوا رمسيس الرمز الأشهر، فجعلوه بطلا لأفلام رسّخته في الضمير العالمي طاغية ارتكب جرائم ضد الإنسانية. ثم استجاب رجال دين مسلمون لهذا التضليل، فأفتوا بغير علم، بجرأة وعدم إحالة السائل إلى أولي العلم.

لا يقتصر هذا الجهل والتجهيل، وإذا شئت الدقة فيمكنك أن تسميه الضلال والتضليل، على خطباء أفراد من الهواة والمحترفين، وإنما لا تتورع عن الخوض فيه مع الخائضين دار الإفتاء المصرية، من دون أي تهيّب يفترض أن يقترن بتدبر آيات قرآنية تثبت قطيعة ما قبل الخروج عما بعده، «كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين»، ولم يرث أحدٌ مصر والمصريين، بعد هلاك مفترض لحاكم يلقبونه بالفرعون، كما بقيت الصروح التي تحمل أسماء بُناتها العظام شاهدة على تواصل الحضارة المصرية القديمة.

هناك فتاوى تدخل في باب الفكاهة المريرة، ويمكن لغيري أن يراها مصطنعة اصطناعا لإلهاء الناس وشغلهم عن قضايا أكثر أهمية، كأن يتطوع الدكتور صبري عبد الرؤوف بفتوى لا تستهدف فك ضائقة أحد، سواء الضائقة المادية أو الجسدية. لم يقل الرجل الذي يعمل أستاذا للفقه المقارن بجامعة الأزهر إن مسلما مزنوقا استفتاه فاضطر إلى الإجابة عن السؤال، وبشره بأن «معاشرة الزوج لزوجته الميتة حلال، وليست زنا، ولا يقام عليه الحد، لأنها شرعا زوجته».

لا أظن من يرتكب مثل هذا السلوك إنسانا سويًا يبحث عن مسوّغ شرعي لانحرافه النفسي، لكي يفتي أستاذ الفقه المقارن بلغو ينافي الذوق والفطرة الإنسانية. هذه الفتوى إحدى ثمار أفق نصوصي منغلق سيتكفل بنسفه التطور الأخلاقي الذي ينسخ النص، ويتجاوزه. ولكن من غير المفهوم ألا يأخذ مسؤولو الفتوى الرسميون بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، فلا يتذكرون حديث «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار»، وهم يجيبون عن سؤال ربما ينفق مؤرخ وأثري فيه عمره، ولا يصل إلى مشروع للإجابة عنه: من فرعون موسى؟

دار الإفتاء المصرية أجابت: «أرجح الأقوال عند المفسرين وعلماء التاريخ أن فرعون نبي الله موسى عليه السلام هو رمسيس الثاني.. وإن كان هناك رأي آخر يرى أن نبي الله موسى قد عاصر اثنين من الفراعنة؛ فقد كان الشيخ رشيد رضا رحمه الله يرجح أن فرعون موسى هو منفتاح، يقول: والمرجح عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العادات المصرية أن فرعون موسى هو الملك منفتاح، وكان يلقب بسليل الإله «رع»، وقد جاء في آخر الأثر المصري الوحيد الذي ذكر فيه بنو إسرائيل «وهو المعروف برقم (٤٣٠٢٥) المحفوظ في متحف مصر».

إذا كان هناك سائل حقا، فكان على دار الإفتاء توجيهه إلى العنوان الصحيح، وهم «الراسخون في العلم» من المؤرخين والأثريين. وأغلب الظن أن المشايخ لم يدرسوا التاريخ المصري القديم، ولا يحيطون بعلم المصريات، حيث تحظى مصر دون غيرها من بلاد الله بعلم يحمل اسمها، ولا يجهله سواهم. وأمام العجز عن الإجابة يسهل القول إن القرآن ليس كتابا في التاريخ، ولا يوثق سيرة أحد، «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب»، ولو كان الملك رمسيس الثاني معاصرا للخروج لأراحنا الله بتحديد اسمه، وزمن وجوده، حين «قصّ» حكايته في القرآن الذي تضمن «أحسن القصص»، بهدف الاعتبار لا التوثيق التاريخي.

لقبتُ رمسيس بالملك لا الفرعون، وحين أقرأ لقب «الفرعون» أو أسمعه، فإنني تلقائيا أنصرف عن القراءة والسماع، وأتهم القائل بالجهل أو الاستسهال؛ فلم يكن «فرعون» اسما لملك مصري ولا لقبا، والكلمة تعني البيت الكبير، كما كان يقال الباب العالي لمركز الحكم الاستعماري في الدولة العثمانية. وقد نجحت الآلة الدعائية الصهيونية ـ قبل تأسيس كيانها المعادي في فلسطين ـ في اصطياد الملك رمسيس، فاختارته «فرعونا» للخروج الذي يسهل أن ننفي أن تكون مصر مسرحا له، فلم يسجل مؤرخ أن تاريخها القديم عاش فيه مصريون يحملون أسماء: قارون وهامان.

لا يملك الذين يتجرأون على الفتوى فضيلة التواضع، ولا يعرفون أن من الفتوى أيضا قول: «لا أعلم». وقبل سنوات قرأت كتاب «البيان في روائع القرآن» للدكتور تمام حسان، وهو أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وليس متخصصا في التاريخ أو الآثار، ولكن الأمر إذا تعلق برمسيس فكأنك في ميدان عام، وترى الناس يضربون شخصا ويسبونه. في الزحام لن تتحقق أو تسأل، بل ستصب غضبك من إحباطاتك وهوانك وقلة حيلتك على الرجل المضروب. وتبدو القضية في حالة رمسيس كأنها نوع من جلد الذات، أو مصادفة سيئة توافق البحث عن عدو يليق بخرافات اليهود.

خصص الدكتور تمام حسان فصلين عن قصة يوسف عليه السلام، وبني إسرائيل في القرآن الكريم، وقال «إذا افترضنا أن يوسف ظهر في عهد الأسرة الخامسة عشرة، وأن بينه وبين موسى أسرتان ملكيتان [كذا بالنص!] هما السادسة عشرة والسابعة عشرة، فلربما رأينا الزمن بين هذين النبيين كافيا لنشوء جالية إسرائيلية محدودة العدد مجتمعة في إقليم واحد، بحيث يمكن أن يقودها إلى الخلاص شخص واحد».

في البحث «العلمي» لا يكفي ولا يشفع للمؤلف الهاوي أن يقول «افترضنا» و«ربما»، وكأنه يردد مقولات العهد القديم الأسطورية، ويتطوع بقول «كلام» يحاول أن يرتقي به إلى مستوى «الحقيقة»، ويذكر قرائن وإشارات، مخالفا قواعد ومبادئ التحقيق العلمي في الإثبات بأدلة قاطعة. ويقول أيضا: «ثمة قرائن تشير إلى أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني، من هذه القرائن:

أ ـ أن رمسيس الثاني صاحب أطول مدة قضاها أحد الفراعنة على عرش مصر، فلقد ظل رمسيس الثاني في الحكم سبعة وستين عاما وذلك زمن يمكن أن يولد فيه الإنسان ويشب ويبلغ مبلغ الرجولة كما وقع لموسى عليه السلام.

ب ـ إن في أخلاق هذا الفرعون جانبا من العدوان والتسلط وحب الذات وعدم الأمانة جعله لا يبالي أن يمحو أسماء الفراعنة السابقين من بعض الآثار ليسجل اسمه عليها فيسرق تاريخهم ليضيفه إلى نفسه. فلا عجب أن يقف من بني إسرائيل أولا ومن موسى ثانيا مثل هذا االموقف.

ج ـ والنقطة الثالثة وإن كانت لا ترقى إلى درجة القرينة تحمل عبرة أكثر مما تحمل دلالة جازمة لقد اكتشف القائمون على الآثار في مصر أخيرا أن مومياء رمسيس الثاني تعاني من نمو بعض الطحالب فيها وأنها الوحيدة من مثيلاتها التي ظهرت فيها هذه الآفة ومن ثم أرسلت إلى فرنسا لعلاج هذه الظاهرة. والمعروف أن الطحالب كائنات مائية فنموها دليل على تعرض موضعها للماء وإذا كان الأمر كذلك فإن مومياء رمسيس تكون قد تعرضت ذات يوم للماء أي الغرق في البحر».

كلام مرسل يحمل اتهامات متهافتة، ويمكن استخدام هذا الخطاب في نقضه، فقد كان هذا الملك بناء عظيما، حكم سبعة وستين عاما (تقريبا بين عامي ١٣٠٤ و١٢٣٧ قبل الميلاد)، ملأ فيها البلاد بآثاره ومنشآته، فكيف يتفق هذا مع آية تدمير آثار فرعون الخروج: «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا. ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون». وكذلك آية «فدمرناهم تدميرا». لماذا لم ينل هذا التدمير من آثار رمسيس الثاني وصروحه المعمارية التي لا يكاد موقع مصري يخلو منها؟ ألا تبرئ هاتان الآيتان رمسيس من أساطير إسرائيلية اختارته من بين ملوك الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية ١٥٦٧ ـ ١٢٠٠ قبل الميلاد)؛ للانتقام من مصر والمصريين.

لم يقل المؤرخون والأثريون إلا إن رمسيس مات في فراشه «موتة ربنا». هذا وحده سبب كاف للشفقة على الغافلين عن موت الملك في الثالثة والتسعين، فكيف يخرج في هذه السن، على رأس جيش لمطاردة قوم موسى؟ ويقول العهد القديم «فشدّ فرعون مركبته وأخذ جيشه معه»، ثم طرحهم «الرب في وسط البحر. ورجعت المياه فغطت المركبات والفرسان وجميع جيش فرعون الذين دخلوا وراء بني إسرائيل في البحر، وما بقي منهم أحد».

توفي أبناء رمسيس الثاني في حياة أبيهم إلا مرنبتاح (يسميه رشيد رضا «منفتاح»)، وقد خلف أباه، ودام حكمه أقل من ثلاثة عشر عاما. فترة لا تسمح بميلاد طفل ونشأته وقتله مصريا وهروبه، ثم عودته إلى هداية الملك. والله أعلم.

أوراق ثقافية

جدلية الفضاء والشخصية الروائية في رواية «راكب الريح»

د. رياض كامل

مقدمة:

تهدف هذه المقالة إلى دراسة فضاء رواية راكب الريح (٢٠١٦) للكاتب الفلسطيني يحيى يخلف (١٩٤٤-)، وإبراز الفوارق بين الأمكنة المتعددة فيها، وعلاقة ذلك بشخصيات الرواية، وبالذات بالشخصية المركزية. ترى هذه الدراسة أن تنقلات الشخصية المركزية في أماكن متعددة قد عملت على إغنائها وتطويرها لما اكتسبته من تجارب في كل مكان تواجدت فيه، فساهمت جميعها في صقلها ونموها حتى وصلت درجة النضوج. ننطلق في دراستنا من أن الفضاء الروائي أو الحيز، كما يسميه عبد الملك مرتاض، هو الإطار الذي تتحرك فيه الشخصية/ات، ويرتبط أحدهما بالآخر ارتباطا عضويا وثيقا، ويتبادلان التأثير والتأثّر.

لا تتوقف هذه المقالة عند جغرافيا الأمكنة وطبغرافيتها وصورها الخارجية وبنائها فحسب، بل إنها تدرس دلالاتها وأبعادها. فالروائي المتمرس يخلق المكان عن قصد وعن سبق إصرار، «فالمكان في الفن اختيار، والاختيار لغة ومعنى وفكرة وقصد»، وهو أحد مركباتها الأساسية التي يستحيل أن تقوم رواية بدونه. فالفضاء في الرواية، إذن، أبعد من أن يكون محايدا، فهو يتجلى في أشكال ويتخذ معاني متعددة، إلى درجة أنه يكون، أحيانا، علة وجود رواية من الروايات».

يبذل الروائي يحيى يخلف جهدا خاصا ومميزا لإبراز معالم الأمكنة المتعددة في الرواية، لتتناسب مع زمن الأحداث، ومع الشخصية المركزية التي تتبلور ضمن الأطر المكانية المتخيّلة للرواية، بكل مركباتها: الاجتماعية، الفكرية، الثقافية، العلمية، الفلسفية، عاداتها، تقاليدها وهمومها اليومية؛ العامة والخاصة، بحيث نكاد نشم رائحة الأمكنة ونسمع أصواتها.

يبدو لنا جليا أن يحيى يخلف يستحضر التراث العربي القديم، ويستلهم الكثير من فضاءاته، ومن طريقة ذلك السرد، وبالذات من كتاب ألف ليلة وليلة، ففيه خيال جامح، وقصص وحكايات مطعمة بالخرافات والأساطير والرموز والدلالات تصل حد الفانتازيا. وهو متأثر، أيضا، بالسير والملاحم الشعبية التي ترسم صورة خارقة للأبطال في تصدّيهم للعدو والخصم، وفي قدرتهم على المواجهة الفردية، وإنقاذ القوم وقت الشدة، وهو ما ينعكس على القوة الجسدية للشخصية المركزية. وله اطلاع واسع على القرآن الكريم، عامة، وعلى سورة يوسف، خاصة، التي استوحى منها اسم الشخصية المركزية وبعض ملامحها الخارجية في الحسن والجمال، حتى بات محط أنظار النساء على اختلاف انتماءاتهن.

تتفتح شخصية يوسف على الحياة في ظل مدينة يافا، فكانت فضاء مفتوحا على عوالم عدة محلية وعالمية، فتأثرت بهذا المحيط الغنيّ وباتت قابلة وجاهزة للانفتاح على عوالم أوسع. تكتمل شخصية يوسف بفضل تنقّلاته وقد حمّله الروائيّ كامل المسؤولية لإحداث التغيير المنشود، ولذلك رأيناه يخصص له الحيز الأكبر من صفحات الرواية، ليمثّل الإرادة القوية لهذه الشخصية، كنموذج قادر على التحدي والمواجهة مما يتطابق مع ما قاله جولدمان: «وتصور الرواية هذا البطل وهو يتفاعل مع الواقع ويتحداه مع إدراكه محدودية محاولته أو صعوبتها، أو عدم فوزه في النهاية إلا أنه يواصل محاولته».[1] بدأت رواية راكب الريح مع يوسف الفتى الصغير، وانتهت به في مواجهة كل العناصر السلبية في جيل الشباب.

يعود نجاح هذه الرواية، برأينا، لأسباب عدة أهمها قدرة الروائي على تشخيص المكان وجعله معادلا، في أهميته، للشخصية الرئيسية، وتمكنه من خلق حالة من التناغم الكليّ بين الشخصيّة والمكان. فعن أية أمكنة وعن أية أشخاص تتحدث رواية راكب الريح؟ وما هي خصوصيتها؟

مقدمة:

أصدر الروائي يحيى يخلف روايته الأولى نجران تحت الصفر سنة ١٩٧٧، تناول فيها موضوع الحرب الأهلية في اليمن بين الجمهوريين والملكيين، فدخل عالم الرواية، منذ ذلك الحين، من أوسع الأبواب. كما أصدر رباعيته؛ بحيرة وراء الريح (١٩٩١)، نهر يستحم في البحيرة (١٩٩٧)، ماء السماء (٢٠٠٨) وجنة ونار (٢٠١١) التي تناول فيها أحداث النكبة وأبعادها من تشرد وضياع، لكنه في راكب الريح يدخل عالما جديدا هو عالم فلسطين نهاية القرن الثامن عشر. فكيف يبدو هذا العالم في تلك الحقبة الزمنية؟ ومن هم ناسه؟

لقد بنى يخلف روايته وفق محورين هامين؛ فضاء يافا الذي يمثل البيت- الوطن، وفضاء دمشق وأضنة/الأناضول الذي يمثل الغربة، وجعل الواحد منهما يكمل الآخر لتنضج الشخصية الرئيسية وتكتمل فكريا في ظلهما. إن تشخيص المكان في الرواية يوهم بواقعيتها، ويجعل أحداثها في عين القارئ محتملة الوقوع، وهو كالديكور في المسرح، إذ لا يمكننا أن نتصور وقوع الأحداث إلا من خلال الإطار المكاني. ويكثر هذا التأطير في الروايات الواقعية،[٢] إذ يرى مؤلفا النظرية الروائية، اللذين كانا من أوائل من اهتم بهذا الجانب، أن الاهتمام التفصيلي به يعود إلى عصر الرومانتيكية والواقعية، إبان القرن التاسع عشر.[٣]

يعمل الروائيون على خلق المكان المتخيَّل مستمدّا من الواقع، لكنه ينزاح عنه بحيث يتجاوب مع متطلبات العمل الفني، محافظا على كينونته الأهم؛ ارتباطه العضوي بالشخصيات وارتباطها به، في علاقة غير قابلة للانفصام، وجاهزة للتأثير والتأثّر.[٤] وقد تتعدى سلطة المكان أكثر مما يبدو على السطح إلى أعماق التكوين النفسي للشخصيات.[٥] وهذا ما يتجلى بوضوح في هذه الرواية، إذ إن يافا، بكل مركباتها ومكوّناتها الفضائية، تعمل على بلورة الشخصية المركزية، فيتحول يوسف في ظلها إلى شبه سندباد متنقّل، تعمل الأمكنة كلّها على نضوجه واكتماله، جسديا وفكريا، وبالتالي يقوم هو أيضا بتأثير معاكس في المكان.

لم يلق الفضاء الروائي ما يستحق من عناية المنظّرين لفترة طويلة، رغم أهميته، حتى التفتت إليه السرديّات في بداية السبعينات من القرن العشرين،[٦] وبتنا نرى دراسات توضح ما لهذا العنصر من أهميّة في الرواية، وفي غيرها من الفنون.[٧] ولو دقّقنا النظر فيما قاله بعض المنظرين، وبالتحديد المنظر الروسي ميخائيل باختين في كتابه الشهير أشكال الزمان والمكان في الرواية، وما يقوله غيره مثل جيرار جينيت وجان بيير جولدنستين فسنرى أنهم جميعا يتحدثون عن العلاقة الجدلية بين الزمان والمكان والشخصية في الرواية، وهم يرون أن القصة والرواية منذ بداياتهما كانتا توليان أهمية كبرى بالفضاء. وهذا ما ألفناه في الأعمال التراثية العربية التي اعتادت على بداية «الحكي» بالتعريف على البطل، ضمن الحيز الزمكاني.

يقول جولدنستاين، على سبيل المثال: «تقتضي البداية، في كثير من الحكايات، تحديد المكان والزمان، حيث يجري الحدث تحديدا إجماليا [...] ونجد في القصص القصيرة، كذلك، تبيينا لمكان الحدث وزمنه».[٨] ويضيف: «إن الرواية، بما تتسم به من سعة، تسند دورا حقيقيا لمقولتي الزمن والفضاء، مما يجعلهما حاضرتين بمختلف تمظهراتهما في كل موضع من الرواية [...] ذلك أن الروائي أكثر تنبها إلى العلاقات التي توجد بين الشخوص التي يبدع، والعالم الروائي الذي يحيط بهم».[٩]

نلاحظ أن راكب الريح التي تستعير بعض أساليب السرد التراثية العربية تتطابق مع ما قاله جولدنستين وغيره حول بدايات القصص والروايات، فقد جاء الفصل الأول من الرواية تحت عنوان «يافا ١٧٩٥»، واستهل الراوي سرده بالحديث المباشر عن يوسف، الشخصية المركزية، مقرونا بفضاء يافا في تلك الفترة بالتحديد، وعليه فكل ما سيقال في يوسف سيكون مقيّدا بتلك الزمكانيّة.

نجد في رواية راكب الريح الكثير من الواقع، والكثير من الأحداث التاريخية، والكثير من الخيال وبعض الفانتازيا، مما يتيح لها الاقتراب من تخوم «الواقعية السحرية».[١٠] فيوسف الوسيم الجذاب محط أنظار النساء جميعا، منذ بدء تفتح جسده، يكبر ليصبح سندباد يافا وبطلا خارق القوة. ولو دققنا النظر في الحيز الواسع الذي خصصه الروائي لفضاء يافا، خاصة، لتبين لنا بشكل جلي أن يوسف هو ابن يافا بكل مركباتها، فالبحر في شسوعه يدعو إلى المغامرة والبحث عن المجهول، وحب يوسف لبحر يافا جعل القارئ يتساءل ماذا سيحدث هناك!؟ هذا الأمر يذكرنا بنظرية وولفجانج ايزر وحديثه عن الفجوات، ولذلك فإن الإسهاب في وصف البحر وعلاقة يوسف به يكشف لنا لاحقا عن حقيقة الشخصية المغامرة والجريئة.

لقد عمل يحيى يخلف على خلق فضاء روائي مكتمل، وأثّثه بكل ما يتجاوب مع الشخصية المركزية شكلا وجوهرا، حتى غدت مدينة يافا بلدا حضاريا منفتحا على عوالم عدة، وقادرا على التحاور مع الحضارات الشرقية والغربية على اختلافها، لا مكانا يسوده التخلف. هذا الفضاء يكشف أعماق شخصية يوسف وانفتاحه على أفكار وحضارات متعددة، منذ تفتح وعيه، مما أهله للتحاور مع أشخاص ينتمون لحضارات عدة.

ملخص الرواية

تبدأ أحداث الرواية، كما أسلفنا، في يافا سنة ١٧٩٥، وتنتهي نهاية القرن الثامن عشر مع فشل حملة نابوليون على فلسطين، وما خلّفته من قتل وتدمير. وهي تتمحور حول شخصية الفتى يوسف وحيد أبويه. قامت والدته بهنانة بتربيته وأحسنت في ذلك، أما والده فقد اهتم بتعليمه وتطوير شخصيته وفتح مجالات الحياة أمامه. نبغ يوسف مبكرا، فأرسله والده أحمد آغا، تاجر الصابون إلى الجامع الكبير، الذي «كان يشهد حلقات تدريس من كبار العلماء والفقهاء ورواة الحديث، فتعلم الفقه واللغة والعلوم، فعشق الخط العربي، ومنه انتقل إلى الرسم حتى أتقنه. كما أرسله إلى مدرسة الراهبات ليتعلم اللغة الفرنسية».[١١] يُعرف عنه، منذ نعومة أظفاره، حبه للبحر والمغامرة، وبات أهل يافا ينتظرون قفزاته المميزة من أعلى البرج إلى البحر، و»ذات مرة، وجد

نفسه بعد أن أتم قفزته وغطس، ثم سبح نحو عمق البحر، وجها لوجه أمام حوت»،[١٢] ومن حسن حظه أن الحوت غاص في الماء واختفى، فعاد يوسف إلى الشاطئ بسلام، و»في تلك الليلة، كانت حكاية يوسف والحوت حديث المدينة، وحديث القصر ومجالس الوالي والأغاوات ونقباء الأشراف، ومجلس الجواري».[١٣]

يلفت يوسف إليه أنظار أهل يافا؛ كبيرها وصغيرها، بفضل نبوغه وعلمه وجسارته واكتمال أدوات فنّه، ووسامته التي شغلت صبايا المدينة وجواري القصر، فشبهت صديقات أمه جماله بجمال النبي يوسف. يدخل يوسف المراهق تجربته النسائية الأولى مع جارية حسناء أغوته، وما إن لامست شفتاه نحرها حتى احترق. يلتقي، كعادته، بالجميلات عند شاطئ يافا، ويتعرف إلى ماري الجميلة، ابنة قنصل الدولة العليّة في مدينة بوردو بفرنسا، وإلى أمها الطبيبة الفرنسية، اللتين قدمتا برفقة العائلة لقضاء عطلتهما الصيفية في يافا. مهّد هذا اللقاء وهذا التعارف الطريق ليوسف للسماع عن فرنسا والثورة الفرنسية الحديثة ضد النظام الملكي.

ولما رأى الوالد أن ولده مولع بفن الرسم اكترى له بيتا ليكون بازارا للرسم وتخزين الرسوم واللوحات وبيعها. لم يكتف يوسف بما تعلمه في يافا وعكا وحيفا، بل سافر إلى الأستانة، وطاف في بلاد الشام والعراق، واطّلع على رسومات لشعوب عدة، فتطورت أدواته ورسوماته وانتقل إلى الرسم بالفسيفساء. أقبل كبار موظّفي السراي والعائلات الغنيّة على البازار لشراء لوحاته الثمينة. وفي إحدى المرات تحضر ماري ووالدتها برفقة فتاة ذات حضور طاغ، وكانت تلك هي «العيطموس» المرأة كاملة الأنوثة والجمال، الأميرة القادمة من الأناضول التي اقتحمت خياله ولبّه. كانت تسكن في أحد القصور قريبا من قصر الوالي والسراي، فتقربا من بعضهما، وعرف عنها كل ما كان مستورا، واتفقا أن يرسمها مقابل قُبلة.

يلفت يوسف إليه الأنظار ويتّسع تأثيره على من حوله، فيحاول رجال الإنكشارية المعروفون بتزمتهم أن يحدّوا من فكره وتأثيره فيتواجه، في إحدى المرات، معهم جسديا، فأوسع فيهم ضربا وتغلب عليهم منفردا، فكان عقابه النفي وإبعاده عن يافا مدة سنتين. يترك جميلته «العيطموس» الشبيهة بالأندروميدا ويصل، وفق الاتفاق، إلى الشام حيث يدخل في «مدرستي ملوكي سلطاني» ليدرس هندسة العمارة وتزيين القصور، فتزداد ثقافته ومعلوماته. يلتقي هناك بفتاة غاية في الجمال هي «ذات السن الذهبية»، ويمر معها بمغامرة كادت أن تودي بحياته، تستدرجه وتخدعه فيقع في قبضة الجنود وينجو بأعجوبة، بعد أن تعرض لصفعاتهم ولكماتهم الموجعة، لكنه لم يتوقف عن المغامرة في كل مرة كانت تظهر فيها فتاة أشبه في جمالها بحوريات البحر الساحرات.

يعاني يوسف، منذ نعومة أظفاره، لأن «قرينا» يسكنه وينغص عليه حياته، ولا يعرف كيف يتخلص منه. يعرض حالته على شيخ وعلى إمام، كما لم يتردد في عرض حالته على رجلين هنديين التقى بهما في بلاد الشام، أحدهما سيخي والثاني مسلم فيعرضان عليه صفقة؛ أن ينسخ بخطه الجميل «مخطوطا» عن حكمة الشرق، مترجما إلى اللغة العربية، من تأليف حكيم، فيلسوف وطبيب هندي، عالم بالفلك وخبير بالموسيقى الروحية، مقابل تخليصه من «القرين». يرافقهما إلى حيث يقيم الطبيب إقامته المؤقتة في جبل من جبال الأناضول، فيشفى بعد تلقيه العلاج، ويتعلم منه القدرة على التحكم بطاقته واكتشاف جوهر ذاته. وما إن سمع بحملة نابليون على فلسطين، وبالتدمير الذي لحق بيافا حتى عاد على عجل تاركا الأناضول، فينضم إلى المقاتلين الذين يحاربون جيش نابليون الغازي. يكتشف أن والديه قد قضيا نحبهما مثل آلاف القتلى الذين فتك بهم نابليون وجيشه. كما يرى أن الطاعون قد تفشى بين الناس، بسبب كثرة القتلى المنتشرين في كل مكان.

يعمل مع المقاتلين والمتطوعين على إعادة بناء المدينة الجريحة، ويتمكن، بفضل الحكيم الهندي وإشرافه، أن يشفي «العيطموس» من الطاعون. ينال منها قبلته الموعودة لقاء أتعابه في رسم اللوحة، لكنها كانت «قبلة النوايا الحسنة»، كما قالت السيدة العيطموس، إذ «اقترب من اللوحة، مد رأسه نحوها، ألصق شفتيه بشفتيها، وأطال التقبيل، ثم ابتعد، واستدار نحوها، وقال: هكذا تكونين قد سددت دينك».[١٤] تغادر «العيطموس» يافا، ويتابع يوسف والشباب في ترميم المدينة وتقديم المساعدة لأهلها.

زمكانيّة العنوان والغلاف

قبل الخوض في دور المحطات المكانية نرى لزاما علينا أن نشير، بشكل موجز، إلى زمكانيّة العنوان وعلاقتها بالشخصية الرئيسية. يشير العنوان، بشكل مباشر، إلى أنّ الشخصية المركزية في الرواية هي العنصر الأهم. وراكب الريح، في معناه المباشر، يبوح بفضاء مفتوح مكانا وزمانا، وهو متحرك في الزمان، وغير ثابت في المكان، مما يتلاءم مع تحركات الشخصية المركزية، ليس فقط على صعيد المحسوس، بل على صعيد الجوهر، فتحركات يوسف وجولاته تمكنه من اكتشاف جوهر ذاته. كذلك فإنّ اختيار الاسم يوسف يحيلنا إلى قصة النبي يوسف، ليس في وسامته، وفي قصصه مع زوجة العزيز، واللواتي قطّعن أصابعهن، فحسب، بل لأنّ النبي يوسف راكب للريح أيضا، إذ انتقل من أرض كنعان إلى أرض مصر وتعرَّف على بلاد أخرى وحضارة أخرى، تأثّر بفنّها وعالمها الرحب الواسع، واكتملت شخصيته بفضلها وفي ظلها، فأصبح هذا الفتى الصغير، بفضل نبوغ عقله،

وقدرته على تفسير الأحلام والألغاز، وزيرا لعزيز مصر، فتمكّن من إنقاذ أهله من القحط والجوع، وتزويدهم بكل ما يحتاجون من دعم. وهكذا فإن يوسف بطل الرواية، قد تجوّل في بلاد عدة وكبر حتى اكتمل إدراكه ووعيه، وعاد إلى أهله وإلى بلده يافا، فأنقذها من الطاعون والجوع، ومن براثن نابليون وجيشه الذي عاث فسادا. إذن فالعنوان «ليس مجرد تكملة أو حلية، بل إنها، من منظور بعض محللي الخطاب، نقطة انطلاق كل تأويل للنص».[١٥] لذا فإن اختيار يحيى يخلف عنوان الرواية، واختيار اسم الشخصية المركزية لم يكن محض صدفة، فقد جعل الواحد منهما يكمل الآخر.

يعلن الأدباء، سواءاً كانوا روائيين، شعراء أو قصاصين، أنّ العنوان يأتي لاحقا بعد الانتهاء من العمل، وذلك بعد أن يثوب عقل الأديب إلى رأسه، على حد قول الباحث عبدالله الغذّامي، فيكون ذلك عصارة فكره، بعد أن يكون قد ارتاح من عناء الكتابة.[١٦] إنّ العلاقة الوثيقة بين جميع عناصر الرواية، والمبنى المتين للأحداث، وارتباطها بالشخصية المركزية في راكب الريح جعلنا نشعر وكأن العنوان قد جاء سابقا ثم تلا ذلك سرد الأحداث. يشير العنوان، راكب الريح بشكل مباشر إلى ثلاث عناصر روائية مجتمعة؛ الشخصية المركزية، المكان، والزمان في أبعادها المتحركة غير الجامدة، كما هو حال الأحداث والراوي اللذين يرافقان الشخصية في تناوب الأمكنة والأزمنة.

تحدّث المنظرون عن الفضاء المغلق والفضاء المفتوح، ودور كل منهما، ونحن نرى أنّ فضاء مدينة يافا فضاء مفتوح، رغم السور والأبنية المغلقة، لأنّ كل هذه المركبات تكمل بعضها بعضا كلوحة فسيفسائية متكاملة المعالم. ونرى بعد معاينة دور يافا في تطوير شخصية يوسف، واحتكاكه بأبناء شعوب عدة ينتمون لحضارات مختلفة، أنّ فضاء يافا مفتوح فكريا، رغم محاولة أفراد جيش الإنكشارية فرض قيود ظلامية. أدركت الفنانة التشكيلية ضحى الخطيب[١٧] هذا البعد فعكسته في لوحة الغلاف، إذ نرى هناك صورة يوسف ذي اللحية والشاربين المفتولين، كشاربي الأتراك في تلك الحقبة الزمنية، له عينان واسعتان تنظران إلى البعيد. يوسف هو الأقرب في اللوحة إلى الرائي، يغطي جزءا كبيرا من المدينة، ومن خلفه تبدو بعض بيوت يافا وحصان وطيور وقوارب وقبة ومئذنة. أما خلفية اللوحة فلونها سماوي قريب من لون بحر يافا، والبحر والسماء كلاهما فضاء مفتوح. إن المتمعّن لقادر أن يكتشف ما هو أبعد مما قمنا بتوصيفه، فاللوحة قابلة للانفتاح والتأويل، وتوحي بالعلاقة المتينة بين عالم الرواية، بأحداثها وشكل المدينة العامرة ببيوتها وساحلها، وبين يوسف بطل الرواية.[١٨]

يستحق العنوان ولوحة الغلاف وقفة مطولة، بل هما جديران بدراسة موسّعة تثبت العلاقة الجدلية القوية بين الأحداث وبين العنوان، وما يتعلق به، ما يؤكد رؤية جيرار جينيت أنّ العنوان هو «النص الموازي»، وهو ما ينطبق فعلا على لوحة الغلاف التي تأخذنا إلى أجواء ألف ليلة

وليلة والسندباد وبساط الريح، فتأتي الأحداث فيما بعد لتربط بين يوسف، راكب الريح، وجولاته وتنقلاته واكتمال تجربته.

المحطة الأولى: فضاء يافا؛ البيت ومسقط الرأس

تتفتّح الشخصية المركزية وتتطور في ظل مدينة يافا، ببيوتها وأزقتها وحاراتها وسوقها وبحرها وسورها وأبراجها، وبمحيط غنيّ ثقافة وفنا وحضارة. وكان يوسف، كلما كبر يوما، ازدادت قوته الخارقة معتقدا أنّ هذه القوة هي من «قرين» يسكنه، تمثلت في تغلّبه على مجموعة كبيرة من أفراد جيش الإنكشارية، ومن قبلة لجارية حسناء قبّلها في نحرها فاحترق، وظلت هذه القبلة وشما أبديا. كما أن حبه للعلم والمعرفة وفنّ الرسم كان يزداد يوما بعد يوم. من هنا يجب التعامل مع يوسف/ الشخصية المركزية من خلال المحيط المُتخيَّل للرواية، ومن خلال الحيِّز الزمكانيّ المتخيل، متفقين بذلك مع كل من صبري حافظ الذي يرى أنّ أيّ محاولة لنزع الشخصيات من سياقها، ومناقشتها على أنّها شخصيات إنسانية حقيقية هو فهم خاطئ لطبيعة الأدب،[١٩] ومع بوريس أوسبينسكي الذي يرى أنّ المكان، في الحكايات الشعبية، يقوم بالدور الأول في تحديد مواقف الشخصيات وليس العكس.[٢٠] فهل هذا يعني أن راكب الريح هي حكاية شعبية؟

قلنا، أعلاه، إنّ الروائيّ في راكب الريح يوظف أسلوب الحكايات الشعبيّة السرديّة، فبطلها خارق في قوّته، كما رأينا أعلاه، والمحيط اليافاوي فيه الكثير من الواقعيّة الممزوجة بالخيال الذي يصل تخوم الفانتازيا دون اختراقها. تبدو لنا يافا، منذ بداية السرد، مدينة فيها بعض من مواصفات عالم ألف ليلة وليلة، غنية بمعالمها وأبنيتها وتاريخها، وتنوّع ناسها وانتماءاتهم المتعددة، واختلاف مهنهم وأعمالهم. وتظهر للقارئ مدينة منفتحة على عوالم عدة؛ سوقها عامرة بالتجار المحليين والغرباء والقادمين إليها من بعيد، فيها بعض القصور، وفيها السراي الذي يقيم فيه الوالي العثماني عبدالله بك، وفيها جوار وقيان وحسناوات من بلدان مختلفة، ومن شعوب عدة، وفيها الجامع الكبير الذي بني بمعمار عثماني فريد، وآثار قديمة من سور وبرج عال تشهد كلها على عراقتها، وفيها أسواق ومتاجر تكتظ بالباعة والمتسوقين المحليين والأجانب، وحركة تجارية مباركة. وفيها أدغال من أشجار الحمضيات وساحات وباحات، فضلا عن شاطئ ذهبي جميل ورمل يتسلّى به الكبار والصغار.

تحفل رواية راكب الريح بالتوصيف، لدرجة تجعل القارئ يشعر بوجود معالم يافا وغيرها من المواقع حقيقةً لا مجرد خيال، «فوصف المكان هو وصف لمستقبل الشخصية كما يقول فيليب

هامون، وحيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة فيما يعتقد جورج بولان، والمكان لا يظهر إلا من خلال إحداثيّة زمنيّة يندرج فيها، كما يرى جيرار جينيت، ومنظور السرد هو الذي يحدد أبعاد الفضاء الروائي ويرسم طوبوغرافيته على حد قول فرانسواز روسم».[٢١]

يتساءل جولدنستين: «لماذا تتموضع أحداث رواية من الروايات في مكان بدل آخر؟ ولماذا يتنقل البطل؟ ولماذا يخلق الروائي جوا منحبسا أو يفسح المجال الرحب لشخوصه؟ وبتعبير آخر؛ هل يستعمل الروائي الفضاء مجرد ديكور، أم أن هذا الفضاء يضطلع بدور كامل، في إطار تنامي التخيل؟»[٢٢]

يجيب جولدنستين: «في الأدب الروائي المحتفي بالتشخيص، والذي ما زال مهيمنا إلى يومنا هذا، لا يكون المكان مجانيا، فلا يصوره الروائي لذاته، بل يقيّده باقتصاد المحكي، من خلال التهذيب البلاغي الضمني الذي يتحقق له عن طريق القراءة. فالقارئ إزاء وصف من الأوصاف، لا يملك إلا الاعتقاد في قرارة نفسه، بأن أمرا ما سيحدث هنا».[٢٣]

سيرى القارئ أنّ يوسف سيدخل أسواقها ويحتك بناسها، على أنواعهم، وسيستلهم رسوماته وفنه من تراثها، ومن ألوانها الجميلة المتعددة، ومن برجها وأساطيرها، وسيتفتّح ذهنه على محبّة رملها، وسيبني هناك «قصوره» مع الصبايا الجميلات، ثم يلتقي، بعد أن بدأ شعر شاربه وذقنه يبزغ، بجارية حسناء مجربة تغويه وتسحبه معها إلى الغابة، حيث بساتين البرتقال، فيدخل معها في تجربته الأولى التي ستتكرر في مواقع أخرى، مع كثير من التشابه في سطوة السحر والجمال الأنثوي. إذن فتوصيف المكان في رواية راكب الريح ليس مجرد «ديكور» ولا وصفا لطوبوغرافيا المكان فحسب، بل إنّه يحمل دلالات وإشارات هامة تشي بمستقبل الشخصية المركزيّة الجاهزة للانفتاح على العالم والتحاور معه، والاستعداد لقبول الآخر بثقة تامة. ففضاء يافا مفتوح، ببحره وسمائه وأسواقه، وبثقافته وعلمه وحضارته. إنّ هذا التوصيف الغنيّ للمكان، بكل مركباته الثريّة، جعل يوسف رمزا للإنسان الفلسطيني القادر على المحاورة بثقة وثبات، لا مجرد فرد دون هوية، وجعل يافا رمزا للمكان الأوسع والأشمل، رمزا للوطن بمجمله.

إن جميع مركبات فضاء مدينة يافا تُكوّن مع بعضها بعضا صورة فسيفسائية متكاملة، من شأنها أن تبرز ملامح التكوين الأولي لشخصية الفتى يوسف. وهي ليست مفصولة عن بعضها، بل تدلّل، في اجتماعها، على الصراع الفكريّ والاجتماعيّ والسياسيّ لساكني المدينة. يرى يوسف ويعي ما يراه، فيتواجه، منذ بداية تفتح وعيه، مع الإنكشارية، وما تحمله هذه الفئة من أفكار متزمّتة تتناقض مع أفكاره التي تميل إلى الفن بأنواعه المختلفة.

يبني الروائي فضاء الرواية فيبدو عالما واسعا شاملا، دون أن يقتصر على الوصف الطوبوغرافي للأمكنة ومعالمها ذات الدلالات، بل لقد جعل كل بقعة من يافا تحمل جانبا من جوانب الشخصية ليتبادلا التأثُّر والتأثير، وكان للبيت دور هام. فالبيت هو البيئة المكانية التي تعبّر عن ظروف الشخصية وطبيعتها، وهو، بكلمات أخرى، امتداد لشخصيته.[٢٤]

يفتتح الروائيّ يحيى يخلف روايته راكب الريح بالنص التالي: «وُلد يوسف لأب يعمل بالتجارة، ويسكن بيتا مبنيا من النمط المملوكي على سفح التلة، التي تعلوها السراي، حيث يقيم الوالي العثماني عبد الله بك».[٢٥] لو دققنا في النص القصير أعلاه لرأينا أنّ له دلالة واضحة، ورسالة يجب أن يتلقّفها القارئ ليفكّ إشاراتها. بيت يوسف ليس متواضعا البتّة، بل إنّه مبنيّ على النمط المملوكي، وعند سفح التلة، لكنّ الوالي العثمانيّ الأجنبيّ يسكن في السراي فوق بيت يوسف. وكأنّ الكاتب يفتح كوة للقارئ كي يتوقع صراعا بين يوسف، بما يحمله من أفكار، وسكان السراي، وما يمثلونه من فكر يتناقض مع رؤيا يوسف وأفكاره.

في البيت أب وأم يسهران على تربيته صغيرا، ودعم تعليمه وتثقيفه شابا، فالبيت رمز الدفء والحياة الوادعة الهادئة. هنا في المنزل «يختلي بالريشة ودواة الحبر والورق ليخط الآيات والحكم والأمثال بخط الثلث».[٢٦]

يتأكد لنا، بعد الاطلاع على معالم يافا الخارجية والداخلية، ما لهذا التوصيف من أهمية يفوق دور الزمن، رغم أهميته، هو الآخر، لأن القارئ يكاد يلمس معالم الأشياء. لقد لفت نظرنا ما قاله المنظر جيرار جينيت بهذا الصدد، في دراسة له بعنوان «الأدب والفضاء»، يفتتحها بالجملة التالية: «قد يبدو من باب المفارقة أن نتحدث عن فضاء في الأدب، إذ يبدو أن العمل الأدبي إنما يتحقق زمنيا، في المقام الأول».[٢٧] ويضيف لاحقا: «لكن يمكن، بل ينبغي، أيضا، أن نبحث في علاقة الأدب بالفضاء. وليس يدفعنا إلى ذلك أنّ من مواضيع الأدب ما نجد فيه من حديث عن الفضاء، ووصف الأمكنة، والمساكن والمناظر الطبيعية، أو لأنّ ما نقرأ منه قد ينقلنا، عبر الخيال، إلى نائي الأصقاع ومجهولها فيُخيّل إلينا، لبرهة من الوقت، أننا نجتازها أو نقيم فيها».[٢٨]

إن قارئ الرواية يرى، بوضوح تام، كثافة وصف الفضاء الروائي، على اختلاف مركباته، بحيث نكاد نلمس بعض معالمه، فالروائي يعمل على التأثيث المكاني ليحمل دلالات عدة تبوح بدور هذا المكان وموقعه الاجتماعيّ، ودوره في إبراز مَن عليه من بشر. وقد حظيت السوق بحيّز واسع منه، إنّها سوق عامرة أشبه بالأسواق التي قرأنا عنها في ألف ليلة وليلة، وفي حكاياتنا الشعبية: «كانت السوق تمثل تنوع المدينة...».[٢٩]

إن يوسف جزء هام من هذا النسيج الاجتماعيّ المتنوّع، ومن هذه الحياة الزاهرة والزاخرة في السوق، فضلا عن تعدد التجار والباعة والبضائع، فتمكّن من رؤية الناس، ومن معاشرتهم، على اختلاف انتماءاتهم. ساهم كل ذلك في تفتح ذهنه وفكره، وباتت السوق مكانا مفتوحا على عوالم مختلفة، لا مجرد مكان مفتوح طوبوغرافيا. إنّه عالم بحد ذاته، فيه تنوّع من البضائع، وتنوّع من الباعة والمتسوقين. وهو تحفة في البناء وفي العرض يساهم في تفتح الذهن والذوق الفني ليوسف، الذي يستوحي منه أفكارا: «ويستمتع (يوسف) بمشاهدة السلع المعروضة: أقمشة فاخرة، وملابس مزركشة ومطعمة باللؤلؤ، ومحلات بهار تعرض التوابل المستوردة من بلاد الصين والهند، ومحلات تعرض البسط المجدلاوية المنسوجة على النول...».[٣٠]

هذا التنوّع في المعروضات وفي البضائع، ينمّ عن غنى أهل يافا الثقافيّ والفنيّ والفكريّ، خاصة، وفلسطين عامة. يسهب الراوي في تصوير يافا، بكل مرافقها، فتبدو في عين القارئ مدينة تزخر بالحياة، وهو ما يتناقض مع ما يروّجه الآخر بأنّ هذه البلاد كانت غارقة في بحر من الجهل والخواء الفكريّ والفنيّ. فالأمكنة تتشكّل من خلال الأحداث التي تقوم بها الشخصيات، وهذا يعني أنّ الفضاء الروائي يرتبط بمسار الأحداث السردية. فالإشارة إلى المكان تعني أن هناك حدثا قد جرى، أو سيجري به. وشبيه هذا القول يرد عند فيليب هامون الذي يرى «ان البيئة الموصوفة تؤثّر على الشخصية وتحفّزها على القيام بالأحداث وتدفع بها إلى الفعل، حتى إنه يمكن القول بأنّ وصف البيئة هو وصف مستقبل الشخصية».[٣١] أما جوليا كريستيفا فلم تجعله منفصلا عن دلالته الحضارية، بل إنّها تراه مرتبطا بثقافة عصر من العصور الذي تصوره الرواية.[٣٢]

ولذا فإننا نرى أن التصوير الخارجي له دلالات وأبعاد مقصودة. وعليه فإنّ هذه المدينة جزء من حضارة تستحق أن نُرسّخها في وجداننا كي تستحق التضحية. فمن أجلها لا يسارع يوسف في الاستجابة لطلب والده تركَ يافا، رغم رغبته في دراسة علم الهندسة في الأستانة، لأنه «في الوقت نفسه، لا يرغب في هجر فن الرسم، ولا يرغب في الاغتراب عن يافا. لا يرغب في الابتعاد عن البحر والمنارة والميناء والأسوار والأبراج والتلة وصخرة الأميرة والسراي وقصر الوالي والبيوت المتدرجة الحجرية [...] ولا عن ضجيج الحياة في الأسواق وتنوع الحياة وألقها وكثرة العابرين والزوار والسياح».[٣٣] كأنّي بالكاتب يتخفى خلف الراوي ليبث رسالة للقارئ مفادها أنّ هذه بلاد عريقة بفنّها وحضارتها وتاريخها وناسها. وسنرى أن مركبات مدينة يافا، من بشر وفن وحجر، تستحق أن يضحي المرء في سبيلها والحفاظ عليها، لأن الحفاظ على يافا يعني الحفاظ على المكان الأوسع. فكانت عودة يوسف من الغربة في بلاد الأناضول وانضمامه إلى المقاتلين للذود عن يافا، وإعادة بنائها، بمثابة عودة للدفاع عن هذا الرصيد وعن هذا التنوّع البشري، والتنوع الفكري الذي يغني

المدينة وأهلها.

من أبرز ملامح هذه الفترة، برأينا، هو إبراز الشخصية الشرقية والهوية الشرقية، فيافا مدينة وفيها صراعات واختلافات، لكن تفوح منها الأصالة الشرقية العربية، من فن الخط العربي والتزويق والملابس والأنسجة والرسم الراقي، التي تحمل جمال الشرق العربي وسحره، فضلا عن فن البناء الشرقي. هذا كله يحمله أبناء يافا، كجزء من رصيدهم، وينقله معه يوسف حيثما حل. وبفضل هذه الحضارة وهذا الرصيد، تمكّن أن يتحاور مع الآخر وأن يتواصل معه، خاصة حين يكون هذا الآخر ذا باع طويل في العلم والمعرفة، يعطيهم مما لديه، ويأخذ منهم ما ينضاف إلى رصيده، كي تكتمل الرؤيا الشمولية. لكنه مع ذلك يحمل معه نزق الشباب ونزق الشرق، رغم ما يتحلى به الشرق العربي من روحانيات.

إن يوسف، في تمثيله ليافا وللشرق العربي، تنقصه بعض الميزات التي يجب أن يتسلّح بها ليواجه الحضارات الأخرى، وهو ما سيكتسبه في مناطق الشرق الأخرى، ليعود إلى يافا أكثر وعيا وأكثر تعلقا بها وبأهلها.

ذكرنا أعلاه أنّ الفضاء في الرواية أبعد من أن يكون محايدا،[٣٤] وعليه نؤكد أن الكاتب خلق عالما فضائيا معادلا للشخصية المركزية، ولم نر غلبة للفضاء على الشخصية أو العكس. ونضيف أن فضاء يافا هو نقطة الانطلاق، وكأن وصف بحرها وسورها كان إشارة للقارئ أنّ يوسف سيتعدى هذا المكان إلى ما هو أوسع، أما ظهور الحوت فإنه يحمل نفس الدلالة لأنه يذكرنا بحوت يونس الذي حمله في بطنه ونقله إلى مكان أبعد.

المحطة الثانية: فضاء الغربة ونضوج الشخصية

لقد طرق الكثير من الروائيين العرب موضوع الغربة منذ نشأة الرواية العربية الحديثة، وقد برزت من بينها روايات هامة منها؛ عصفور من الشرق (١٩٣٨) للكاتب توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧)، قنديل أم هاشم (١٩٤٤) للكاتب يحيى حقي (١٩٠٥-١٩٩٢)، الحي اللاتيني (١٩٥٣) لسهيل إدريس (١٩٢٥-٢٠٠٨) وموسم الهجرة إلى الشمال (١٩٦٥) للطيب صالح (١٩٢٩-٢٠٠٩). هذه الروايات تناولت غربة الشرقي في الغرب الأوروبيّ، وصراع الشرق والغرب. أما في رواية راكب الريح فإن موضوع الغربة له فضاء آخر هو فضاء الشرق. ولذلك اتخذت الغربة معنى آخر مغايرا عما هو في تلك الروايات. فانتقال يوسف من بيئته الفلسطينية في يافا، إلى البيئة الشامية، ثم إلى الأناضول، كانت بهدف اكتمال الشخصية العربية الشرقية ونضوجها، واكتشاف الذات القوية لمحاربة التخلّف

الفكريّ، ممثلا بالإنكشارية وغيرهم، من ناحية، وطرد المحتلّ الغريب، من ناحية أخرى، ممثلا بنابليون وجيشه.

إذن الغربة في راكب الريح لها مفاهيم أخرى تتلاءم مع تلك الزمكانية، في ظل الإمبراطورية العثمانية التي تشمل كلَّ العالم العربي من مشرقه إلى مغربه، وفي ظل محاولة الغرب السيطرةَ على تلك الدولة التي كانت عليّة وقوية، يوما ما، ثم أخذت في التراجع ولبست ثياب «الرجل المريض»، فتطلع الغرب إلى تقسيمها والسيطرة على خيراتها، فكانت حملة نابليون إحدى تلك المحاولات، وكان العرب أهمّ ضحايا هذه الحملة، كما كانوا ضحية دول الغرب، في صراعهم على الشرق العربي، والسيطرة عليه وعلى خيراته.

إن فضاء الشام والأناضول فيه الكثير من معالم يافا وفضائها، ما عدا البحر، لكن الفضاء ليس مجرد موقع جغرافي، كما ذكرنا، فيوسف غريب عن ناسه، وعن نزلائه، الذين ينتمون لشعوب ذات حضارات وثقافات شتى، تسنى له أن يراها ويحسّها ويتحاور معها لأول مرة في حياته. ورغم ما يمر به من صعوبات، هناك، إلا أن هذه الغربة تزيده علما وتجربة وصلابة واستعدادا للمواجهة، على الصعيد الخاص، وعلى الصعيد العام.

إن فضاء يافا هو الفضاء الأساس في رواية راكب الريح، هناك بدأ حياته طفلا صغيرا يستفيد من الجامع ومن مدرسة الراهبات، تعلّم وتثقّف من الشرق والغرب، فالجامع رمز حضارة الشرق العربي الإسلامي، واللغة الفرنسية رمز للانفتاح على الثقافة الغربية. لقد وضع الروائي الأسس الرئيسية المتينة لشخصية يوسف، منذ الصفحات الأولى للرواية، وأعطاها من الميزات ومن الصفات ما يؤهّلها للمحاورة والانفتاح على عوالم عدة. وقد رأينا أن مدينة يافا ليست مجرد مدينة يعيش ناسها في إطار مغلق وضيق، بل رأيناها مجمعا لثقافات عديدة وتجارات متعددة، يسكنها أناس من قوميات متعددة، فتأهّلت الشخصية المركزية للمواجهة والانفتاح والمحاورة، وبُنيت بحيث باتت جاهزة للانتقال من ثقافة لأخرى، بدءا من تعلّمه في الجامع والمدرسة، مرورا بالشاطئ فالسوق، والتقائه بأناس متعددي الأهواء ومتعددي الجنسيات.

يقول جولدنستين: «يوظف كثير من الروائيين في رواياتهم فضاء مفتوحا، يترك للأبطال حرية الذهاب والإياب، والسفر، وقد يتيح لبعضهم إمكانية التطواف والجولان أيضا».[٣٥] ذكرنا أعلاه أنّ يوسف قد تنقّل بين عدة مدن فلسطينية هامة، لكنه لم يكتف بما تعلمه في يافا وعكا وحيفا، فسافر إلى الأستانة، وطاف في بلاد الشام والعراق، وقد استفاد من هذه التنقلات. أما جولته الأهم فكانت في بلاد الشام بعد إبعاده من يافا قسرا لمدة سنتين، فاستقرّ بها، ودخل إحدى مدارسها، كما احتك

بناسها عن قرب، وتجوّل في أسواقها وحاراتها الغنية، فاطّلع على ثقافاتها الغنية، ثم جاء انتقاله إلى الأناضول للاستشفاء، فكان له ذلك.

يسافر يوسف إلى دمشق، بعد أن «ودّع يافا، والسيدة «العيطموس» فائقة جمال الجسد والروح»،[٣٦] لا رغبة منه، بل لأنّ قرارا صدر من الوالي بإبعاده، بعد أن تواجه مع مجموعة من جنود الإنكشارية، كما ذكر أعلاه، فاستغلّ ذلك ليوسع من مداركه، ويحقق رغبته ورغبة والده في تعلم فن العمارة وتزيين القصور. يطّلع على فنون هندسيّة معماريّة لشعوب عدة معظمها شرقيّة وبعضها غربية.[٣٧] ويمضي أيامه في المدرسة وفي زيارة الحارات والأسواق، والاطلاع على الفنون المعمارية المختلفة، مدة سنة كاملة، لم يلتق خلالها بأهله، إلا مرة واحدة حين زاره أبوه أحمد آغا وأمه بهنانة.[٣٨]

يلاحظ القارئ إسهاب الراوي في وصف معالم دمشق، التي تقع كلها تحت مرأى عينيّ يوسف، بما فيها من غنى حضاريّ،[٣٩] لكنّ وجدانه يبقى مرتبطا بيافا. يسكن هنا «بيتا مريحا لا يأوي إليه إلا وقت النوم».[٤٠] أما هناك فكان له بيت وأهل وأحبة ينتمي إليهم جميعا، هناك كان يعرف كل حبة رمل من رمال يافا، وكل شجرة من أشجارها، وكل موجة من أمواج بحرها. أما هنا، في دمشق، حيث الفن والحضارة اللذان يروقان ليوسف، واللذان يُسهمان في تطور أدوات فنه ورؤياه،[٤١] فهو الغريب الذي لا يدرك أسرارها ولا يلم بزواياها وخفاياها: «هنا لا فسقية ولا شجرة ليمون، لا علّيّة ولا موقد، ولا نافذة تطل على غواية، هنا يحس بالغربة والوحدة والعزلة».[٤٢]

تضيق به الحال، رغم جمال المدينة وأصالتها وعراقتها، فالانتماء إلى المكان هو مجموعة من الأحاسيس والمشاعر، لكنّه هنا يشعر بانغلاق في الأفق، وإن كانت الشام ذات سماء زرقاء، وعامرة بالأسواق وبالناس. إن المدينة هنا، بالنسبة ليوسف، مصدر ثقافي هام، لكنه لا يشعر أنه قادر على تحقيق ذاته، كما كان عليه الأمر في يافا مسقط الرأس. فضاق ذرعا حتى وقع في الخطأ نتيجة غواية فتاة أطلّت من نافذة بيتها واستدرجته إلى بيت لا يعرفه إلا من الخارج، رغم القرب الجغرافي ورغم الجيرة، فيقع في الشرك، وحين يصل البيت يفتح له عجوز الباب، ويستدعي الدرك الذين يقودونه للتحقيق والمساءلة، ويعاقب حتى أدمت الكرابيج جلده. وكان قد وعد نفسه أن لا يقع في الخطأ: «كان تجنب النساء خياره، وتجنب الشهوة والغواية قناعته»[٤٣] لكنّ «الجني الذي يتزمّل في ثيابه يستيقظ».[٤٤]

عاد يوسف إلى البيت منهكا، فتذكر أباه وأمه «وصورة السيدة، سلسلة من الصور: بيت على التلال، قصر السيدة، عيناها الحانيتان، لوحتها ودفء روحها. عند القذارة نتذكر الطهارة. مرت في ذاكرته صورة يافا: دكان في السوق، أبراج ومدافع، رائحة صابون، خرير نهر، ظلال أشجار عالية، بساتين

برتقال، بيوت متدرّجة حولها سور، شباك صيادين، رائحة سجق، غزل ونسيج، فخار وخمور، معاصر زيت، خشب أرز، صخرة أميرة، جامع كبير، سبيل ماء، شجرة حرير، دودة قز، جبل ملح. عادت لذاكرته يافا وبكى».[٤٥]

تعود الذاكرة إلى حيث الألفة؛ هناك العائلة والأحبة، وكل زاوية من زوايا المدينة، بصورتها وهيئتها ورائحتها، يحضر المكان الأليف لطرد شبح الغربة. لن نأتي بجديد حين نقول إن رائحةً ما أو صوتًا ما يثير فينا الذاكرة، ونعود في مخيلتنا، إلى المكان الأليف الدافئ. فالمكان ليس صورة فحسب، بل هو كيان وروح. إن التكثيف أعلاه، في سيولة حضور المكان، يهدف إلى خلق حالة من التناقض بين البيت والغربة، بين الدفء والبرودة، بين «هنا» و«هناك».

يدخل يوسف في حالة من الاكتئاب، ويتغيّب عن الدروس أربعة أيام، توجّه نحو الجامع فقابل الشيخ الذي فسّر له أحلامه فأراحه، لكنه ما انفكّ أن وقع تحت إغواء نفس الفتاة، بعد أن تزيّت وتخفّت وقادته خلفها في أزقة ضيّقة حتى دخلا بيتا فخما مبهرا في أناقته وفي فرشه وأثاثه. فصرّحت له أنها تتعمّد إذلال الرجال، فتحدثت إليه من عل، واقفةً فيما هو جالس. وبعد أن أغوته وحرّكت كلّ مشاعره الحسيّة دعته إلى مغادرة البيت فورا.[٤٦]

لقد اعتاد في يافا أن يكون محط أنظار النساء الجميلات، اللواتي يتهافتن للنظر إليه والاجتماع به. هناك هو الفاتن الساحر، وهنا في الشام هو المسحور، في يافا هو القويّ، وهنا في دمشق هو المستضعَف، هناك في يافا الحب الطاهر العفيف، وهنا، في دمشق، الغواية والشبق الحسي. هناك البيت وهنا الغربة.

ورغم أنّ فضاء الشام غنيّ بموقعه وتراثه وتاريخه، بحيث أصبح مركز لقاء هام بين أقصى الشرق والغرب، فيه مساجد وكنائس وأسواق وحانات وخانات، وبرغم كونه فضاء مفتوحا على عوالم عدة، وغنيا بنبته ووردِه ولباسه وطعامه وشرابه، إلا أن أحوال يوسف تتبدّل، ولا تكون هي ذاتها كما كان في يافا. ففي يافا هو الفتى الذي يُغوي النساء، وفيها «العيطموس» كاملة الأناقة، رقيقة المشاعر، التي تتعامل معه بحسها المرهف وبجمالها الروحي. بينما هنا تتمكّن فتاة مجهولة الهوية تنبعث منها رائحة ساحرة جذابة من اقتياده خلفها، فيسير دون وعي في أزقة ضيقة كمن يسير مبهورا دون وعي، حتى أدخلته بيتا أنيقا ساحرا أشبه ببيوت ألف ليلة وليلة وقصورها، تختفي ثم تعود بعد أن تكون قد خلعت جزءا من ملابسها الملوكية، حتى بدت شبه عارية، لكنه يراها، وهي على هذه الحال، حيّة قاتلة ذات ناب أزرق، ولما سألها من أنت «أجابته بدلال: أنا الملكة.. أبحث في رعيتي من الرجال عمّن هو أكثر وسامة وأكثر جمالا وأكثر رجولة وأصطاده وأروضه، وأتزوجه،

وأقيم له حفل زفاف، وأقتله ليلتها، أميته موتا لذيذا، وأستمتع أكثر في لحظات احتضاره».[٤٧]

تبدلت الحال وباتت المرأة أشبه بشهريار، والرجل أشبه بشهرزاد، وبعد أن كان في كامل جبروته وقوته الجسدية والروحية، أصبح هنا في الغربة فاقدا حريته وسلطته، يسير من فشل إلى آخر في تجاربه النسائية، رغم سحره الشرقي، لكن هذه التجارب القاسية كانت كفيلة لأن تجعله يعود إلى ذاته ليكتشف سرّ ضعفه ومصدر قوته، في آن معا. فالغربة، بما فيها من صعاب، قد تودي إلى طريقين؛ إحداهما إلى الضياع، والثانية إلى اكتشاف الذات. يوسف كان مسلحا بيافا، بكل ما فيها من حضارة وثقافة، يافا تسكنه ويسكنها وكانت ترعاه وتحافظ عليه في غربته فزوّدته بالقوة والإرادة.

يأتيه الخلاص حين يلتقي صدفة بالرجلين الهنديين؛ المسلم والسيخي، فيثيران فيه حب السفر وركوب الريح، بعد أن سمع منهما، ومن غيرهما أخبار الشرق والغرب، من الصين حتى بلاد الغال، وذلك في لقاء جمعهم في باحة خان دمشقي يحضره تجّار من بلاد شتى، رأى ضيوفا وتجّارا يلبسون ثيابهم التقليدية، يتحدثون عن بلادهم وجمالها وجمال نسائها، استمع إلى غنائهم وأعجب بعزفهم، رغم جهله للغتهم، فدخل إلى قلبه الفرح، «كان ممتلأً بسلام نفسيّ وسكينة غامرة ويقظة تغريه بالتأمل».[٤٨] إن هذا اللقاء يمثل نقطة تحوّل هامة في حياة يوسف، وما كان ذلك ليحصل لولا كونه مهيّأً، من قبلُ، للتواصل مع الآخر، ولولا الثقافة الواسعة الشاملة التي اكتسبها في يافا واتسعت أكثر في دمشق الشام.

يستجيب يوسف لطلب الرجلين الهنديين، وينضم إلى القافلة التي تسير في طريق طويل حافل بالمشاهد والتجارب، حتى وصلوا إلى الأناضول. وبات، بعد التدرُّب عند الحكيم الهندي، قادرا على التحكّم بذاته، وبقوته الخارقة من خلال العقل والتأمّل. إن وجوده، ضمن هذا المكان، بما فيه من معالم خارجية ساحرة، ومن أجواء صوفيّة، قد ساهم في اكتشاف حقيقة ذاته؛ عرف، لأول مرة في حياته، أن القوة الكامنة به تابعة له وليست لقرينه، كما كان يعتقد. أصبح يوسف أكثر وعيا وتحرّرا فنظر إلى الجوهر، لا إلى المظهر. ولما سمع من الحكيم الهنديّ عن حملة نابليون، وما عاثه من قتل وتدمير، ترك الأناضول على جناح السرعة، وعاد إلى يافا، إلى المكان الأساس وإلى القضية الجوهرية، وهي طرد نابليون العدو الذي جاء ليبدّل ويغيّر معالم المكان وجوهره ومكانته.

لقد ارتبط يوسف اليافاوي بالميناء والبرج، وبكل حارة من حارات يافا، وبأزقتها وبيوتها. وحين رجع ورأى ما تركته حملة نابليون من تغيير معالم المكان، كان همّه الأول هو إعادة بناء المدينة لتعود إلى سالف عزها وشكلها. فانتهت الرواية وباب الأمل مفتوح على مصراعيه، على الصعيد العام وعلى الصعيد الخاص. يوسف قد اكتشف قوته النابعة من ذاته، لا من ذاك القرين المتوهَّم،

وجنّد كل ما اكتسب للحفاظ على المكان الأهم، مدينته يافا الجميلة والعريقة، وحظي من حبيبته بقبلة موعودة لم تحرق خدّها، كما حدث له في مغامرته الأولى، لأنه بات إنسانا آخر يدرك جوهر الحياة وجوهر المرأة وجوهر ذاته. أما على الصعيد العام فإن يوسف وأهل يافا فقادرون على بنائها لتعود إلى الحياة من جديد كطائر الفينيق.

خلاصة

لقد بنى الروائي يحيى يخلف روايته بصورة محكمة، إذ قام بتشكيل فضاء يافا الغنيّ، بحضارته وثقافته، وأشبعه وصفا، بحيث جعل القارئ يحسّ بمكانة هذه المدينة وأهميّة دورها، وانتهت الرواية باجتماع الشباب لإعادة بنائها، بعد عيث الخراب في بيوتها وأسواقها، وقتل أكثر من أربعة آلاف من أبنائها، وانتشار مرض الطاعون الفتاك. وبذلك اكتملت الصورة وتكشفت العلاقة الوثقى بين المكان والإنسان، فإذا كان المكان يحدّد صورة الإنسان ويؤثّر فيه، فإن الإنسان، كذلك، قادر على التأثير في المكان، وتغيير شكله وجوهره وإحيائه وبعثه من جديد. وبما أنّ يافا هي البيت الدافئ، فقد تحرّك يوسف وأهلها بدافع الارتباط العاطفي لإعادة بنائها. فبدت الأمكنة جزءا من الشخصيات، والشخصيات جزءا من الأمكنة يتبادلان التأثير والتأثّر ويكمل أحدهما الآخر.

اهتم كتاب الرواية الواقعية بتصوير المكان بصورة مشاكلة للواقع، لكنه، في روايتنا، لا يشاكل الواقع، ومع ذلك فهو يبدو في عين القارئ واقعيا، لأنه يحقق حيلة الفنان المبدع في عملية «الإيهام بالواقع». فصورة يافا؛ بأسواقها وقصورها وناسها على اختلاف مشاربهم، وقيانها وجواريها، وتحرك الشخوص في إطار الأمكنة المتعددة في الشام والأناضول، أقرب إلى «واقعية» ألف ليلة وليلة.

تتجلى قدرة الروائي وفرادته في رسم عوالم متكاملة أشبه بلوحة فنية قابلة للتشظي، كلما نظرت إليها اكتشفت بعدا جديدا فيها، فتحوّلت يافا، من مجرد مدينة، إلى رمز للمكان الأوسع والأشمل، وكما أن حيفا ليست مجرد مدينة في رواية غسان كنفاني عائد إلى حيفا، بل رمز أوسع وأشمل، هكذا هي يافا في رواية يخلف راكب الريح.

يتعرف القارئ على الشخصيات بشكل تدريجي، إذ يرسم الروائي صورتها الخارجية من هيئة وملبس، ثم يتغلغل في ثناياها، عبر التقنيّات الفنيّة، فيبنيها حتى تنضج، فتبدو في عين القارئ مخلوقا حيا ومعافى، بفضل الحوار والمونولوجات والأحلام التي تصل حد الفانتازيا. وقد انعكس ذلك في بناء الشخصية المركزية، إذ يشعر القارئ، بعد الانتهاء من قراءة الرواية، أنّ شخصية يوسف مكتملة ومشبعة بكل المواصفات، حيث حملت، في صغرها، مواصفات الفتى المغامر في البحر، النجيب،

الذكي والطموح، فتحقق الأمران في مرحلة لاحقة من مراحل بناء الرواية؛ اكتمل جسده مع اكتمال فكره واكتشاف كنه ذاته. غامر وأخطأ في صغره، وتابع في ذلك حتى اكتسب حكمة الحياة، من خلال التجارب، ومن خلال التنقلات بين أماكن عدة، فضلا عن احتكاكه بشخصيات مؤثّرة أهمها «العيطموس» والحكيم الهندي. فبدت الشخصية محكمة البناء.

نؤكّد، في هذا السياق، أن رواية راكب الريح ليست رواية تقليدية، رغم مبناها، بل على العكس هي رواية تجمع بين الواقع والخيال وبعض الفانتازيا. وعليه فإنا نرى أنّ الروائي يحيى يخلف قد تعدّى تجاربه السابقة باتجاه الحداثة، فقد فتح باب الخيال على مصراعيه وجعل الفانتازيا قريبة من الواقع. كما جنّد العديد من الوسائل لفتح أفق الرواية لتبدو رواية ديالوجية. وبالرغم من سيطرة الراوي المشرف الكلي المعلّق، إلا أنّ القارئ يتوه وسط الأصوات المتعددة، وذلك بفضل التشكيل اللغوي الذي يتلاءم مع تعدد الفضاءات والشخصيات، وبفضل التقنيّات الأخرى التي أتينا على ذكرها.

للرواية أبعاد عدة مهمة، منها البعد الفكري، إذ يرى القارئ أن التغيير المنشود الذي يحقّق الذات العربية، ويضعها في مكانها السليم، هو في التحرر الفكري والعقائدي، لذلك ليس عفوا أنّ بطل القصة رسّام وخطّاط وجوّال آفاق، يحارب في الداخل، كما يحارب في الخارج. ورغم كونه راكب الريح، إلا أنه ليس مجرد سندباد عربي مغامر فحسب، بل هو الإنسان الفلسطيني الذي آثر العودة، بعد رحلة الاستشفاء في الأناضول، إلى يافا الجريحة المصابة بوباء الطاعون، فيشارك مع الثوار والجنود، من أجل طرد الغريب، وإعادة بناء البلد من جديد. ومن هنا نرى يوسف، الباحث عن الحكمة، يلتقي بالحكيم الهندي وينسخ كتابه ليرسله صاحبه إلى الغرب حاملا رسالة الشرق للغرب: تعالوا لنعيش معا في ظل حكمتنا وحكمتكم، وفي ظل حضارتينا، دون سيطرة إحداها على الأخرى.

لم تنته الرواية باكتساب يوسف المعركة، كما يتمنى القارئ العادي، بل إننا نرى أن يوسف قد ساهم في فتح كوة للحوار بين الشعوب والأديان، وبين الشرق والغرب، عبر مساهمته في كتاب الحكيم الهندي «الشرق حكمة ومحبة وسلام».[٤٩] يتحول بطل الرواية إلى رمز ومثال للفتى الفلسطيني الباحث عن الحق في الحياة الحرة الكريمة، الحافلة بالحكمة والعلم والفن الراقي. فالحياة ستكون فارغة ومنقوصة بدون الفن؛ من رسم ونقش وخط وغناء ورقص وجمال أنثوي؛ داخلي وخارجي. ورغم الجانب العاطفي الهام في الرواية، إلا أن همّ يوسف الأول هو تحقيق الذات وطرد الغازي الغريب، ممثلا بنابليون وجيشه، وإعادةُ إعمار يافا، من خلال العمل الجماعي، لا العمل الفردي. لذلك لا تنتهي الرواية كنهاية الروايات التقليدية، ولا يجتمع الحبيبان ليبنيا عش الزوجية، بل تنتهي وقد تجمّع الشباب الثائر من أجل إعادة إعمار يافا.

المراجع

- باختين، ١٩٩٠ باختين، ميخائيل (١٩٩٠)، أشكال المكان والزمان في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- بحراوي، ١٩٩٠ بحراوي، حسن (١٩٩٠)، بنية الشكل الروائي، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- بحراوي، ٢٠٠٢ بحراوي، حسن (٢٠٠٢)، "مقدمة كتاب الفضاء الروائي"، في كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين، ترجمة عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، بيروت: افريقيا الشرق.
- بورنوف، و أويلي، ٢٠٠٢ بورنوف، رولان، وأويلي، ريال (٢٠٠٢)، "معضلات الفضاء"، في كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين، ترجمة عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، بيروت: افريقيا الشرق.
- بيلي، انجيلا، «الواقعية السحرية كيف نفهمها»، ترجمة خضير اللامي، مجلة الروائي، .alrowaee.com/article ٢٤,١٢,٢٠٠٨ ٢٩٨=?php
- تنفو، ٢٠١٠ تمفو، محمد ٢٠١٠)، النص العجائبي، مائة ليلة وليلة أنموذجا. دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.
- جولدمان، ١٩٨٤ جولدمان، لوسيان (١٩٨٤)، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة، محمد سبيلا، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
- جولدنستين، ٢٠٠٢ جولدنستين، ج، ب (٢٠٠٢)، "الفضاء الروائي"، في كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين، ترجمة عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، بيروت: افريقيا الشرق.
- جينيت، ٢٠٠٢ جينيت، جيرار (٢٠٠٢)، "الأدب والفضاء"، في كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين، ترجمة عبد الرحيم حزل الدار البيضاء، بيروت: افريقيا الشرق.
- الغذامي، ١٩٩٣ الغذامي، عبدالله (١٩٩٣) ثقافة الأسئلة، ط٢، الكويت: دار سعاد الصباح.
- حافظ، ١٩٨٤ حافظ، صبري (١٩٨٤)، «مالك الحزين"- الحداثة والتجسيد المكاني للرؤية الروائية"، فصول، مج٤، عدد٤، ص١٥٩-١٧٩.
- لحمداني، ١٩٩١ لحمداني، حميد (١٩٩١)، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- الماكري، ١٩٩١ الماكري، محمد (١٩٩١)، الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- مرتاض، ١٩٩٨ مرتاض، عبد الملك (١٩٩٨)، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
- موسى، ١٩٩٣ موسى، إبراهيم (١٩٩٣)، "جماليات التشكيل الزماني والمكاني في رواية الحواف"، فصول، مجلد ١٢ عدد ٢، ص٣٠٢-٣١٦.
- النصير، ١٩٨٦ النصير، ياسين (١٩٨٦)، إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- يخلف، ٢٠١٦ يخلف، يحيى (٢٠١٦)، راكب الريح، عمان- رام الله: دار الشروق.

- Wellek,1966 Wellek Rene, Warren, Austin, (1966), Theory of Literature, Harmondsworth: Penguin Books Ltd.

الهوامش

١ جولدمان، ١٩٨٤، ص١٠٤.

٢ لحمداني، ١٩٩١، ص ٦٥.

٣ Wellek & Warren, Theory of Literature, p .٢٢٠.

٤ انظر: موسى، ١٩٩٣، ص ٣١٣.

٥ انظر: حافظ، ١٩٨٤، ص ١٧٢.

٦ بحراوي، ٢٠٠٢، ص ٥.

٧ انظر على سبيل المثال: كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين.

٨ جولدنستين، ٢٠٠٢، ص١٩.

٩ ن. م.، ٢٠.

١٠ حول مفهوم «الواقعية السحرية انظر: تنفو، النص العجائبي، بيلي، ٢٤،١٢،٢٠٠٨.

١١ الرواية، ص ٥.

١٢ الرواية، ص ١٠.

١٣ الرواية، ص ١١.

١٤ الرواية، ص ٣٤٣.

١٥ الماكري، ١٩٩١، ص ٢٥٣.

١٦ الغذامي، ١٩٩٣، ص ٥٨.

١٧ ضحى الخطيب الفنانة التشكيلية التي رسمت لوحة غلاف الرواية.

١٨ لا يتسع المجال لمزيد من تحليل أبعاد الصورة، وقد اكتفينا بالتلميح إلى الفضاء الواسع المتعدد الجوانب، وبالحيز الكبير الذي تحتله صورة يوسف.

١٩ حافظ، ١٩٨٤، ص ١٧٣.

٢٠ انظر: ن. م.، ص ١٧٢.

٢١ انظر: بحراوي، ٢٠٠٢، ص ٦.

٢٢ جولدنستين، ٢٠٠٢، ص ٣٣.

٢٣ ن. م.

٢٤ Wellek & Warren, ١٩٦٦, p.٢٢١.

٢٥ الرواية، ص ٥.

٢٦ الرواية، ص ٨.

٢٧ انظر: جينيت، ٢٠٠٢، ص ١١.

٢٨ ن. م.، ص١١-١٢.

٢٩ الرواية، ص ٨.

٣٠ الرواية، ص ٧.

٣١ بحراوي، ١٩٩٠، ص ٢٩-٣٠.

٣٢ لحمداني، ١٩٩٠، ص ٥٤.

٣٣ الرواية، ص ٢٢-٢٣.

٣٤ بورنوف وأويلي، ص ٨٨.

٣٥ جولدنستين، ص ٢٣.

٣٦ الرواية، ص ١٦٩.

٣٧ للمزيد من التفاصيل انظر: الرواية، ص ١٦٩-١٧٠.

٣٨ الرواية، ص ١٧١.

٣٩ انظر: الرواية، ص ١٦٥-١٧٦.

٤٠ الرواية، ص ١٧٠.

٤١ انظر: الرواية ص ١٧٠-١٧١ جاء على لسان الراوي «أن يوسف كان مأخوذا بالتفاصيل الهندسية للواجهات المزدانة بالنقوش والزخارف والنمنمات...».

٤٢ الرواية، ص ١٨٥.

٤٣ الرواية، ص ١٧٣، وكان الراوي قد أكد ذلك من قبل، انظر على سبيل المثال: الرواية، ص١٧١ «ولم تكن تخطر بباله النساء».

٤٤ الرواية، ص ١٧٤.

٤٥ الرواية، ص ١٨٣.

٤٦ انظر الفصل التاسع عشر من الرواية: ص، ١٩١-٢٠٠.

٤٧ الرواية، ص ١٩٧.

٤٨ الرواية، ص ٢٠٦، للتوسع حول هذا اللقاء الذي يعتبر نقطة تحول في مسيرة يوسف انظر «الفصل العشرون»، ص ٢٠١-٢٠٦.

٤٩ الرواية، ص ٢٤٩.

ليلى الأطرش:
تظل الرواية ملاذي رغم أنني مارست جميع أنواع الكتابة

حاورتها بديعة زيدان

تعتبر الروائية ليلى الأطرش من أبرز الأصوات الإبداعية النسائية الفلسطينية والأردنية على المستوى العربي، فلها روايات حققت ولا تزال حضوراً لافتاً، أهلها للمشاركة في أهم المحافل الأدبية العربية، كما ترجمت لعدة لغات .. معها كان الحوار التالي:

لنبدأ من حيث إعلان فوزك بجائزة دولة فلسطين التقديرية عن فئة الآداب للعام ٢٠١٧، عن روايتك «ترانيم الغواية»؟ .. ماذا تعني لك هذه الجائزة وهي الأرفع فلسطينياً؟ وهل يختلف التكريم في بلدك عن خارجه؟

الاحتفاء والجوائز كلّها تصغر أمام اعتراف الوطن بمنجز الإنسان وفي أي مجال كان. لا شيء يعادل تكريم الإنسان من بلده.. والجائزة لها قيمتان عظيمتان فهي تحمل اسم فلسطين وعن روايتي عن القدس»ترانيم الغواية» .. صحيح أن الإعلان عنها تأخر لظروف سياسية قاهرة، لكنها وسام شرف على صدري بغض النظر عن أنها الأرفع فلسطينيا فكل ما هو من فلسطين هو الأرفع.

واكتملت سعادتي لأنني نلتها مع أسماء كبيرة أنا معجبة بإنتاجهم ومكانتهم، د.سليم تماري، ود. نهاد الموسى عن مجمل أعمالهما، ما يدل على عمل اللجنة الدؤوب والمنصف، وتكريم الفلسطيني في أي مكان أو موقع كان، وعلى اهتمام وزارة الثقافة الفلسطينية وتوجهها إلى إشراك كتاب الشتات في نشاطات الوزارة وتحقيق رؤية وزيرها الشاعر د. إيهاب بسيسيو بأن الثقافة مقاومة، وربما كان هذا التوجه هو الأجدى في تعثر ووعورة الظروف السياسية الراهنة.

فلسطينية أردنية

تعرفين نفسك أنت المولودة في بيت ساحور بالروائية الفلسطينية الأردنية .. لماذا اخترت هذا التعريف؟ وماذا يعني لك هذا المزيج ما بين بلدين توأمين؟

موضوع فلسطيني أردني من المسكوت عنه، وشكرا لإثارته لاعتقادي أنه يجب أن يثار بشفافية مطلقة ودون حساسيات أو مزايدات.. نعم أنا أول من استعمل هذا التعريف العام ٢٠٠٥ حين طباعة روايتي «مرافىء الوهم» في دار الآداب .. سألتني الناشرة هل أنت فلسطينية أم أردنية قلت أنا كلاهما.. وفي إصراري كتبت فلسطينية أردنية.

وبعدها استعمل كثير من الأدباء الفلسطينيين في الأردن هذا التعريف الذي وجدته أكرم بكثير من الإشارة إلى الفلسطيني الكاتب الذي يحمل الجنسية الأردنية «كاتب من الأردن»، أو «ولد لأبوين فلسطينيين في مخيم».. الشعب الفلسطيني والشعب الأردني وحدة واحدة دون أن تؤثر هذه الوحدة على الوضع السياسي لكل منهما، فدولة فلسطين ودولة الأردن دولتان توأم بينهما أواصر التواصل الأسري والارتباط العاطفي والتعايش الدائم والجيرة قبل نكبة فلسطين وحتى اليوم، فمن أول القرن العشرين هناك علاقة مميزة بين أهل السلط ونابلس، والخليل والكرك وغيرها، ولكن هذه الوحدة يجب ألا تؤثر على الوضع السياسي الراهن أو استقلال وسيادة أي منهما أو أن يكون أحدهما بديلا للآخر.

ولا ننسى أن سكان الضفة الغربية جميعا كانوا يحملون جوازات المملكة الأردنية الهاشمية وحتى فك الارتباط العام ١٩٨٩، وما زال كثير منهم يحملون هذه الجوازات، هذا بخلاف جميع الفلسطينيين في الشتات وقطاع غزة.

نعم أنا مولودة في بيت ساحور لكنني أقيم في الأردن وزوجي وأولادي أردنيون. ولا أدري لماذا لا يتوقف أحد عند التعريف «عربي أميركي، جزائري فرنسي، لبناني أسترالي، وتثير فلسطيني أردني هذه الحساسية، فلسطين وطني وكوني أردنية الجنسية لا يعني أن ولائي لوطني قد تأثر، فبرامجي التلفزيونية وكذلك روايتي رصدت الحياة الفلسطينية وأرّخت لها ربما أكثر من كتاب ليسوا في الشتات، فانتمائي لفلسطين ليس موضع مساءلة.

هذا الموضوع من المسكوت عنه ويجب الحديث فيه بشفافية مطلقة فالأصل الفلسطيني مكون واسع في الحياة الأردنية، والأردن احتفل بالأدباء من أصل فلسطيني ولم يميز بين الأردني الأصيل أو من أصل فلسطيني.

منحت جائزة الدولة التقديرية في الأردن العام ٢٠١٤ مع المرحوم جمال ناجي دون أن نسعى إليها

وعن مجمل الأعمال، بل لم نعرف أنها ستمنح لنا.

ومشاريع وزارة الثقافة الأردنية لا تفرق بالأصول بين الكتاب.. هذه الحساسية لا مبرر لها. فلسطين هي فلسطين وسيبقى الأردن هو الأردن ومن يحمل جنسيته هو فلسطيني أردني.

أعمال روائية

عشرة أعمال روائية ما بين «وتشرق غرباً»، و»ترانيم الغواية» .. حدثينا عن التحولات على مستوى السرد والمواضيع المتناولة، وهل تعتقدين أن «الترانيم» هي الأكثر نضجاً، أم أنه ليس شرطاً أن يكون العمل الأحدث أفضل من سابقيه؟

كل رواية لها موضوعها وبناؤها الفني وتقييم ذلك يعود إلى النقاد أكثر من نقد الكاتب لأعماله. ولكن في مشروعي الروائي حاولت دائما أن أجدّد في الشكل والموضوع وهو ما تنبه له النقاد، فمن النص الكلاسيكي في «وتشرق غربا» إلى تعدّد الأصوات في «امرأة للفصول الخمسة»، إلى تيّار الوعي في «ليلتان وظل امرأة» ثم بناء السرد على نمط تحقيق تلفزيوني في «مرافىء الوهم»، ثم الراوي السارد في «صهيل المسافات» و» أبناء الريح» وتعدد الأصوات من جديد في «رغبات ذاك الخريف». أما الترانيم فليست الأكثر نضجا ولكنها القدس التي أعشق.. حاولت اكتشاف أسرارها التي أغفلتها أو لم تعرفها سطور التاريخ، كشفت الكثير من المسكوت عنه في العلاقات الاجتماعية بين طوائفها.

الجوائز

ترشحت «ترانيم الغواية» إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) العام ٢٠١٦، كيف تنظرين إلى الجوائز الأدبية؟ .. وهل ترين فيها رافعة للرواية العربية أم عاملاً سلبياً؟

الجوائز تقدير للكاتب ويجب أن تكون رافعة لروايات تفوز بها.. الجوائز محفّز للقارىء وتكريس لاسم الفائز في الساحة الأدبية وعند القارىء العادي الذي لا يعرف ما يعتري اختيار الفائزين أحيانا.. للأسف أليات منح الجوائز في العالم العربي تحتاج ضبطا أكثر لمنع انتقال الأمراض الثقافية التي نخرت أهميتها للفائز وللقارىء كمؤشر على الجودة والتميّز.. المؤسف أن القارىء العربي العادي بدأ يحس بعض الإحباط من قراءة أعمال فازت بجوائز رفيعة ولم تكن على مستوى الفوز. كما أثير كثير من اللغط حول نتائج الجوائز بعضه محق.

بداية كنت ضد مشاركة «ترانيم الغواية» في ترشيحات البوكر لكنه إصرار الناشر لأنه اعتقد أن فوزها شبه أكيد لجدّة موضوعها وتناولها لحياة القدس. بالنسبة للترانيم لم يتغير الانتشار مع

القائمة الطويلة أو الآن، ربما لأنها تعرّضت للنسخ والبيع دون إذن الناشر وبأعداد كبيرة في عمّان وفلسطين، وهذه إشكالية أخرى.

وربما يفسر هذا صدور الطبعة الثانية بعد شهور قليلة من نشرها..بينما ما زال المعروض في الأسواق النسخة الأولى المزوّرة.

لماذا برأيك لا تبرز الروائيات العربيات على مستوى الجوائز وغيرها، كما حال الروائيين، فعلي سبيل المثال لا الحصر، لم تفز أية روائية عربية حتى الآن بأي من جوائز «البوكر» العربية منذ إطلاقها؟

المنجز الروائي النسائي العربي لافت للنظر في قدرته وتنوعه وتمكنه من أدواته الإبداعية. لم تعد الكاتبة أسيرة للمعاناة الشخصية والكتابة عن الخصوصية النسائية أمام التحدي الكبير لحياتها الشخصية والعامة. تناولت موضوعات تاريخية وسياسية واجتماعية وتفوقت فيها.. أما عن الجوائز فأنت تعلمين ما شابها وما زال.. وهذا السؤال يوجّه للجان .. هل يقرأون جميع الأعمال؟ كيف ومتى؟ أم تبهرهم الأسماء المكرّسة فعلا مما انعكس على النتائج؟

رواية نسوية

هل أنت مع مصطلح «الرواية النسوية»؟ .. إن كانت الإجابة نعم فلماذا وما هو مفهومك لـ«الرواية النسوية»، وإن كان لا فلماذا أيضاً؟

النسوية نظرية نقدية غربية لها كاتباتها والقراء المهتمون بها.. وهناك كاتبات نسويات مرموقات في العالم بدءا من فرجينيا وولف. لكنني أعتقد أن مفهوم المصطلح بعيد عن الحالة العربية والشرقية عموما حيث المجتمعات الأبوية والبطريركية التي تعتبر المرأة ملكية للعائلة، وبالتالي تصير المطالبة بحريّتها خروج على الناموس والسائد، وحيث الرجل والمرأة يعانيان القمع السياسي والفكري والاجتماعي، فتصبح المطالبة بحرية المرأة جزءا من النضال لتحرير المجتمع وتمكينه.. لنطالب بحرية المرأة في قرارها وجسدها لا بد من تحرير العقل الذكوري من رؤيته لنفسه والمرأة ومجتمعه وإلا قتلها أو شدد من رقابته عليها.. ولهذا ارتفعت نسبة جرائم الشرف في الوطن العربي وبعض الدول الإسلامية في الردة الفكرية والاجتماعية والإحباط السياسي الراهن.

أعتقد أنه لا بد من تحرير الرجل والمرأة معا وفي خطين متوازيين.. أنا أؤمن بالنسوية الاجتماعية، أي أن تكتب المرأة تجربتها في السياق الاجتماعي فللمرأة العربية خصوصيتها كفرد في مجتمعات أبوية تتعرض أوطانها لحروب وصراعات جعلت الحديث عن المعاناة الشخصية للنساء وحدهن ضربا من الرفاهية.

الأعمال الكاملة

أصدرت الأعمال الكاملة في العام ٢٠٠٦، ولكن بعدها كان لك العديد من الإبداعات السردية .. ألا تعتقدين أنك استعجلت في إصدارها، أم أن الفكرة هي أن عروض طباعة الأعمال الكاملة ليست مضمونة التكرار في أي وقت؟ .. أم ماذا؟

أمانة عمان هي صاحبة الفكرة والناشر للأعمال الكاملة لي ولبعض الكتاب بعد احتفالات عمان عاصمة للثقافة العربية، وكان رأيي أنها جاءت مبكرة ولكن الشاعر المرحوم عبد الله رضوان وكان مسؤول الدائرة الثقافية في أمانة عمان هو صاحب الفكرة ومن أصرّ وأشرف عليها. نعم كانت مبكرة لكنها خيارهم.

في القصة القصيرة

يهمنا إطلاع القارئ على تجربتك في القصة القصيرة؟ وهل تعتقدين أن القصة القصيرة تحتضر أم أنها عادت لتنتعش خاصة بعد إطلاق جائزة الملتقى للقصة القصيرة العربية في الكويت؟

بدأت الكتابة بالقصة القصيرة التي نشرت في الإذاعة والصحف المقدسية آنذاك، وكان ذلك وما زلت طالبة في الثانوية، ومتوازية مع كتابة روايتي الأولى وأنا في الصف الثاني الثانوي، أي قبل «التوجيهي» بسنة واحدة، والتي لم تنشر حين طلب الناشر مبلغا كبيرا لم أكن قادرة عليه، وتركت الكتابة الإبداعية للدراسة والعمل في صحيفة الجهاد محررة وكاتبة عمود يومي ثم مسؤولة التحقيقات الصحافية، ثم في جريدة الدستور بعد النكسة، وتخصّصت في العمل الإذاعي والتلفزيوني مذيعة ومنتجة لبرامجي فشغلني ذلك عن الكتابة طويلا.

وحين عدت كتبت رواية لأنني أجد فيها نفسي، أحب البناء الروائي والمساحة لتنامي الشخوص والأحداث .. القصة القصيرة ومضة جميلة تختزل الأحداث.

لا أعتقد أن القصة القصيرة ستنتهي بالعكس الآن نجد ازدهارا لها من كتاب مخلصين لها وإن تحوّلوا إلى الرواية وجمعوا بين الفنّين باقتدار.

هل طلقت ليلى الأطرش القصة القصيرة إلى غير رجعة أم ماذا؟

القصة القصيرة دائما في الخاطر، وقد كتبت حديثا بعضا منها وترجم ونشر في أميركا، لكنني تأخرت في نشر انتاجي الأدبي حين شغلني الإعلام، وأفضل أن أكرّس الوقت لشغفي الأول الرواية.

الكتابة للمسرح

وماذا عن الكتابة للمسرح ...؟ وهل من مشاريع قادمة في هذا الإطار؟

التوجه للكتابة للمسرح كان بإلحاح من المخرجة مجد القصص، ونجحت التجربة الأولى مسرحية « أوراق للحب» بشكل لافت فقد أدخلت رؤيا جديدة ومفردات لم تكن متداولة على الخشبة، عن الفساد وعمالة الأطفال والحرص على البيئة والتهديد النووي للعالم ،النجاح جعلني أكرر التجربة مع مجد القصص أيضا بمسرحية «البوّابة خمسة» التي حققت نجاحا لافتا بعروض قاربت الأربعين في الأردن وخارجه، ونالت جائزتين، تناولت هجرة العرب لأسباب مختلفة، أحلام الشباب التي يرونها خارج بلدانهم، العراقي والأردني والفلسطيني، العائلة والفنان وطالب العلم، والمحاصرين في غزة.

ثم كتبت مسرحية»قوارير العسل» ولم تنتج بعد عن أشكال جريمة الشرف عبر التاريخ ومعاناة المرأة منذ الجاهلية وحتى اليوم. شرائح نسائية عربية متفاوتة المنبت والثراء والثقافة والجغرافيا.

ثم كتبت مسرحية فنتازيا موسيقية للأطفال «أحلام زرقاء اليمامة» عن انحسار اللغة العربية وضعفها بين الأطفال من خلال مزج شخوص تراثية مع الحاضر لمناقشة عدّة قضايا المواطنة والبرلمان وغيرها مما يجب أن يتعلمه الطفل دون تلقين. المسرحية من انتاج مؤسسة شومان وحققت نجاحا لافتا في عروضها الأولى وستنفذ المخرجة غادة سابا عشرين عرضا في المحافظات المختلفة بعد عرض خاص لأطفال مرضى السرطان وشاركت في عرضين خارج المنافسة في مهرجان مسرح الطفل الرابع عشر في الأردن لكن خارج منافسة عروض موّلتها الوزارة.

لا شيء في حياتي يعادل شغفي بكتابة الرواية تظل هي ملاذي رغم أنني مارست جميع أنواع الكتابة، المقروءة والمسموعة والمرئية.

سيرة ذاتية

كتابة السيرة الذاتية ليس بالأمر الهين، وله العديد من أشكاله .. ماذا عن «نساء على المفارق»؟ وهل من حكاية وراء إصدارها؟ وهل من الممكن أن نشهد جزءاً ثانياً منها؟

«نساء على المفارق» جزء من سيرتي الذاتية العملية، وقصة كتابتها وضعتها في المقدمة لتبيّن الدوافع لكتابتها .. تحتفظ بما تعرف، وتعتقد أن تجاربك لك وحدك، وأنها لن تهمّ سواك، وحتى يطالبك بها غيرك. صوت يؤمن أن في ذاكرتك ما قد يختلف.

يفجّر فيك رغبة الاستعادة والبوح، يقنعك أن ما في عمرك قد يعني آخرين، يهتف بك صوت من لم تلتق، يحرّضك أن تنبش ذاتك، ويلح على أن توقظ لحظات التصادم مع بشر وأمكنة حين فردَت لك الحياة شراع الحياة والتماس.. تصير شاعر ربابة على درب».

لم أنهج الأسلوب التقليدي في السيرة بترتيب الزمان أو الأحداث، كانت النساء السبع قد ارتبطن في ذاكرتي بالمكان والتحمت كل بمكانها حتى باتت صورتها تقفز إلى الذاكرة كلما تذكرت المدن التي صادفتهن فيها. كل معاناة شخصية لإحداهن هي قضية عامة للنساء جميعا، الفتاة الكينية المسلمة التي التقيتها في جامعة أميركية تعاني الانفصام لأن والدها يصر على دراستها في أميركا والحصول على شهادة مميزة لكنه يسمعها القرآن ليل نهار خوفا عليها من الشباب، ويرهبها بعذاب النار لو اندمجت في مجتمعها الجديد أو قبلت بأفكاره، هي تعاني الانفصام لكنها قضية معظم المهاجرات إلى الغرب من الشابات الصغيرات، التجاذب بين الماضي والعالم الجديد .. كما التقيت في الجزائر العاصمة إحدى بطلات الجزائر «الجميلات»، وهي جميلة بو باشا، المناضلة التي عذبها الفرنسيون مع زميلتيها جميلة بوحيرد، التي صارت رمزا للمقاومة، وجميلة بو عزّة.

جميلة بو باشا تعرّضت لتعذيب وحشي واعتداء فاق كل وصف.. فتاة جميلة رقيقة تتحدث الفرنسية أكثر من العربية، أثارت قضيتها سيمون دو بوفوار وجان بول سارتر وألّفا عنها كتابا رسم على غلافه الفنان العالمي بيكاسو بورتريه للمناضلة الفاتنة، لكنها لم تحظ بشهرة جميلة بوحيرد لأسباب كثيرة.

ظلت تبكي أثناء مقابلتي التلفزيونية معها لأنها رأت النهاية المظلمة التي وصل إليها الحال في الجزائر بعد التحرير، وصعوبة تأهيل المحاربين ودمجهم في عملية بناء الدولة الحديثة.. مثّل إهمال الدولة لها بعد التحرير، وإنهاء دور المناضلات، ومشكلة المناضلين والأسرى في كل بلد ناضل وتحرر، والردة الفكرية وإهمال المناضلين والدعوة إلى عودة المناضلات إلى الخدور وإلى الصورة النمطية للمرأة في البيت والإنجاب وانهاء مشاركتها بعد الاستقلال.

ثم قصتي مع ربى الطفلة الفلسطينية في مخيم صبرا وشاتيلا بعد المذبحة الرهيبة لأهله.. وصفت لي ما رأت وسمعت ليلة المذبحة بينما سكت الرجال خوفاً من انتقام أطراف عربية شاركت في المذبحة.. طفلة راقبت وسمعت ما دار في الليلة الرهيبة، وحين جزع رجال المخيم من الحديث لي عن تلك الليلة وقفت أمام الكاميرا بجرأة وثقة وروت ما شاهدت وسمعت.

جرأة الفتيات الفلسطينيات متناهية، لا تعرف الخوف، سواء في مقاومة الاحتلال أو في الصراعات الإقليمية التي ارتدت مرات عديدة إلى الفلسطيني في الشتات.

وفي المذكرات قصة قتيلة الشرف المسيحية في بيت لحم، والمرأة الأميّة التي حرمت من التعليم فعلمت أبناءها والتقيتها في مطار عمّان.. هي قصص شخصية لكنها عامة لهذا اخترتها في كتاب هو جزء من سيرة غير تقليدية.

حوار القلم

موقع «حوار القلم» الالكتروني تجربة مغايرة ومميزة في مسيرة ليلى الأطرش أضفت لها الكثير، وربما أضافت لك .. حدثينا عن هذه التجربة: كيف انطلقت؟ وما أهميتها في مسيرتك الإبداعية؟

مركز القلم الأردني تجربة جميلة بدأت مصادفة، أثناء حضوري لمؤتمر فيه أحد أعضاء القلم الدولي الذي سألني إن كنت أقبل بتأسيس مركز للقلم الأردني يجمع الكتّاب والمترجمين والتشكيليين وكل الفنون المتصلة بالكتابة للدفاع عن حرية التعبير والمرأة والسلام والتواصل مع كتاب العالم.. تأسس مركز القلم في العام ٢٠٠٧، ثم أطلقنا موقع حوار القلم الألكتروني العام ٢٠١٠ لمد جسور التبادل الثقافي مع كتاب العالم والتعارف بيننا في عصر التواصل.

تم إنشاء الموقع بدعم من مركز القلم في الدنمارك، وكان التشارك لمدة عامين، ثم انطلقنا وحدنا.. وكان المركز الإلكتروني الأول بين كتاب حوض المتوسط ناشط جدا بالتعريف بالكتاب باللغتين العربية والإنكليزية، وترجمة أشعارهم وبعض نصوصهم وتبادل الأخبار الأدبية، لكن للأسف قلة التمويل وسفر المحرر والمترجم للعمل في دبي جمّده منذ عامين.

التبادل والالتقاء مع كتاب العالم، ولو في المؤتمر السنوي للقلم العالمي فرصة للتعريف بقضايانا وسوء الفهم حولها، سواء الناتج عن الجهل أو سوء نيّة بعض الدول ومواقفهم.

استطاع القلم الأردني مع المراكز العربية الأخرى منع مشاركة القلم العالمي بمؤتمر حيفا تحت مظلة وزارة الخارجية الإسرائيلية مثلا، ومنع تمرير قرار من الكتاب بأن من لا يعترف بالمحرقة لا يعتبر كاتباً، وأن على الأردن الاعتناء باللاجئين العراقيين وكتابهم أكثر، والكثير من القرارات التي كان يمكن أن تمر لولا تنبه المراكز العربية لما يحاك أحياناً تحت ستار حرية الرأي والتعبير.

أعتقد أن التواصل مع القلم العالمي، الذي يمثل برلماناً موسعاً لكتاب العالم من ١٥٦ دولة ولغة، هو فرصة للكتاب العرب للتعارف وتقريب وجهات النظر وشرح قضايانا وظروفنا خاصة ما يتعلق بالمرأة واللاجئين وحرية التعبير.

مكتبة الأسرة

.. وماذا عن مشروع «مكتبة الأسرة»؟

طلب مني أن أكون عضوا في اللجنة الوطنية العليا لمشروع مكتبة الأسرة الأردنية مع مجموعة كبيرة من أسماء كبيرة من التنويريين والأكاديميين المرموقين والمشهود لهم بالاطلاع. وكان وزير الثقافة آنذاك هو الدكتور عادل الطويسي، وبشهادة جميع المثقفين هو من أفضل وزراء الثقافة، صاحب رؤية وقرار.

فعّلت الوزارة اتفاقية بين الأردن ومصر في التعاون الثقافي، فذهبت إلى مصر مع أحد مسؤولي الوزارة واطلعنا على تجربة مصر الرائدة في هذا المجال، وحين اختارت اللجنة العناوين أرسلت لنا مصر نسخة منها فأعدنا طباعتها وبيع الكتاب بـ٢٥ قرشا وكتاب الطفل بعشرة قروش، بينما تكلفة الكتاب الواحد جاوزت دينارا ونصف الدينار.

سخّرت خبرتي الإعلامية حين كنت رئيسة اللجنة الإعلامية للمشروع للدعاية لفكرة مكتبة في كل بيت وكثير من الشعارات التي ما زال المشروع يستخدمها، وقد نفذت معظم العناوين في اليوم الأول رغم أننا أصدرنا خمسة آلاف نسخة من كل عنوان.

حين تغيرت اللجنة لم تسر اللجنة الجديدة على الأسس التي وضعتها اللجنة المؤسسة، وتغير الوزير، وللأسف شابت المشروع المجاملات والخواطر وخرج عن الهدف الأساسي وهو التنوير إلى المجاملة في طباعة عناوين للأصدقاء وتكرار الأسماء، وافتقر إلى الإعلان الجيد، فصار احتفالية لا يشعر بها أحد، وتكدست مطبوعاتها في المخازن.

محزن أن معظم المشاريع الثقافية العربية أفكار مميزة ورائدة لكنها تصاب بأمراض الوسط الثقافي العربي فتخرج عن مسارها والهدف الأسمى لها.

من بين ستّين امرأة

قبل عشر سنوات تم اختيارك كواحدة من أنجح ستين امرأة في العالم العربي .. ماذا شكل ذلك بالنسبة لك، وكيف تم البناء عليه؟

فوجئت باختياري فعلا فلم أفكر يوما بهذا، أعرف أنني أنجزت كثيرا وحققت بعض أهدافي وعلى رأسها أن أكون مؤثرة في مجتمعي وأن أغيّر في الفكر السائد، ولهذا كان لي دائماً منابر إعلامية أطل منها وأنشر أفكاري حول المسائل الراهنة التي لا تستوعبها الكتابة الإبداعية، كانت لي المقالات

والبرامج الإذاعية والتلفزيونية واللقاءات والمؤتمرات.. ربما كان هذا هو معيار الاختيار، أو لأنني من الرائدات في العمل الصحافي وإصراري على تقديم برامج ثقافية في مجتمع كان يحارب الأمية الحرفية آنذاك.

وكما قالت صديقتي الشاعرة روز شوملي وهي من مدينتي أيضاً «ليلى الأطرش قفزت جميع الحواجز وظلت واقفة»، ربما كان هذا معيار الاختيار.

لا أدري، لكنني نشأت في عائلة وبلدة محافظة، تعرضت لنبذ اجتماعي عندما بدأت صوري تظهر يومياً في صحيفة الجهاد المقدسية، وحين لبست فستانا قصيراً و»بدون كم» لأول مرة، وحين كتبت عن قتل الشرف وتبنيت الدفاع عن تحديد الأسرة، وكنت أول من كتب فيهما وما زلت طالبة في السنة الأولى الجامعية، أو حين نشرت تحقيقات صحافية عن إهمال الأطباء في مستشفى البشير وأوضاع السجن المركزي في ماركا وحجز المومسات مع السجينات السياسيات، وقد تم فصلهن بعد التحقيق، لكنني تعرضت لهجمة شرسة شخصية من الأطباء حين نشرت صورهم، ووصفت ما دار في غرفة العمليات من اهمال، وحين أنهيت خدماتي تعسفيا من تلفزيون قطر قلبت الصفحة وعدت لكتابة الرواية حتى طلبوا عودتي بعد سنتين فعدت.

فرض الثقافة في مجتمع النسبة الكبرى منه غير مثقفة، ولا تفرق بين دور المذيع والممثل، تحد اخترته بوعي لأن رسالتي هي التنوير .. تعرفين أنني لو سلكت برامج الترفيه والمنوعات لحققت مكاسب وشهرة أكثر من البرامج الثقافية التي يعتقد دائماً أنها للنخبة، لكنني سعيدة بما أنجزت، حيث قابلت من كبار الشخصيات الفكرية والأدبية والسياسية في جميع أنحاء الوطن العربي.. أعتقد أن النجاح هو أن لا تفكر إلا في انجاز هدفك.. وأكبر المشاريع الناجحة في حياتي هم أولادي ثم رواياتي.

حكمتي في الحياة أن تركض معها وأن لا تلتفت إلى الخلف.. إطوِ أية صفحة تنتهي وامشِ.. الالتفات يؤخر المسيرة.. الآن الفضاء الإلكتروني منبر لأفكاري، وأنا سعيدة بالتواصل مع العالم الافتراضي، وأركز على كتابة الرواية لتعويض ما فاتني أثناء عملي الطويل في الإعلام,

على مدار ثلاثة أعوام تم اختيارك من قبل جامعة عمان الأهلية وحركة «شباب نحو التغيير» كشخصية العام الثقافية، كيف تنظرين إلى هذا الإنجاز؟

ربما كان هذا أفضل معيار لتقييم النجاح.. وهو من أفضل ما حصلت عليه من تكريم.. أن أصل بأفكاري إلى الشباب وطلاب الجامعات، كانوا من المتابعين لمقالي الأسبوعي ولمدة عشر سنوات في

جريدة الدستور الأردنية، ثم توقفت حين صار سقف ما أكتب أعلى من احتمال الجريدة قبيل ما سمي بالربيع العربي، ثم حاولوا أن أعود للكتابة معهم ولكنني أعتقد أن الفضاء الألكتروني الآن واسع ويحتمل الأفكار المباشرة في القضايا الراهنة.

هاجس الترجمة

الترجمة لدى البعض هاجس، وليلى الأطرش كروائية وقاصة ترجمت لتسع لغات .. ماذا يعني لك ذلك؟

الترجمة جسر للتواصل بين الثقافات، تخلق فهما مشتركا ومعرفيا بين شعوب تعرّفنا على واقعها الاجتماعي والثقافي وتأريخ شعوبها من خلال آدابها المترجمة. سواء أكانت ترجمة جيدة صدرت عن مراكز حكومية كبرى للترجمة. أو ترجمة تجارية لبعض دور النشر لكنها طبعات شعبية وصلت للقراء. عرفنا قصص النضال في العالم، تحرير العبيد في أميركا، التحول إلى الاشتراكية في روسيا القيصرية، نضال أميركا اللاتينية، وخصوصية المجتمع الياباني والصيني.

لكن للأسف وهم الترجمة بين الكتاب العرب يظل هاجسا.. سهل أن تترجم كتابا أدبيا أو غيره لكن من سيوزعه ومن المستهدف من الترجمة..إن لم يتوفر الناشر الجيد والتسويق والدعاية تظل الترجمة محصورة في النطاق الأكاديمي، وهذه مشكلة الأدب العربي المترجم.

من السهل ترجمة العمل لكن ليس هناك مؤسسات تسويق له ونشره بين العامة وبطبعات شعبية باللغات التي ترجم إليها أو تسويق الكاتب والكتاب المترجم كما في الدول الأخرى، لكن تظل الترجمة أمرا ضروريا.

شباب في الصدارة

ثمة روائيون وروائيات من جيل الشباب باتوا يتصدرون المشهد الروائي وما يرافقه من تداعيات إعلامية، هل هو الإبداع الجديد؟ أم ثمة أسباب أخرى برأيك؟

لا تقاس الموهبة والكتابة الجيدة بالعمر، كثير من الكتاب أبدعوا في شبابهم وكثيرون هرموا كما بدأوا.. الشباب متحمس للشهرة وسهولة النشر التجاري وإغواء الجوائز العربية والعالم الافتراضي عوامل مهمة في انتشار هذه الظاهرة.. لكن من حق الشاب أن ينشر إن اعتقد أنه كتب ما هو مختلف، ومن حقه النجاح والشهرة.. يبقى هنا أن غياب النقد والمجاملات أسهمت في سلبية الظاهرة.

المشهد الروائي

كيف تنظرين إلى المشهد الروائي في فلسطين والأردن؟

لا يختلف الأدب في أي من الدولتين عن أي مشهد عربي آخر، نفس الهموم وتشابه التجربة.. وهناك إبداع تجاوز بعض التجارب العربية وترجم إلى لغات العالم.

لمن تقرأ ليلى الأطرش؟

للجميع، وفي شتى الموضوعات، الدين والبحوث كما الآداب، لكنني أحرص على جديد إيزابيل أللليندي.

من يلفتك من الروائيين الشباب (شباناً وشابات) في فلسطين والأردن وعربياً، وما يميز كل منهم؟

لا يمكنني الاختيار، فقد بدأت التعرف إلى كتاب فلسطين في السنوات الأخيرة، هناك أسماء كبيرة لشباب في الضفة وغزة وفلسطين المحتلة العام ٤٨، وأخشى أن يفلت مني اسم لامع.. لقد قرأت العديد منهم بعد أن اشتريت انتاجهم في معارض الكتاب في رام الله.. كل منهم له خصوصية تميزه.

ترانيم الغواية

في «ترانيم الغواية» سلطت الضوء على البعد المسيحي في القدس؟ .. لماذا اتجهت إلى هذه الزاوية؟

ليست رواية عن المسيحيين العرب وإن احتلوا جانباً مهماً فيها، الرواية قصة القدس: حب وصداقات وتحولات اجتماعية وفكرية وعمرانية للمدينة المقدسة في أزمانها الكبرى، سقوط الدولة العثمانية والانتداب، ثم الاحتلال الإسرائيلي الأول والثاني وما تبع ذلك من رصد لمكوناتها الاجتماعية ، تآلف بشرها وخلافاتهم .. صداقات النساء من ملل وأعراق مختلفة.. الرواية عكست تنوع المدينة الحضاري.

ليست رواية عن المسيحين العرب وإن احتلوا جانبا مهما فيها .. الرواية قصة حب بين عمّة الراوية التي ما زالت تعيش في بيت العائلة في القدس القديمة، بينما هاجرت العائلة كلها، واستعادتها لصداقتها مع مقدسية مسلمة هي زوجة سادن الحرم الشريف.

الفكرة بدأت بعد قراءات عديدة لمراجع تاريخية واجتماعية والمذكرات الشخصية لبعض المقادسة بهدف معايشة أزمنة لمدينة تسكنني، أنا أعرف القدس القديمة حجراً وشارعاً وأسواقاً، وأطلّت

القدس في روايات أخرى لي، مثل «وتشرق غرباً»، و»مرافىء الوهم»، لكن الترانيم هي رواية القدس وحدها.

عدت إلى المدينة لأعرف المسافات والشوارع ومعالم القدس الجديدة التي لم أعرفها، وإن وصفت قسما منها في روايتي الأولى «وتشرق غربا» .. عدت للبحث وهدفي كتابة رواية عن مجتمع القدس بداية القرن الماضي، وفي زمن التحولات الكبرى للمدينة.

جغرافياً توسّعت إلى القدس الغربية، واجتماعياً وحضارياً وسياسياً هناك الكثير من التحولات .. انصب اهتمامي على أوضاع نساء المدينة من أطياف مختلفة، فكتب التأريخ أغفلت أوضاع النساء والحياة الأسرية، وتحدثت عن رجالات القدس من الملل المختلفة والصداقات والنزاعات بينهم .. قليل نادر كرّس رموزا نسائية.

بقي قطاع النساء في الظل رغم التطورات الكبيرة التي عاشتها المدينة بداية القرن العشرين.

أثناء البحث في كتب التاريخ والوثائق والإقامة أسابيع في المدينة والتجوال والحديث مع الناس لفت نظري تقلّص حجم المكوّن المسيحي للمدينة، وازدهاره في الفترة التي أريد رصدها، إذ شكّل ٢٥٪ من سكانها.

وتوقفت عند دور بعض رجالاتهم في الأدب والفكر والتربية والتعليم والصحافة والجهاد الوطني، ثم صراع طائفة العرب الأرثوذكس ضد الاحتلال التركي واحتلال خفي آخر هو سيطرة الكهنوت اليوناني على أملاك الكنيسة ومحاولة العرب الأرثوذوكس تعريب كنيستهم مما لاقى صدّا قاسيا من اليونان والأتراك معا، ومنعوا العرب من الوصول إلى مراتب عليا في الكهنوت، ومنح اليونان حقّ التصرف الأحادي بأملاك الكنيسة الواسعة في مختلف مناطق فلسطين.. والتحالف المريب بين عدوين تقليديين هما الأتراك واليونان ضد العرب الأرثوذكس.

ثم بيع الأراضي للمحتل الإسرائيلي. وهي قضية عمرها مئة عام وسقط فيها بعض أبناء الطائفة فتوقفت عندها مع مزيد من القراءات والبحث، رغم رفض أي من رجال الكهنوت مدّي بأية معلومات.

والمكون المسيحي في المدينة على حجمه الكبير آنذاك لم يظهر في أية رواية فلسطينية أو عربية، وهو الجديد الذي جذبني إليه، إضاءة منطقة لم يقترب منها أحد، وتتعلق بالصداقات والتآلف بين المسلمين والمسيحين والتجاذب أحياناً.. ولو أردت تصوير حياة القدس الآن بالتأكيد لن يكون للمكون المسيحي فيها ذاك الحضور لأن نسبة المسيحيين الآن ومن جميع الطوائف لا تزيد عن ٢،٥٪. فقد أفرغت المدينة من هذا المكون نتيجة الهجرات المتعددة التي شملت المسلمين أيضاً.

من خلال البحث وزيارتي المتكررة للقدس ولقائي مع سيدات من كبار السن تكونت شخوص الرواية، حيث امتزج الواقع بالخيال في صداقة زوجة سادن الحرم والعمّة، وقصة الحب بين الأرملة والخوري، لأنفذ منها إلى كشف الممارسات الكهنوتية اليونانية ضد العرب ومحاولات تعريب الكنيسة والصراع بين العائلات التقليدية «قيس ويمن»، والحياة الخفية لبعض رجالات القدس في عين كارم المصيف الجميل للمدينة.

الروائي يتوقف عند المسكوت عنه، ويستهويه الجديد الذي لم يطرقه غيره، ولأن المكوّن المسيحي في الرواية يكتب للمرة الأولى وبجرأة وحيادية لفت نظر النقاد وبدأوا الحديث عن المسيحيين في الرواية رغم أنها رواية القدس بكل طوائفها، عن شيوخها وانقسام زعمائها ونضال رجالاتها وصداقات نسائها وتمدّدها العمراني خارج أسوارها، وهي رواية عين كارم أيضا.

إن اختصار الرواية بالحديث عن المسيحيين عدم إنصاف للعمل وللجهد الذي بذل فيها.

هل يمكن للروائي تجسيد المكان وهو يقيم بعيداً عنه؟ خاصة مع التحولات الكبيرة في القدس كل يوم بصدد تهويدها بالكامل؟

هناك كتاب عالميون وعرب كتبوا عن مدن لم يعيشوا فيها، ونالت القدس نصيباً وافراً من ذلك.. بالنسبة لي القدس مدينتي، وأنا مسكونة بها، لم تغب عني يوماً، فيها نجحت وعملت واشتهرت وفشلت، فرحت وبكيت، ولم أتوقف عن زيارتها بعد الاحتلال، لكن حين أردت الكتابة لم أعتمد على الذاكرة .. عدت إليها وأقمت فيها مرات ولمدة طويلة نسبياً، تجولت فيها يومياً من الصباح وحتى المساء، كنت استنشق عبق شوارعها.

زرت عين كارم مرات عدة.. تجولت في القدس الجديدة سيرا على الأقدام أو بالسيارة، قابلت الناس واستمعت إليهم ثم كتبت .. بالنسبة للتحولات الجديدة أستطيع رصدها والبحث والكتابة عنها ولكن بعض الكتاب ممن يقيمون فيها كتبوا حياتها، مثلا الروائي عارف الحسيني في روايته «كافر سبت» وحتى «حرام نسبي»، فهو ابن المدينة والمتابع لتفاصيل تحولاتها.

عن المرأة

كرست كتاباتك ونشاطاتك للدفاع عن المرأة العربية .. هل المرأة العربية لا تزال مضطهدة؟ ألا تعتقدين أن معاناة المراة العربية هي جزء من معاناة المواطن العربي عامة الذي يعاني الاضطهاد على أكثر من صعيد؟

كتب الناقد الدكتور إبراهيم خليل يوما أنني كاتبة تخلّصت من عقدة نون النسوة، بينما كتب ناقد آخر هو نزيه أبو نضال أن النساء في رواياتي قادرات والرجال معطوبون.

لست عدوة للرجل، وإن كنت أحمّله وزر هزائمنا فقد احتكر قضايانا، وهمّش دور النساء فيها بفكره الذكوري وسلطته الأبوية الطاغية، رغم أن المناضلات الفلسطينيات والعربيات كان وما زال لهن دور واضح وبطولات في النضال والتحرر.

أنا كاتبة نسوية بمعنى أن المرأة همّي بالتأكيد، لكنني أرى تحرّرها في خط مواز لتحرير الرجال من أفكار القوامة ودونية المرأة .. لقد حقق نضال النساء في منتصف القرن الماضي الكثير من الإنجازات لكن الوطن العربي كله عاش ردّة فكرية واجتماعية سحبت معظم هذه المكتسبات بالحروب والصراعات والفقر والفساد الذي ارتد على أوضاع النساء.

الكتابة مبكراً

كيف بدأت حكايتك مع الكتابة؟ وما هي أبرز المحطات في مسيرتك الإبداعية؟

منذ كنت طفلة لم ينتبه أحد إلى أن خيالي الواسع اختلق حكايات كثيرة، عن عائلتي ومحيطي بعضها مرعب كثيرا ضحكت الأسرة واتهمتني بالكذب.. دائما كنت أريد التعبير عن أفكار وخيالات.. خربشت طفلة البورتريه والوحوش والطبيعة وأثرت إعجاب المدرسات واعتقدت أنني سأكون رسامة، لكن القراءة المستمرة كانت تترك في داخلي فراغا مزعجا بأنني أحتاج التعبير مثل كتابها إلى يوم أن طلب مدرّس اللغة العربية كتابة قصة قصيرة وكنت في المرحلة الإعدادية في مدرسة بيت لحم الثانوية- فأبدى إعجابا شديدا وقرأها وأشاد «بموهبتي» أمام طالبات المدرسة في طابور الصباح.

أعتقد ذاك الصباح كان انعطافا حقيقيا في رؤيتي لنفسي وما أريد. كاتبة ولا شيء آخر، وحين نشرت لي الصحف المحلية بعض القصص وكذلك برنامج مع أدبنا الجديد في إذاعة عمّان.. وصفوني بالكاتبة الشابة ودفعوا لي أجراً رغم أنني لم أكمل المرحلة الثانوية تكرست أمام نفسي كاتبة.

كتبت عديدا من القصص القصيرة نشرتها لاحقا في يوم عادي وقصص أخرى، ورواية لم تنشر لأن الناشر طلب مبلغاً من المال غير متوفر لي، وقال إنتِ لست مشهورة ليجازف بالنشر، فوضعني أمام سؤال محيّر، هل تسبق الشهرة النشر أم أنشر فأشتهر؟

بنصيحة من صحافي قريب رحمه الله حرضني على الكتابة في الصحف طريقا للشهرة.

كتبت مقالي الأول عن جرائم الشرف وأنا في السنة الجامعية الأولى فأثار ضجة كبيرة لأنني تناولت قضية مسكوتا عنها.. وصفوني بالانحلال والدعوة لإفساد القيم والبنات، لكن المقال أوصلني للعمل في جريدة الجهاد المقدسية بطلب منهم محررة وكاتبة عمود وما زلت طالبة جامعية. ثم دخلت الإعلام المكتوب والمرئي معدة ومقدمة برامج لكسب العيش. وقبل أن أعود لكتابة الرواية العام ١٩٨٦، فأصدرت «وتشرق غربا» التي استشرفت الانتفاضة الأولى قبل وقوعها.

أخيراً .. علمت أنك بصدد الانتهاء من رواية جديدة، هلا حدثتينا عنها؟

انتهيت منها وآمل أن تصدر قريباً .. هي رواية الخوف والهجرة القصرية أو الطوعية لشرائح قادرة، فلسطيني من القدس وأفغانية تجمعهما قصة حب مختلفة في لندن.. تدور أحداث الرواية بين فلسطين وأفغانستان ولندن وعمّان.

محمود درويش ومركز أبحاث م.ت.ف

عبد الحميد محمود أبو النصر

كان محمود درويش في مطلع السبعينات قد خرج من فلسطين المحتلة بعد سنوات النضال والعمل في المجالات الثقافية والأدبية والصحافية بشكل خاص وأقام لفترة قصيرة في القاهرة في شقة صغيرة في إحدى طبقات بناية تاجر ضخمة، والتي لا يقطنها إلا أبناء الطبقة الميسورة والمعروفة . وخلال تواجد أنيس صايغ في القاهرة للمشاركة في مؤتمر بصفته مديرا عاما لمركز الابحاث، لم يكن قد عرف درويش معرفة شخصية انما كان كمعظم اهل الثقافة العرب، قد سمع الكثير عنه كشاعر وكمناضل وكفلسطيني قاوم سلطات الاحتلال في الداخل واضطر الى الخروج الى الدنيا العربية الواسعة، وتمنى صايغ على صديق له يقيم في مصر ترتيب موعد مع درويش على أمل اقناعه بالانتقال الى لبنان والعمل معه في مركز الابحاث ومجلة شؤون فلسطينية، وقضى الصايغ الليلة التي سبقت موعد اللقاء المرتقب في تجميع افكار وتنظيم الحجج التي سيلجأ لها لاقناع درويش بقبول العرض، وقد كان محمود في ذلك الحين يفضل السمعة الادبية التي حققها خلال وقت قصير، اكثر من اية وظيفة في مركز الابحاث وفي مجلة حديثة الصدور ولا تعنى بالأدب أو الشعر كثيرا، وهذا ما جعل مهمة انيس صعبة في اقناعه،اضافة بالطبع الى ان الرواتب كانت ضئيلة في حينه .

وفي اللقاء الاول بينهما كان درويش يودع الفنانة وردة الجزائرية، وجلس بعدها مع الصايغ وتحدثا وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن، وحين فتح انيس موضوع العمل معه في مركز الابحاث بتلعثم في ذكر الامكانيات القليلة التي يمكن للمركز ان يقدمها له وخاصة الراتب الشهري المتواضع الذي يقل عن ثمن عدد واحد من جريدة السفير حاليا، وترك له الخيار بان يختار اللقب والرتبة والموقع، في سلم العاملين الذين كان عددهم انذاك يتجاوز السبعين بين باحث ومحرر وتوثيقي واداري، فأجاب أنه يرحب بان ينضم الى أسرة المركز، مما احدث صدمة لدى صايغ واكد درويش انه جاهز للمجيء الى بيروت فورا وانه يترك التفاصيل وتحديد الموقع لانيس١، واكتشف حينها

انيس حقيقة درويش الرجل الذي يعطي ولا يسأل عن مردود لا ماليا ولا معنويا ٢ وفعلا انتقل في السبعينات الى بيروت مع زوجته رنا القباني، التي كانت تتحمل كل يوم عناء احضار قهوة الصباح لايقاظه وتجبره على الذهاب لعمله في مركز الابحاث ٣. وتسلم محمود درويش رئاسة تحرير مجلة شؤون فلسطينية وبعد خمس سنوات تسلم رئاسة مركز الأبحاث بعد استقالة انيس الصايغ، وهو موقع سياسي بحثي يعادل مراكز الدراسات الاستراتيجية التي تعنى برسم السياسات من خلال الابحاث والدراسات كما أن شؤون فلسطينية سياسية بالدرجة الاولى، فعمل درويش في السياسة بروح المثقف والشاعر، واستطاع ان يؤكد حضور الثقافة في السياسة.٤

واتسمت لغة محمود درويش بانها لغة صحافية بسيطة وواضحة فهو لا تخفى عليه صنعة اللغة، فهو شاعر ومقالي في الوقت ذاته، فضلا عن انه كاتب صحافي ترأس في حياته اكثر من مجلة سياسية ،وادبية، ابتداءً من مجلة الجديد مرورا بشؤون فلسطينية وانتهاءً بمجلة الكرمل ويقول درويش: احب كتابة الأدب الصحافي والريبورتاج وتسجيل انطباعات عن الكتب والاحداث والامكنة٥، فالأدب الصحافي ينبع من ذات الاديب ويحتاج الى كتابة متينة بسيطة وعلى المعيار السابق جاءت مقالات درويش الصحافية ففي مقالة (الملف المفتوح) يقول :

ليس جديدا ان يقال ان حرب الجنوب قد اعادت مفهوم الشرعية المعرض للانتهاك الى خط الصواب،ان الذين يقاتلون دفاعا عن ارض الوطن هم الذين يمتلكون الشرعية، اما المتفرجون على ايقاع الاحتلال والمصفقون لانهيارات القرى فلهم اسماء اخرى، لقد كان المقاتلان الفلسطيني واللبناني في دفاعهما عن الارض اللبنانية وجذوة الثورة العربية يعيدان صياغة الوعي القومي ويدمران التجزئة٦. ويظهر ان لغة درويش السهلة والبسيطة والواضحة ادت الفكرة والموضوع بصورة مباشرة اذ ان أدب المقالة اليوم هو عماد الالوان الادبية والفكرية وقد تطور مع الزمن فتميز بالبساطة والايجاز ففي مقالة (مرفوضون... مرفوضون) يبدو جليا:

ان الرفض هو جوهر المقاومة ولكن الرفض ليس مطلقا وكاسحا الى حد رفض الذات ورفض الممكن الذي ننجزه بكفاحنا، اننا نرفض المشيئة الاميركية الاسرائيلية ونرفض التنازل عن حقوقنا التاريخية والسياسية في فلسطين، ونرفض التنازل عن الثورة، ولكن الكفاح من اجل تحقيق اهداف مرحلية على طريق التحرير لا يجب ان يمر قبولا بمشيئة الاعداء، انه شكل من اشكال رفضها وان مدى ما يمكن احرازه يتلائم مع مدى نضج قدرتنا مع هذا الانجاز، لقد حدد الاسرائيليون سياستهم الراهنة بوضوح لا تحتاج قراءته الى ذكاء، رئيس حكومتهم يقول : ان حكومة الاردن هي الطرف الوحيد الذي يمكن لاسرائيل ان تناقش معه المشكلة الفلسطينية وزير خارجيتهم كرر القول، ان اسرائيل ترفض اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية لان دولة فلسطينية منفصلة عن الاردن لن تكون

الا قنبلة زمنية لاندلاع الحرب.٧

من المقالة اعلاه نرى اللغة السهلة والبسيطة اذ ان الفاظها واضحة ومفهومه يفهمها عامة الناس مهما اختلفوا في ثقافتهم كما يلاحظ على لغة درويش انها صادقة في تعبيرها وتجسيد لنفسية الكاتب وواقعه المعاش. ٨

يتسم اسلوب محمود درويش في مقالاته بالسهولة والبساطة في الصياغة والعرض من خلال استخدام الالفاظ الواضحة الدالة على المعاني مباشرة واستخدامه لبعض الفنون البلاغية لعرض الفكرة وتصويرها وخلق نوع من الايقاع اللفظي والاثارة، ربما ان درويش شاعر فقد تأتي الفاظه موسيقية تشعرنا ونحن نقرأ مقالاته بأنها على نمط الشعر الحر، فهو يحسن اختيار الالفاظ في تراكيب العمل لتؤدي المعنى والصور والتي توحي بالغرض، ومن ثم تحقق المطلوب. والاساس في العملية الابداعية (المبدع، النص،المتلقي) فالمبدع سواء اكان كاتبا ام شاعرا فانه ينتقل بتجربته بواسطة الالفاظ وتراكيب الجمل، ولا يمكن لهذه التجربة ان تعيش وتحيا وتستمر من دون ان يكون لها مستقبل ومتلق.٩

واذا كانت الالفاظ والتعابير لدرويش في مقالاته الذاتية تحمل الرومانسية والهدوء فانها في مقالاته السياسية الفاظ وتعابير نابية تهاجم الاحتلال والسياسة الاسرائيلية والحكم العسكري مقابل التاكيد على الحق الفلسطيني في العيش بسلام على ارضه (العدو، الاحتلال،العنف، القسوة، الاضطهاد،منع السفر، الاقامة الجبرية، الحق المغتصب) وهذا ما يرد في مقالاته السياسية كثيرا ومنها شؤون فلسطينية اذ ينطلق ذلك بدءا من العنوان باتجاه المضمون (الملف المفتوح، اعلان حرب، ونحن نقاتل وهم يقامرون، وهزيمة العدو في ذروة انتصاره، وداعا ايها العرب وداعاً ايها السلام، الطبل والزمر والحكم العسكري، وتلك الحرب هذه الحرب)١٠، وقد نجح درويش بشكل ملحوظ في الابقاء على مستوى المركز الذي بات يغطي شهرة عالمية وكان يقول دائما لامعنى لمن يعمل في وظيفة شاعر فالشاعر هنا وكان يشير الى موقع القلب منه فضلا عن ايمانه بالاختلاف والمغايرة فما من احد يشكل نسخة كربون عن الآخر، بل التعددية هي سمة الحياة والوجود. على انه في ادائه المتعدد شاعرا، وصحافيا، وكاتبا سياسيا، كان محتفظا بتلك الحرارة والدفء الانساني والتفهم مع انه كانت تعتريه نوبات الغضب المفاجئة، ونفور من النفاق والكذب١١. ويعتبر الصايغ السنوات الخمس التي ترافق فيها مع درويش في المركز والمجلة تنطق بثقة محمود بنفسه وعمله بحيث لا يعطي مجالا للسؤال ولا للاهتمام لمنصب او لقب، واكتفى في المركز بوصفه مشاركا للتحرير في المجلة، ومستشارا لمدير المركز، وفي وقت لاحق لقب نائب المدير العام، واعترف الصايغ ان لمحمود درويش جهد في تقديم شؤون فلسطينية كواحدة من ارقى المنابر الثقافية المختصة بفلسطين. وكان له وللزميلين ابراهيم العابد

والياس سحاب اثر كبير في نجاح المجلة وانتشارها والحصول على اعتراف النخبة الثقافية العربية بها وكان لدرويش دور خاص في معالجة مشاكل المركز وهمومه السياسية والفصائلية والتنظيمية، وخاصة على صعيد علاقات المركز ومديره المتوترة دوما مع ياسر عرفات، وبعد استقالة انيس صايغ عام ١٩٧٦ رغم رفض عرفات لها، حاول انيس جاهدا اقناع محمود درويش قبول المنصب الشاغر في المركز والمجلة، ووافق على مضض وفاءً للمركز والمجلة وانيس.

كان محمود انسانا رقيقا وبالتالي حساسا جدا ومزاجيا الى حد بعيد ربما لا يجاريه في الحساسية والرقة بين الشوامخ الادباء الفلسطينيين الا غسان كنفاني.

وكان الصايغ يراعي هذه الحساسية ويفسر بها بعض المواقف والتصرفات، كان كلاهما يتميز بالسمعة الادبية التي حصل عليها بحق وجدارة، غسان بادبه القصصي، ومحمود بأدبه الشعري، كلاهما في قمة الفن الذي اتقنه بامتياز.١٢

ومحمود درويش الكاتب والمحلل السياسي لا يقل قيمة عن محمود الشاعر، وقد تكون الجماهير قصرت في رؤيتها محمود درويش الكاتب بسبب الاندفاع لادبه بالدرجة الاولى، بالمقابل درويش اعتبر نفسه اديبا اولا، و كاتبا ثانيا وعندما كان الصايغ يطلب مقالا افتتاحيا للمجلة بدلا عنه يحاول التهرب بالقول انه هو الشاعر وانيس هو الباحث، وانه لا يتجاوز حدوده ولكن مع الالحاح الشديد ظفرت شؤون في عهد انيس بافضل مقالات كتبها درويش وغسان كنفاني.

وكانت من اشهر ندوات المركز عام ١٩٧٤ التي ادارها محمود درويش وقدمها، ندوة بعنوان المنظومة الفلسطينية امام التحديات الجديدة وكان ضيوفها الرئيسيون: ابو اياد، زهير محسن، جورج حبش، نايف حواتمة، شفيق الحوت.١٣ وقد حضرها ايضا انيس صايغ وبلال الحسن، وغيرهم من المشاركين، وكان ابو اياد مع الحل المرحلي، نايف حواتمة المنظر للحل المرحلي، جورج حبش ضد الحل المرحلي بقوة، وشفيق الحوت مع الحل المرحلي، وزهير محسن تبنى موقف سوريا، وتناولت الندوة حالة الجدل في الساحة الفلسطينية، ونشرت في شباط ١٩٧٤م وكانت منعطفاً مابين مشروع التحرير الكامل وما بين البرنامج المرحلي واثبت فيها محمود درويش مرة اخرى انه ليس فقط شاعرا، بل مفكراً سياسياً.١٤

كان يحرص الصايغ على الحفاظ على علاقته بمحمود وخاصة في ظل مزاجيته وقد كادت الصداقة تهتز بالرغم من صمودها حتى حينما لم يتفقا في الرأي وفي الموقف من سياسات القيادة الفلسطينية.

وآخر ما قاله درويش للصايغ هاتفيا، بعد ان نشر الاخير مذكراته : «انت روائي تلبس قميص المؤرخ، اخلع هذا القميص واكشف لنا عن انيس صايغ الروائي هذا افضل لنا ولك» واغلق الخط، وحينها تذكر

الصايغ ضيق درويش من إلحاحه عليه كتابة المقالات والتحليلات معتبرا ذلك محاولة لابعاده عن الشعر، ولو عاد القارىء للنثر الذي كتبه درويش في السنين الماضية لتأكد من صحة ان محمود الكاتب العملاق بحجم محمود الشاعر وكلاهما تجسيد لمحمود الانسان١٥. ويذكر هاني حوراني، أنه تعرف على درويش بعد رئاسته مركز الابحاث وكان نجما ثقافيا وتسنى له الاحتكاك به لتردده الدائم على مركز الابحاث كأحد كتاب شؤون فلسطينية المواظبين على النشر فيها في سنواتها المبكرة .

وكان حوراني متحرجا عن التعامل الشخصي مع درويش الى حد تفادي الاحتكاك به ولا سيما عن مزاجيته ١٦، وهذا ما اكده انيس صايغ عنه سابقا، وحفاظ درويش على مسافة بينه وبين جمهوره العام باسلوب خاص. وخلال تولي درويش ادارة مركز الابحاث، كان الياس خوري مديرا للتحرير في مجلة شؤون فلسطينية، تخلت المجلة عن تخصصها الصارم في نشر المواد ذات الصلة بفلسطين واسرائيل حصرا، وقد عزز هذا التوجه وقوع احداث حافلة على صعيد المنطقة كان ابرزها زيارة السادات لاسرائيل ١٩٧٧م وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩م، وهكذا باتت مجلة شؤون فلسطينية الشهرية النافذة الابرز لمركز الأبحاث اكثر انغماسا بالشؤون العربية وهو تطور ما كان ليحدث ايضا في عهد المدير العام اللاحق صبري جريس، والذي أعاد المجلة الى تخصصها الصارم بالشان الفلسطيني والاسرائيلي.١٧

هذا يدل على تميز المجلة في عهد درويش عن سابقه ولاحقه وانه كان له وجهة نظر بفتح أبواب أوسع في تناول القضايا العربية وليس فقط فلسطين بما ينعكس على القضية ككل وكان يؤيده في ذلك الياس خوري مدير التحرير ككاتب لبناني عربي.

وفي تلك الظروف أتيح للحوراني نشر مخطوطة التركيب الاقتصادي والاجتماعي لشرق الاردن، على صفحات شؤون فلسطينية ثم ليصدر كتاب عن المركز ابان ادارة درويش، وقد تحمس خوري للمخطوطة ونشرها على اربع اعداد متتالية، وهذا ادى الى ضرورة تحرير عقد وفق شروط كبيرة منها تخلّي المؤلف عن حق استخدام النص للانتاج التلفزيوني والسينمائي، وهنا تدخل درويش ليخفف من وطأة العقد وليحرره من بعض الحقوق التي لم يكن واردا ان يتسفيد منها المركز ١٨، ودرويش لم يكن يتعامل بالعواطف في عمله وكان صارما وعنيداً في حق المركز حتى على مستوى الاتفاقيات المادية، فقد حاول حوراني ان يرفع قيمة المكافأة عن كتابه المنشور، لكن درويش اظهر عنادا واصر على المبلغ رغم ان حوراني رسم عصافير بلا أجنحة لديوان شعر درويش لكنه يفصل العواطف عن العمل، وهذا يؤكد التزامه ومهنيته اتجاه عمله وانه لا يخلط الامور ويعطي كل ذي حق حقه ووقته.

وعندما التحق الياس خوري بمركز الابحاث باحثا سوسيولجيا وبدأ يكتب المقالات الادبية في مجلة

شؤون فلسطينية، اشرف بعدها على الزاوية الثقافية فيها، وحين ترأس محمود درويش المركز اصبح خوري سكرتيرا لتحرير المجلة في الاثناء اصدر باكورته الروائية (عن علاقات الدائرة) ١٩٧٥م ، والمزاج النقدي المشاكس سبب له مشاكل كثيرة ، وصلت الامور الى ذروتها مع نشره مقالا لهادي العلوي، مما اثار غضب جهات قيادية في منظمة التحرير الفلسطينية١٩ على اثرها طوقت مجموعة من قوة الـ ١٧ مركز الابحاث في بيروت ومنزل الكاتب الياس خوري لاعتقاله لعدم امتثاله للجنة التحقيق التي ارسلت من قبل م.ت.ف، على الفور قدم محمود درويش استقالته، رغم تدخلات الاخوين ابو جهاد وابو اياد لاحتواء الموقف.

بالمجمل فان درويش كان يرى ايجابية في وجوده داخل لبنان من الجانب التفاعلي الثقافي فيقول : «فبعد ان وضعت الحروب اوزارها الحروب الفلسطينية- اللبنانية او الحروب الاهلية، تستطيع من خلال رؤية محايدة ان تنظر الى الاثار الايجابية للتفاعل اللبناني مع القضية الفلسطينية، هناك جوانب ايجابية فعلا ، هناك مركز الابحاث الفلسطيني، مجلة شؤون فلسطينية، ومجلة الكرمل وسواها.» ٢٠

ويقول الياس خوري انه حين تولى تحرير شؤون فلسطينية مع درويش، احسا بأنهما ورثا تجربة كبرى وكان عليهم عدم التفريط بها وان الكنز الذي تركه انيس صايغ لهما كان يحتاج الى تفانٍ وابداع كي يبقى حيا وللاسف لم تطل التجربة٢١.

واستطيع القول ان تجربة محمود درويش في مركز الابحاث كانت اضافة نوعية واعطاها خاصية جديدة، وزاد من انتشار معرفة الجمهور بالمركز، رغم انه كان مقتنعاً ان وجوده في رئاسته هو شبه مؤقت لظروف استثنائية احاطت به، لكنه رغم ذلك حافظ على الشاعر والاديب، في خضم الاحداث السياسية والطابع السياسي الطاغي على اعمال مركز الابحاث، وبكل الاحوال لم يكن نادما على تلك التجربة الفريدة والغنية.

المراجع:

١ـ احمد دحبور، محمود درويش والشباب المستدام، الحياة الجديدة، رام الله، ٢٠١٥/١/٢٠.

٢ـ انيس صايغ ، ذكريات، صحيفة الخليج، ابو ظبي، ٢٠٠٨/٨/١٣.

٣ـ انيس صايغ، انيس صايغ عن انيس صايغ، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت،٢٠٠٦.

٤ـ الياس خوري، قسيس الثقافة الفلسطينية، موقع حزب الشعب الفلسطيني، ٢٠١٠/١/٢.

٥ـ بسام خلف، المقالة عند محمود درويش، دار الغيداء للنشر، ٢٠١٦م.

٦ـ داود تلحمي، مقابلة، رام الله ، ٢٠١٨/١٠/١٠.

٧ـ هاني حوراني، كيف صدف ان رسمت اشعار درويش المبكرة، الضفة الثالثة،٢٠١٧/٩/٣.

٨ـ حسين بن حمزة، الياس خوري اليساري التائه، صحيفة الاخبار، بيروت، ٢٠١٠/١//٢.
٩ـ محمود درويش، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٧٨ سنة ١٩٧٨م.
١٠ـ محمود درويش، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٣٧ سنة ١٩٧٤م.
١١ـ محمود درويش، المقاومة الفلسطينية امام تحديات جديدة، شؤون فلسطينية، العدد ٣٠، فبراير ١٩٧٤م.
١٢ـ محمود درويش، شيء عن الوطن، دار العودة، ط١، بيروت،١٩٧١م.
١٣ـ موقع مؤسسة ومتحف محمود درويش الالكتروني.
١٤ـ عبده وزان، حوار شامل مع محمود درويش، صحيفة الحياة اللندنية، لندن، ١٤ديسمبر ٢٠٠٥.
١٥ـ رنا قباني، الوصول الى بيروت مع محمود درويش، القدس العربي، لندن، ٦سبتمبر ٢٠١٤.

الهوامش

١كاتب ومؤرخ فلسطيني
انيس صايغ، انيس صايغ عن انيس صايغ، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت،٢٠٠٦.
٢ انيس صايغ، ذكريات، صحيفة الخليج، ابو ظبي، ٢٠٠٨/٨/١٣.
٣ رنا قباني، الوصول الى بيروت مع محمود درويش، القدس العربي، لندن، ٦ سبتمبر ٢٠١٤.
٤ موقع مؤسسة ومتحف محمود درويش الالكتروني.
٥ شيء عن الوطن، دار العودة، ط١، بيروت،١٩٧١م، ص ٢٥٨.
٦ محمود درويش، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٧٨ سنة ١٩٧٨م، ص٤
٧ محمود درويش، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٣٧ سنة ١٩٧٤، ص ٢١ .
٨ بسام خلف، المقالة عند محمود درويش، دار الغيداء للنشر، ٢٠١٦ ، ص ١٣٥ .
٩ المرجع نفسه، ص١٣٦.
١٠ المرجع نفسه، ص١٣٨.
١١ احمد دحبور، محمود درويش والشباب المستدام،الحياة الجديدة، رام الله، ٢٠١٥/١/٢٠.
١٢ صايغ، الخليج، مرجع سابق.
١٣ محمود درويش، المقاومة الفلسطينية امام تحديات جديدة، شؤون فلسطينية، العدد ٣٠، فبراير ١٩٧٤، ص٥.
١٤ مقابلة مع داود تلحمي، رام الله ، ٢٠١٨/١٠/١٠
١٥ صايغ، الخليج، مرجع سابق.
١٦ هاني حوراني، كيف صدف ان رسمت اشعار درويش المبكرة، الضفة الثالثة،٢٠١٧/٩/٣
١٧ المرجع نفسه .
١٨ المرجع نفسه.
١٩ حسين بن حمزة، الياس خوري اليساري التائه، صحيفة الاخبار، بيروت، ٢٠١٠/١//٢.
٢٠ عبده وازن، حوار شامل مع محمود درويش، صحيفة الحياة اللندنية، لندن، ١٤ ديسمبر ٢٠٠٥ .
٢١ الياس خوري، قسيس الثقافة الفلسطينية، موقع حزب الشعب الفلسطيني، ٢٠١٠/١/٢.

زينب شعث.. «نداء فلسطين العاجل»
قلت: أستطيع أن أفعل ذلك!

يوسف الشايب

كان اكتشافاً غير مسبوق ذلك الفيلم القصير الذي أعده الفنان الفلسطيني إسماعيل شموط، وهو فنان معروف في المقام الأول بلوحاته الفنية، وكان شغل أيضاً منصب مدير قسم الفنون الثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية، وعمل مع وحدة الأفلام التابعة للمنظمة في السبعينات، لكنه هنا مُخرج «فيديو كليب»، إن جاز التعبير، حيث سجل شموط أُغنيةً تضامنيةً للمغنية الفلسطينية زينب شعث للإعلان عن "النداء الأكثر إلحاحاً لفلسطين"، أو "نداء فلسطين العاجل" عن كلمات الهندية لاليتا بنجابي.

لم يكن هذا التصوير ليُكتشَف لولا الفيلم الإسرائيلي حديث الإنتاج "الأرشيف المنهوب" للمخرجة رونا سيلا، حيث استطاعت تضمين فيديو أُغنية شعث داخل فيلمها الذي يتناول الأرشيف الفلسطيني المنهوب والمصهور داخل الأرشيف الإسرائيلي، فهذا التصوير الذي يُظهر فتاةً جميلةً تعتمر الكوفية، وتغني برفقة الغيتار بالإنكليزية، كان حبيس أرشيف جيش الاحتلال باعتباره "غنيمة حرب".

حكاية الأُغنية.. الفيلم

شعث، وفي تصويرٍ معها عبر "سكايب" من حيث تقيم في الولايات المتحدة الأميركية، قالت في الفيلم: لم يقُم شموط إلا بإنتاج فيلمٍ واحدٍ فقط، وهو "نداء فلسطين العاجل"، وهي واحدة من بين أغنياتي الأربع الأولى، كان شموط صديقاً لأخي في بيروت، وسمعني أُغنّي في مهرجانٍ فلسطينيٍّ في الجبل

وليس في بيروت، لذا كان مهتمًّا جداً، وسألني عما إذا كنت أرغب في عمل فيلمٍ لأُغنياتي. كان يعمل مع وحدة أفلام منظمة التحرير الفلسطينية في ذلك الوقت، وكان متحمّسًا فعلًا لذلك، وكنت متحمسة جداً. شعرت بتواضع شديد وحماس كبير؛ لأنّ فنانًا كبيرًا مثل إسماعيل شموط كان مهتماً بأغانيّ، كان رسامًا مدهشاً، كنت في غاية الامتنان ليتم تصويره من قبله. قمنا بتصوير الأغنية في يومٍ واحدٍ في العام ١٩٧٢، اصطحبني شموط إلى جزءٍ من جبلٍ في لبنان، وقام بتصويره هناك. على ما أذكر أنه صوَّر أُغنيةً أُخرى، لكنني أعتقد أنّ هذا التصوير لهذه الأغنية هو ما فضلوا استخدامه في الوحدة.

الغيتار وبايز

وأضافت شعث: ربما تمّ ذلك في صيف العام ١٩٧٢، ولأنه استغرق منهم بعض الوقت لتحرير الفيلم والإفراج عنه صدر في العام ١٩٧٣. كان ذلك في الصيف، لأن الصيف كان هو الوقت الوحيد الذي ذهبنا فيه إلى بيروت، كنتُ في الكلية في ذلك الوقت، لقد مضى وقتٌ طويلٌ على ذلك. لديّ بعض المقالات، معظمها باللغة العربية. كنتُ على غلاف عددٍ من المجلات عدة مرات.. الغناء مع قيثارتي، لقد كانت خطوةً كبيرةً في ذلك الوقت في العالم العربي أن تغني فتاة بالغيتار، لم تكن آلةً موسيقيةٍ اعتاد الناس على استخدامها في العالم العربي. كان مصدر إلهامي جوان بايز في الولايات المتحدة، التي غنت أغاني الاحتجاجات في عقد الستينات، إنّ أُسلوبي وأسفاري ومحتوى أُغنياتي جذبت انتباه الجماهير ووسائل الإعلام ليس فقط في العالم العربي، وإنما أيضاً في روسيا وأُوروبا وأميركا.

وبايز مُغنية فلكلورية أميركية وكاتبة غنائية وموسيقية، وأيضاً ناشطة بارزة في مجالات حقوق الإنسان والسلام والعدالة البيئية، وتمتَّعت بايز بأُسلوبٍ صوتيٍّ مُميَّز. قامت بيز بتسجيل عددٍ كبيرٍ من الأغاني المحلية والأغاني التي تتناول المواضيع الاجتماعية.

بدأت بايز مهنتها في العزف في المقاهي في مدينتي بوسطن وكامبريدج، واشتهرت كعازفةٍ غير مُعلَنٍ عنها في مهرجان نيويورت للموسيقى الفلكلورية في دورته من العام ١٩٥٩، وأخذت بايز في تسجيل أُسطواناتها العام ١٩٦٠، ما أدى إلى نجاحها الباهر والسريع.

وعزفت بايز، المولودة في العام ١٩٤١، أمام الجماهير أكثر من ٥٣ عاماً، وأصدرت أكثر من ثلاثين أُلبوماً. وتتحدث بايز اللغتين الإسبانية والإنكليزية بطلاقة، ولذلك فقد سجَّلت أغاني بست لغاتٍ أُخرى على الأقل. وتُعتبر بايز مغنية فلكلور، على الرغم من تنوُّع أغانيها منذ ستينات القرن الماضي، التي اشتملت على كل الأنواع الموسيقية من الروك الفلكلوري، وأيضاً البوب، وحتى موسيقى الريف، وموسيقى الغوسبل (الغناء الإنجيلي). وبالرغم من أنها كاتبة غنائية، تُعتبر بايز بشكلٍ عامٍّ

مُترجمةً لأعمال الفنانين الآخرين، وذلك بعد قيامها بتسجيل بعض الأغاني مع فِرَق: «ذا أُول مان برذرز باند»، و«البيتلز»، وبوب ديلان، وجاكسون براون، وفيولينا بارا، وبيت سيغر، و«ذي رولينغ ستون»، وليونارد كوهين، وستيفي وندر، وغيرهم.

أغانٍ ومقاومة

تتذكر شعث: أتذكر أنّ شموط صوّر لي أيضاً أُغنية «سجل أنا عربي» لمحمود درويش، لكنها لم تُعرض، ولا أدري أين هي، كما أنتجوا لي في منظمة التحرير الفلسطينية أُسطوانةً في أربع أغنيات، فإضافةً إلى «نداء فلسطين العاجل»، و«سجل أنا عربي»، قمت بغناء أُغنية «مقاوم» لمعين بسيسو، وأُغنية «خذني إلى فلسطين» لعبد الوهاب البياتي، وكلها قدمتها بالإنكليزية.

وأضافت: في العام ١٩٧٣، ذهبت إلى مهرجان الشباب العالمي العاشر في برلين، وغنّيت العديد من أغانيّ، ومن هناك دُعيت إلى تقديم أغنياتي في روسيا، وتحديداً في موسكو وتبيليسي .. كان عمري ١٩ عاماً في ذلك العام ، كما أجريتُ العديد من المقابلات مع الصحف والمجلات العربية في مصر ولبنان والعراق، وأُعدّت عني العديد من التغطيات الإعلامية.

«دُعيت للغناء في بغداد، وسجلَت محطة التلفزة العراقية أربعاً من أغانيّ التي كانوا يعرضونها لسنوات عبر قنواتهم التلفزيونية. إحدى الأغاني لم تكن من ألحاني، لكنّ معظمها كان من تركيبي. بعضُ أُغنياتي كانت باللغة العربية وبعضها باللغة الإنكليزية، وبعد مرور عامٍ غنّيتُ في مسرحية "الأرض" بالعاصمة المصرية القاهرة، وكان المؤلف الموسيقي فيها الفنان المصري عدلي فخري. ثلاثٌ من الأغاني في تلك المسرحية باتت مشهورةً جداً. تمّ تسجيل العديد من التسجيلات المحترفة لأغانيّ (مرة واحدة في بيروت ومرة في واشنطن)، وتمّ وضع "الكاسيتات" للبيع في مراكز لجمع التبرعات، كما تمّ تحويل أحد شرائط الكاسيت إلى قرصٍ مدمج من قبل ابنة أخي كهديةٍ لي. عندما جئتُ إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٧٦ أقمت بدايةً في مدرسةٍ للدراسات العليا، غنّيْتُ في العديد من المُدُن الأميركية: بوسطن وشيكاغو وديترويت وسان فرانسيسكو، وغيرها، وقدّمت كذلك أربع أُغنياتٍ في الولايات المتحدة، ثم أخذتني الحياة بعيداً عن الغناء. تزوجتُ، ولديّ أبناء، وعملتُ بدوامٍ كامل، وقمتُ بعملٍ تطوعيّ، لذا توقفتُ عن الغناء لتربية أطفالي الذين لم يعودوا أطفالاً.

واعترفت شعث: لا أعرف ما إذا كنت أفتقد هذه الأغنية، كما أفتقد الغناء، لكني فخورةٌ بما قدمته. أشعر أنني صنعتُ فارقاً، لأنّ كثيرين باتوا قادرين على فهم القضية الفلسطينية بشكلٍ أفضل بفضل أُغنياتي أكثر من فهمها من الخطابات السياسية، فخورةٌ جداً بأنني فعلتُ ذلك.

البدايات وما بعد

وتتذكر شعث: بدأتُ التأليف منذ كنت في سن السادسة عشرة من عمري، كانت "نداء فلسطين العاجل" أول أُغنية أقوم بتأليفها موسيقياً. في ذلك الوقت اعتدتُ أن أُغني كثيراً في بيتي على الغيتار، كتبت لاليتا بنجابي، وهي شاعرة هندية كانت تعيش في مصر، آنذاك، هذه القصيدة، وقدمتها هديةً لأُختي ميسون شعث التي كانت في ذلك الوقت تُقدم برنامجاً إذاعياً بالإنكليزية عن الموسيقى والفنون. أحضرت أُختي تلك القصيدة إلى البيت، وقدمتها لي لأنها كانت تدرك أنني سأحاول أن أحولها إلى عمل موسيقي غنائي، أعجبتني القصيدة بقدر ما أثارت مشاعري بقوة. في يومين، خرجتُ بهذه الأغنية، وقدمتُها في المحطة الإذاعية بواسطة شقيقتي، حيث كانت تعمل في القاهرة، وهكذا أصبحت مشهورة. بعد نجاح الأغنية تأكدتُ أنّ ما قدمته طريقة رائعة للناس لكي يسمعوا عن القضية الفلسطينية ويتعرفوا عليها. قلت: يمكنني القيام بذلك، هذه أفضل طريقةٍ يمكن أن أساعد بها، شجّعني ذلك على تقديم المزيد من الأغاني باللغة الإنكليزية للوصول إلى الجمهور خارج العالم العربي، في محاولةٍ لتعريفهم بما يمر به الفلسطينيون. كان الغناء طريقي لمساعدة قضيتي. بعد البحث وجدتُ كتاباً يحتوي على ترجماتٍ إنكليزيةٍ للقصائد التي كتبها شعراء فلسطينيون مشهورون. لذا، بدأتُ تأليف الموسيقى الخاصة بي لتلك القصائد، وغنّيتها بغيتاري، غنيت لدرويش ومعين بسيسو والبياتي وفوزي الأسمر وفواز تركي وغيرهم، وقدمتُ غالبية أُغنياتي ما بين سن ١٦ عاماً إلى ٢٤ عاماً.

وفي حوار معها في مجلة "الحرية" اللبنانية نهاية العام ١٩٧٥، قالت شعث إنها قدمت قصائد أيضاً لسميح القاسم وتوفيق زياد وفدوى طوقان وسهيل بركات، وإن لها أُسطوانةً تُباع في السوق، تدور حول المقاومة والمخيمات وفلسطين .

ابنة الثورة الفلسطينية

في ذلك الحوار، اعترفت شعث: لم أكن أُفكّر أبداً في الغناء أمام الجمهور، كان جمهوري يقتصر على أهل البيت والعائلة وبعض الأصدقاء. وبعد انطلاق الثورة الفلسطينية بدأت الأجواء تتغير، وبدأ الوضع السياسي، خاصةً الفلسطيني، بالتحول، وجاءت الهزيمة تحمل معها مرارة الألم والانكسار واندفاعةً جديدةً للثورة والجماهير. لقد كانت الثورة هي الدافع الأساسي لي للظهور أمام الناس. كان إيماني بالثورة والتحرير صلة الوصل بيني وبين الجمهور، ومنذ ذلك الوقت بدأتُ بالصعود إلى المسرح، واكتشفتُ بعد تجربةٍ قصيرةٍ أنَّ هناك طُرُقاً عدة للصلة بالجماهير، وأساليب عدة لخدمة

الثورة وقضية الوطن غير السلاح والقتال. اكتشفتُ أن الموسيقى والشعر والأغاني هي أدواتٌ أُخرى للصلة بالجماهير ودفعها للتعاطف والانخراط في صفوف الثورة.

الخطوات الأولى

وأوضحت: «تجربتي الأُولى كانت في القاهرة، هناك بدأت أصعد إلى المسرح وأُغنّي أمام الجمهور. أُولى التجارب كانت الغناء في جامعات القاهرة ومع الطلاب، ثم في المؤتمرات السياسية والطلابية أو في التظاهرات الثقافية التي شهدتها مصر منذ ثلاث سنوات (١٩٧٢). وفي السنة الماضية (١٩٧٤) خضتُ تجربتي الثانية في برلين، حيث اشتركتُ في تمثيل المقاومة الفلسطينية في المهرجان العالمي للغناء والموسيقى والفولكلور الشعبي والأفلام الوثائقية. نجحنا في تمثيل فلسطين في المهرجان على أكمل وجه. وكنتُ في المساء أدور وأُغنّي في شوارع برلين وحدائقها العامة مع رفاق لي على موسيقى الغيتار. استفدنا من تلك الجولات، إذ كان يتجمع حولنا العشرات ليسمعوا ماذا نقول، وبعد كل جولةٍ كانت تقوم حفلة نقاش حول القضية الفلسطينية والثورة، وكسبنا أصدقاء .“

في مذكرات نبيل شعث

وكانت السينمائية المصرية نادية كامل في حوار مع مجلة «سجال»، اعترفت: بدأ أول عشقي للسينما في سن الثانية عشرة، وتطوَّر بسبب فيلم حول زينب شعث، كان يتطرق إلى طالبةٍ فلسطينيةٍ تُغني لفلسطين باستخدام الغيتار فقط، لستُ أذكر اسم الفيلم، لكن طالما ظلّ في بالي حتى التقيتُ بزينب شعث، وهي أُخت السياسي الفلسطيني نبيل شعث، وعمة صديقتي رندة شعث.

ولم تغب زينب شعث عن مذكرات شقيقها د. نبيل شعث، مستشار الرئيس محمود عباس لشؤون السياسة الخارجية، وهو وزير الخارجية السابق، وكان عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح، وشغل مناصب عديدة.

في الصفحة (٨٠) من المذكرات المُعنونة بـ «حياتي من النكبة إلى الثورة»، وصدرت عن دار الشروق المصرية العام ٢٠١٦، وتحت عنوان «زينب أُختي الصغيرة»، كتب: في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٣ حلمت والدتي بجدتي زينب تقول لها: «ستنجبين ابنة جديدة وسوف تسمينها زينب». أفضت أُمي بتفاصيل حلمها لأبي الذي فرح وتفاءل خيراً. وقد تحقق الحلم، وبدأت العائلة كلها تستعد لاستقبال الابنة الجديدة زينب. اللون الزهري، وليس الأزرق، هو الذي ساد باعتبار أنّ حلم الوالدة لن يُخطئ. في يوم ٦ حزيران (يونيو) ١٩٥٤ وُلدت زينب في مستشفى الولادة الفرنسي بالإسكندرية،

وقد فرح الجميع واستبشروا بمقدمها، وبالأخص الوالد، كان عمري ست عشرة سنة، أصبحتُ طالباً في جامعة الإسكندرية. أحببتُ زينب من كل قلبي، وأحسست كأنّها ابنتي وليست أُختي. كنتُ آخذها وهي طفلةٌ تلعب معي إلى الجامعة، وإلى الشاطئ، أحملها وأُلاعبها، وعندما وُلدت رندة، أُولى أطفالي، ظللتُ أُناديها بزينب حتى كبرَت.

وكتب في الصفحة (١٨٨): كم شعرتُ بالعذاب عندما قررت أُختي الحبيبة زينب الزواج من أميركي، والبقاء في أميركا، بعد مغادرتنا بسنواتٍ عدة. كانت الظروف قد تغيرت، وبدا واضحاً أن قضيتنا سوف تبقى سنين طويلة دون حل يُعيدنا إلى فلسطين. قاومتُ فكرة زواجها من أميركي، وحاولتُ جهدي إقناعها، ولكنها أصرت على الاقتران به. أسلم «رشيد شوين» إسلاماً صادقاً، وقد أحببتُه كثيراً بعد زواجهما، وندمت على موقفي المتشدد منه، بقيت زينب قريبةً جداً منا ومن قضية بلادها، وقامت بتلحين قصائد محمود درويش وبغنائها بمصاحبة غيتارها، وفي مناسباتٍ عامةٍ كثيرةٍ نُصرةً لقضيتنا الفلسطينية. كانت تُغني قصيدته العظيمة «سجل أنا عربي» مترجمةً إلى الإنكليزية، وتُغنّي لشاعر الأرض المحتلة سميح القاسم «ما دامت لي عيناي».

ومما ذكره نبيل شعث في كتابه عن زينب أيضاً: كانت تشد المستمعين لأغانيها. فهي جميلةٌ، رقيقة، ولكنها كانت تهدر كالبركان، وهي تصل إلى الجزء الأخير من القصيدة. أصبحت زينب أكثر تديُّناً بعد زواجها، وكان ذلك شأن زوجها وأولادها. ولكنّ زينب بقيت هي وأُختي نُهى وأخي نديم في أميركا طيلة حياتهم، مواطنين أميركيين، وإن بقيت فلسطين الوطن والفكرة في قلوبهم وعقولهم.

أوراق المؤسسة

ملتقى الحوار الخامس
القاهرة ٢٠١٩/٢/٢٧م

ملتقى الحوار الخامس - القاهرة ٢٠١٩/٢/٢٧م

نظّمت مؤسسة ياسر عرفات ملتقى الحوار الخامس بالتزامن مع انعقاد الدورة الثانية عشرة لمجلس أمنائها في القاهرة بتاريخ ٢٠١٩/٢/٢٧م،

ونورد في مايلي وقائع هذا الملتقى من خلال المداخلات التي أُلقيت فيه...

١. رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق (السيد ماسيمو داليما)

- شكرا لكم ، دعوني أتحدث كصديق قديم للفلسطينيين، أود أن أناقش موضوعاً دقيقاً.

لأني اعتقد اننا يجب أن نناقش بصراحة السبب في ضعف الدعم أو التضامن الغربي مع الفلسطينيين، على المستوى الحكومي، خاصة باتجاه الحاجة لحل الدولتين، الذي فقد قابلية التطبيق أو الفاعلية، مما ينذر بتراجع الدعم الشعبي وضعف التغطية الإعلامية.

حتى في ايطاليا، بالرغم من تاريخها الطويل من التضامن، فهي على ذات الحال.

أود أن أناقش معكم الأسباب التي أدت إلى هذه الحالة أولا، وثانيا ما هو الممكن عمله لإنعاش الموقف الفلسطيني وإعادته لمحور الاهتمام العالمي.

الأسباب متعددة وبعضها يتعلق بما يحدث في مجتمعاتنا، والمشاكل التي تواجهها أوروبا وانعكاس ذلك على الوضع الاقتصادي والسياسي، والوضع العام أيضا، مما أدى لانخفاض تدريجي في الدعم والتضامن مع الوضع الفلسطيني، مما عزز الحصار والانقسام.

أيضا التغير في الممارسات السياسية لدول الاتحاد الأوروبي، وميولها تجاه اليمين، وتراجع قوى الديمقراطية الليبرالية التقليدية.

ليس بالإمكان فهم التغير في السياسات الأوروبية، دون دراسة العوامل التي تشكل الآن الرأي العام الأوروبي، وأولها الإرهاب، وما يعكسه سلبا على تقبل المهاجرين، وفكرة ارتباط هذا الإرهاب بالمسلمين في أذهان المواطن الأوروبي وانتشار الاسلاموفوبيا.

أيضا هناك تغير في طبيعة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي مؤخراً، وتحوله إلى ما يشبه الصراع الديني أو صراع الحضارات.

من الواضح أن هذه الرؤية شجعت على تخفيف وطأة التضامن والدعم للفلسطينيين، والذي سيبدو بفعل هذه الرؤيا اتحادا مسيحيا يهوديا ضد الإسلام. بالإضافة إلى تعمق إسرائيل في سياسة التمييز والتفرقة وتعيق حتى إقامة انتخابات عامة.

هناك أيضا العامل الإعلامي وتأثره الكبير بفعل قوة اللوبي الداعم لإسرائيل وسيطرته على وسائل الإعلام.

علينا أن نسأل أنفسنا أيضا: هذا التراجع في السياسات الأوروبية هل له أسباب تتعلق بسياسات العرب والفلسطينيين أيضا ؟

إن التغيرات في الوضع الفلسطيني لها تأثير كبير أيضا، مثل أن تصبح الضفة الغربية وقطاع غزة وكأنهما كيانان منفصلان تماماً، ولا إمكانية لأن يشكلاّ معاً أساسا لدولة مستقرة على الإطلاق. وبرأيي هذا الانقسام شتت الحياة السياسية الفلسطينية بالكامل وغيب بالكامل صورة التمثيل الديمقراطي.

هناك أيضا دور كبير لما يحدث في البلاد العربية من تغيرات وصراعات، وما شهدناه من موجات الربيع العربي، ونمو النزعات الانفصالية والتقسيمات السياسية كما في سوريا وليبيا.

الإنحيازات في المنطقة العربية باتجاه إيران، والتكتلات ضدها، أيضا لعبت دوراً هاماً، خاصة ما نشهده من هذه الحرب الدموية في اليمن، والتي تنذر بخطورة حرب عربية فارسية جديدة في المنطقة. الأمر الذي دفع ببعض الأطراف العربية للانحياز تماما لأميركا وإسرائيل، مما تطلب تخليها عن القضية الفلسطينية.

هذا هو السيناريو الصعب ولكنه الواقع، ولا يمكن أن نخفيه عن أنفسنا أو ننكره.

لكن نستطيع، بل يجب علينا أن نتخذ بعض الخطوات لتغيير هذا الوضع:

- أولا يجب أن نجدد جهودنا لإطلاق مبادرة فلسطينية ويجب أن تتطور لاتفاق. حيث أن المفاوضات استمرت طويلا دون أي تحديد لتوجهات أو نتائج تؤدي إلى اتفاقات.

- ودعوني أقول إن المصالحة أو الوحدة الفلسطينية في غاية الأهمية لاستعادة الدعم للفلسطينيين.

- وأيضا وبنفس الأهمية هو توحد المواقف العربية قدر الإمكان من اجل تحديث نظرتهم للسلام وتجديد محتوى المبادرة العربية مما يصب في مصلحة القضية الفلسطينية.

- لا اعرف وليس هناك معلومات حول ما يسمى الخطة الأميركية للسلام !، وإذا كان نقل السفارة جزءاً من هذه الخطة فيجب أن نقلق من ذلك.

- أتذكر حديثي مع شارون قبل ٢٠ عاماً، وأتذكر تماما انه قال ((نحن عازمون على تقبل مناطق السلطة الفلسطينية، ضمن حدودنا «إسرائيل" وضمن سيطرتنا على الحدود والبشر داخل تلك المناطق، وإذا رغب الفلسطينيون بتسمية تلك المناطق التي نديرها بـ «دولــة» فنحن لن نعترض على ذلك.))

وانا أخشى أن تكون الرؤية الامريكية للسلام لا تتعدى ذلك.

- وفي ظل الانقسامات العربية، فإن بعض الدول قد تقبل بتلك الخطة، وستكون النتائج كارثية.

- اعرف ان هذا غير مرضٍ ولكن هكذا هو الواقع والرؤية لبعض اصدقائنا في اوروبا.

- وأخيرا، فيما يؤثر على القضية الفلسطينية من الصراع العربي الإيراني، ولا احب «الجمهورية الإسلامية» ، ولكن اؤمن ان بعض الإتحاد للعالم الإسلامي مهم جداً لتشكيل الموجة السياسية في السيناريو العالمي.

- وفيما يخص الإتحاد الأوروبي، فهو ما زال يدعم حل الدولتين، الذي يضمن امن إسرائيل، ويضمن حياة كريمة للفلسطينيين، على الأقل الدول الرئيسية في الإتحاد. ولكن هناك تحدي الملف النووي الإيراني واختلاف المواقف حوله، بالرغم من الضغوطات الأميركية. ويمكن القول أن أوروبا لا زالت في وضع إيجابي من هذا الملف ولكنه ليس فعالاً ، بالرغم من ضرورة ذلك.

- كنتيجة جزئية للشراكة الأوروبية مع العالم العربي، أؤمن ان هناك بعض الدول الأوروبية أخطأت حين ظنت أن النموذج الديمقراطي الأوروبي يمكن تصديره للدول العربية. كان ذلك خطأ كبيراً، وكأن الهدف من ذلك كان زعزعة استقرار العالم العربي.

- الآن أوروبا تحتاج لاستنهاض شريك عربي قوي، سياسيا واقتصادياً، خاصة وان الحضور العربي اقتصاديا أقوى من الحضور الإسرائيلي، ولكن الفعالية هي المطلوبة لهذه الشراكة « أن تكون فعالة».

- هذا ما قصدته بأن هناك الكثير لنفعله، وهو ليس سهلا لحل تلك المشاكل، ولكنه بالطبع ممكن.

الاميركيون أصبحوا على مسافة الآن، ويبدو أنهم مستمرون في الابتعاد (النأي). ولذلك الأوروبيون والعرب لديهم مهمة الآن لتصحيح البيئة للسلام والتعاون. وشكرا لكم.

// تعليق السيد عمرو موسى: فيما يخص رؤية شارون، اعتقد ان ما طرحه لم يعد مطروحا الآن، حتى لو قبل الفلسطينيون به، وما يشار إليه بصفقة القرن بالتأكيد سيكون اقل من ذلك.

٢. السيد مانديلا الحفيد.

اسمحولي أن اشارككم تجربتنا التحررية من أجل الاستقلال في جنوب افريقيا بالمقارنة مع التحديات والنضال من أجل الاستقلال التي يخوضها الشعب الفلسطيني. ويقول بروفيسور حمدي أن المساحة المتنازع عليها هي أولا وقبل كل شيء جغرافية وسياسية ولكنها ايضا ايديولوجية ونظرية. وقد ظهر هذا الموضوع جليا في الكتابات الأدبية والحياة اليومية للفلسطينيين.

يكمن الواقع الأليم في تفاصيل الحياة اليومية التي نعيشها نحن الطرفين، ولا يوجد اي حوار سياسي ممكن أن ينكر التقاطع بين قضيتينا في هذا الموضوع، ففي الحالة الفلسطينية نرى استمرار الاحتلال والتوسع الاستعماري العدواني ومعاناة ٦ مليون لاجئ فلسطيني في الشتات وألوف الأسرى القابعين في السجون الاسرائيلية وهذا يشمل النساء والأطفال بالاضافة إلى المحاولات الامبريالية لضم العاصمة الأبدية القدس والمعاناة اليومية والذل التي يتعرض لها الفلسطينيون أثناء مرورهم عبر الحواجز. وفي تشرين الثاني عام ١٩٧٣، افتتحت الجمعية العامة للأمم المتحدة للتوقيع والتصديق على الاتفاقية الدولية لقمع ومعاقبة جريمة الفصل العنصري . تعريف جريمة الفصل العنصري بأنها «اعمال غير انسانية ارتكبت انشاء وادانة هيمنة فئة عنصرية من الأشخاص على أية مجموعة عرقية أخرى أو أشخاص وقمعهم بشكل منهجي». ويتم تعريف جريمة الفصل العنصري من قبل نظام روما الأساسي لعام ٢٠٠٢ للمحكمة الجنائية الدولية عن الأفعال اللا إنسانية ذات الطابع المماثل لغيرها من الجرائم ضد الانسانية «التي ارتكبت في سياق نظام مؤسسي قائم على القمع والسيطرة بصورة منهجية من جانب جماعة عرقية واحدة على أي مجموعات أو مجموعات عنصرية أخرى وترتكب أعمالاً بنيّة الإبقاء على ذلك النظام.»

بناء على هذا التعريف ايها السيدات والسادة، يعتبر النظام الاسرائيلي دولة فصل عنصري وان الحوار المتمثل بتصنيف القسوة المتبعة يتطابق مع تعريف جريمة الفصل العنصري. لا يحتاج الموضوع أكثر من النظر لخريطة فلسطين المتقلصة حتى يفهم ما أقصد. فقد قرأنا في الأسبوع الماضي عن أكثر من أربع آلاف موافقة جديدة على بناء وحدات استيطانية في القدس الشرقية فكم موافقة

من هذا القبيل اعطيت للفلسطينيين؟ فأنا أؤكد لكم بأنه لا يوجد شك حول اجابة هذا السؤال.

اسرائيل بالتأكيد هي دولة فصل عنصري تقوم على القضاء على كل ملكية أراضٍ للفلسطينيين. فأنا زرت فلسطين المحتلة لأول مرة في نوفمبر ٢٠١٧ وكان انطباعي الأول هو أن ما شهدته أسوأ من اي تجربة مررت بها في جنوب افريقيا. ولم أكن الوحيد الذي يشهد على ذلك فقد شاركني رأيي كل من أحمد كاترادا، وديسموند توتو، و الرفيق روني كاسريلز، وزير الدفاع السابق ووزير المخابرات في جنوب افريقيا. كما وصل إلى نفس النتيجة التجمعات النقابية لجنوب افريقيا كالمؤسسات غير الحكومية ورجال الدين أثناء زيارتهم لفلسطين بأن اسرائيل هي دولة فصل عنصري.

حتى قوانين الفصل العنصري في اسرائيل زادت عن الحد من ذلك، فقد نشر في صحيفة الاندبندنت ومصادر صحافية أخرى بأن اسرائيل تبنت ٥٠ قانون عنصري ضد الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين. فهم يعرفون انفسهم كدولة يهودية ولكن ديمقراطية في نفس الوقت. منذ تأسيس دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٦، عاش المواطنون العرب في اسرائيل تحت حكم عسكري شديد، وكانوا يعاملون كأعداء للدولة وفرض عليهم منع تجول حيث أنهم لم يكن باستطاعتهم مغادرة بلدانهم الأصلية. واليوم هناك تمييز صارخ ضد الفلسطينيين في مجال التعليم والصحة والخدمات القانونية. على سبيل المثال، منذ عام ١٩٤٨ تم بناء ٦٠٠ بلدة جديدة لاسرائيل في حين انه لم يتم حتى الاعتراف بالبلدات الفلسطينية القائمة اصلا أو تطوير مدن جديدة. وهذا يشبه كثيرا ما عشناه في جنوب افريقيا.

ولا يقتصر التمييز العنصري الاسرائيلي على ذلك وإنما يشمل ايضا اعتقال القيادات السياسية والقاصرين، وتعذيب السجناء السياسيين، ولاتوجد حريات اساسية حتى حرية الحركة مقيدة ناهيكم عن المتابعة الاستخباراتية السرية للحياة السياسية اليومية للناشطين وهذا ايضا يشبه دولة الفصل العنصري السابقة في جنوب افريقيا.

توجد بصمة اسرائيلية واضحة حول كل الجهود لزعزعة الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط. ونحن نؤمن بأن نهاية الدولة العنصرية الاسرائيلية سيكون لها نفس المصير كدولة العنصرية في جنوب افريقيا. فقبيل اعتقال جدي نلسون مانديلا في عام ١٩٦٢ زار حوالي ١٦ دولة افريقية تشمل مصر، اثيوبيا، والجزائر حيث تلقى تدريبه العسكري ولكم الأهم من ذلك هو حشد الدعم والتأييد لنضالنا من أجل الحرية. وخلال هذه الرحلة قام يزيارتين للمملكة المتحدة للقاء كوادر في الشتات، لذلك اود حث الفلسطينيين في الشتات على الاستمرار على هذه الخطا وأن يكونوا سفراء لنضالهم في كل أماكن تواجدهم. فواحدة من اهم الاعمدة والركائز لنضالنا التحرري هو أن كادرنا في

الشتات استطاع تنظيم قوته برغم الظروف الصعبة.

وقد تم اغتيال الرفيق دولسي سبتمبر في شوارع باريس وجرح وشوه آخرون في المكان. ولكن هذا لم يردع تطور قوة الحركة العالمية ضد الفصل العنصري وخنق نظام دولة جنوب افريقيا العنصرية وعزلها عن المجتمع الدولي. يجب استثمار كل فرصة لاظهار النضال الفلسطيني بقوة أكبر. فإن عمل حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات يجب أن يُحترم ويستمر ويجب أن يبقى في المسار الصحيح. فقد وضع جدي أثناء حواره مع نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا ثلاثة شروط للانتقال السلمي للديمقراطية: أن يتم التفاوض بوجود جميع الأحزاب السياسية، الافراج عن كافة الأسرى وضمان حق العودة لكل الموجودين في الشتات. يجب أن لا نريح نظام الفصل العنصري في اسرائيل طالما هم مستمرون في ممارسة الفصل العنصري بأبشع صوره. يجب أن نبني على تجربة جنوب افريقيا في انجلترا حيث قام عمال المينا برفض تفريغ حمولة وصلت من جنوب افريقيا فيجب أن نقاطع كل منتج قادم من اسرائيل العنصرية سواء كان منتجاً عادياً أو اسلحة. ويجب أن نحث العالم على حصار عسكري ضد نظام التمييز العنصري في اسرائيل.

لا يمكن اعتبار كلماتي ذات مغزي حول التقاطع في تجربتينا دون التأكيد على قضية الوحدة الوطنية. فنحن ندين بشكل كبير لكافة النساء والرجال حول العالم تحديدا الناشطين في حركة مناهضة العنصرية العالمية التي ساهمت في عزل نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا دوليا. لو كان جدي ما زال حيا مع زعماء جنوب افريقيا لشكروا هؤلاء الناشطين فردا فردا او جماعيا، فلكل الحاضرين هنا أو حتى غير الحاضرين نحن نشكركم من القلب وسنبقى مدينين لكم.

وكانت الوحدة واضحة بين كل التشكيلات السياسية المنظمة في حركة ديمقراطية واحدة وتأسيس الجبهة الديمقراطية الموحدة التي ضمت كل الديانات، العمال، رجال الأعمال، الطلاب، الاكاديميين ومن كافة الحقول الأخرى. فيجب علينا بذل كل جهد ممكن من اجل الوحدة.

السيدات والسادة

الرفاق والأصدقاء

دعوني أجمع بين نضال الشعبين الفلسطيني وشعب جنوب افريقيا العادل ولنجعل مصير نظام الفصل العنصري الاسرائيلي ينال نفس نهاية نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا.

يجب علينا أن نضغط على المنطقة كلها، أفريقيا وحلفائنا في حركة عدم الانحياز والمجتمع الدولي الأوسع لدعم مقاطعة إسرائيل وعزلها حتى تسود العدالة والسلام وحقوق الإنسان.

وكما قال "متيما " السلام والازدهار والأمن لا يمكن تحقيقها إلا إذا تمتع الجميع بهما دون تمييز"

عاشت روح الرفيق ياسر عرفات

عاشت روح الرئيس مانديلا

الحلول الممكنة للصراع الفلسطيني-الاسرائيلي

٣. الياس خوري:

- بداية، السؤال الذي يطرح حول حل الدولتين هو سؤال خاطئ، حيث ان المطلوب ليس تأسيس دولتين، لأن دولة فلسطين غير مستقلة، إسرائيل تأسست بالقوة والعنف بعد حرب عام ١٩٤٨، وحل الدولتين هو حل كاذب لأنه يساوي بين الضحية والجلاد، ولقد سقطت الثقافة السياسية العربية في هذا الفخ، والمطلوب هو حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وإنشاء سلطة وطنية على ارض فلسطينية اندحر منها الاحتلال، على أساس حدود عام ١٩٦٧ وبحسب برنامج النقاط العشر، الذي اقر بعد حرب تشرين كان واضحاً.

- ثم هناك مقترب خاطئ، المقترب الخاطئ يفترض ان المفاوضات هي الطريق الوحيد للوصول للدولة الفلسطينية، متناسيا ان المفاوضات تقلب موازين القوى، وكان واضحا ان الحالة بعد حرب تشرين لا تسمح بمفاوضات متكافئة، وان الوصول لسلطة وطنية فلسطينية يحتاج لتغيير هذه الموازين، تغيير سياسي وعسكري، لأننا إمام دولة تعتبر ترسانة عسكرية وسياسية، وهذا جرى تناسيه بالطبع.

- ثالثاً، التنازلات: كانت كامب ديفيد قد أنهت خيار اي حرب عربية إسرائيلية، ولكن كانت هناك حروب إسرائيلية على العرب مثل الاجتياح الإسرائيلي لجزء من لبنان عام ١٩٧٨، ثم ١٩٨٢، ثم حرب تموز عام ٢٠٠٦. وبالتالي انتهت احتمالية حرب عربية إسرائيلية تفرض موازين القوة. هذه حقائق.

- رابعاً، الافتراض بأن إسرائيل لها مصلحة بالتسوية السياسية، وقد بنيت افتراضات على قراءة خاطئة، وحتى رؤية رابين لا اراها تدعم هذا الافتراض، رابين لم يتحدث عن دولة فلسطينية، ولم يعترف بحق الفلسطينيين بحق تقرير المصير. وتبع ذلك انحداراً متواصلاً في الواقع السياسي الاسرائيلي الذي اوصل الوضع لما هو عليه الآن من هيمنة اليمين القومي المتطرف على السياسة الإسرائيلية، وإلى تدمير اي فكرة للسلام لأن إسرائيل لن تنسحب على الإطلاق، وهذا واضح منذ سحق الانتفاضة الثانية.

- إذاً ما هي الحقائق التي أمامنا؟

نحن أمام ثلاث حقائق ١. النكبة مستمرة، وليس كما افترض البعض انها انتهت عام ١٩٤٨، النكبة مسار مستمر وليست حدثاً تاريخياً انتهى، حتى بفترة الهدنة بين ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ لم تتوقف إسرائيل عن ممارسة النكبة، من خلال مصادرة الأراضي حتى داخل ما سمي بإسرائيل آنذاك، وعبر اضطهاد الشعب الفلسطيني ووضعه في جيتوهات! ، ايها السادة الجيتو الفلسطيني بدء عام ١٩٤٨ في اللد والرملة وحيفا ويافا، وذلك موثق، وقد كان الريف الفلسطيني بالكامل جيتو بوضعه تحت الحكم العسكري الإسرائيلي، والآن توسع هذا الجيتو وأصبحت غزة اكبر جيتو بالعالم، وتحولت بعض المناطق بالضفة الغربية لنهر الأردن إلى جيتوهات صغيرة منفصلة عن بعضها البعض. لا يجب ان نقول ان النكبة انتهت عام ١٩٤٨ ولكن النكبة مستمرة، والمقاومة مستمرة لليوم، وقد اخذت مقاومة الشعب الفلسطيني أشكالا عدة ولكنها لم تتوقف. وربما يقاوم بدون مشروع سياسي،او معتمدا على الفكرة القديمة (حل الدولتين) وكما قال زميلي الضيف الإيطالي لم يعد احد في أوروبا يؤمن بحل الدولتين.

- إذاً ما هو الخيار ؟ ، أنا شخصياً أرى فكرة ما يسمى بالدولة الواحدة أصعب من فكرة الدولتين، وقد تم طرح تلك الفكرة منذ ثلاثينات القرن الماضي من قبل مارت بوبر، ثم تبناها ادوارد سعيد في الانتفاضة الثانية. وأنا شخصيا لا أدعو لهذه الفكرة لاستحالة تنفيذها، لأن فكرة الدولة الواحدة يعني إنهاء الصهيونية وهذا لن تقبل به إسرائيل التي لم تقبل بحل الدولتين.

- فالخيار الوحيد المتاح للفلسطينيين هو النضال من اجل البقاء فقط، في ظل وضع الشعب الفلسطيني تحت حكم التفرقة العنصرية ووضعه في جيتوهات، فالمسألة الأساسية هي البقاء. وهذا يتم عبر مسألتين الأولى هي المقاومة بكل أشكالها، بما فيها الصمود، وثانياً بناء رؤية فلسطينية طويلة الأمد للنضال والنضال الفلسطيني اليوم بأصعب لحظاته، ليس فقط بسبب الاحتلال، ولكن بسبب ان العالم العربي يتفكك اليوم، وبدلا من الدعم للفلسطينيين، حتى وإن كان كلامياً أحيانا، فالعرب اليوم بأحضان إسرائيل، والنكبات الإسرائيلية تحيط بنا من كل جانب.. خراب سوريا، وخراب اليمن، ليبيا، وربما الجزائر غداً او السودان.

- برأيي اي خيار يدعو لانتظار حدوث تغيرات دولية، لترتيب سلام مع الصهيونية المسيطرة هو وهم، المطلوب اليوم هو رؤية جديدة قائمة على النضال والصمود من اجل البقاء.

تقديم د. عمرو موسى: أرجو من الأخ عزام الأحمد التحدث عن الوضع الفلسطيني الداخلي (الانقسام)

تأثير الأطراف الإقليمية والدولية في الانقسام الفلسطيني ومحاولات استعادة الوحدة:

٤. عزام الأحمد:

- سأحاول بأقل من خمس دقائق، رغم اني (دقة قديمة) مش من الدقة الأميركية الجديدة، اليوم كل واحد يحكي عنوان من اجل ان لا يفهمه احد.

أولا قضية الانقسام معروفة، طرف واحد، حركة حماس استغلت مشروع شارون إعادة الانتشار أحادي الجانب واختطفت قطاع غزة بالكامل، وجعلت الفلسطينيين ينقسمون على أنفسهم، من اجل استكمال الاستيطان والكتل الاستيطانية والجدار، وتهويد القدس، وهذا ما حدث بالفعل، فقد تضاعف الاستيطان منذ ذلك الوقت في الضفة الغربية حوالي ٥٠ مرة، وبعد ٢٠١٧/١٠/١٢ الاتفاق الذي تم في القاهرة برعاية مصرية، وبموافقة أميركية، أشدد بموافقة أميركية ، وحتى الأطراف الدولية الأخرى كانوا يحضرون للخطة الأميركية الجديدة، وذلك دفع الرئيس أبو مازن، في شهر سبتمبر ٢٠١٧ ، لشكر الرئيس ترامب لأنه أول مرة يصمت تجاه جهود إنهاء الانقسام. ولكن هذا الاتفاق بدأ ينهار منذ البداية، وجمد بشكل كامل ولم تعد الشقيقة مصر التي تحمل هذا الملف برغبة فلسطينية، وبقرار قمة عربي في دمشق ٢٠٠٨، بعد اتفاق صنعاء تتابع هذا الملف. وبقيت الأمور مجمدة بالنسبة للتحرك المصري، و ما زالت حتى هذه اللحظة.

وكان أصدقاؤنا الروس دائما يتحركون ليس من اجل بحث تفاصيل المصالحة، كما اعتقد بعض الأغبياء الفلسطينيين، في الدعوة الأخيرة، هم دعونا ثلاث مرات أول مرة عام ٢٠١١ بعد توقيع ٢٠١١/٥/٤ في حفل التوقيع دعونا الى موسكو من اجل قضية مهمة وليس كل الفصائل، من اجل وضع اتفاق سياسي يقول « دولة فلسطينية مستقلة على الأراضي المحتلة عام ١٩٧٦ وعاصمتها القدس الشرقية وعودة اللاجئين وفق قرار ١٩٤ « فقط، وصدر بيان موسكو، في ٢٠١١/٠٥/٢٢ فقط هذه النقطة أما أنهم يدخلوا في الحكومة وقضاء وقوانين وأمن ووظائف ورواتب، فهم لم يتطرقوا لذلك ابداً لأنهم أذكياء.

من لا يريد أن يصل لاتفاق يغرق الناس فيها حتى لا يصل لاتفاق، لذلك كان هناك دعوة أخرى عام ٢٠١٧ لنفس الغرض، والذي زاد انه أضيف للفصائل الـ ٦ التي حضرت عام ٢٠١١، الجهاد، وفدا، وجبهة النضال.. وصدر بيان مماثل بنفس الحرفية وبموافقة حماس والجهاد. الآن ما تم يوم ١١و١٢/ فبراير أنهم دعونا لنفس الغرض، وبشكل مسبق نحن كقيادة فلسطينية منظمة التحرير وفتح، طلبنا من الروس أن ينسقوا دعوتهم مع الشقيقة مصر، واقترحنا عليهم دعوة مصر من جانبهم ، وبالفعل حضر بوغدانوف لمصر واتفق مع المسؤولين على ذلك، ونحن بادرنا بالاتصال مع مصر، على أساس ربما تحريك الوضع في موسكو،

يفتح الطريق أمام الجهد المصري لينتعش مرة أخرى، وزاد عدد المشاركين في هذا اللقاء، والطلبات كانت تأتي كل يوم من غزة ٥٠ طلب بدهم يشاركوا، ومن الضفة ٢٠٠ طلب أيضا، ومن لبنان ألف طلب بدهم يشاركوا، واعتقد الدكتور عبد الله البشير طلب كمان يشارك، فكل الناس طلبوا الذهاب لموسكو، قالوا لهم لا، فذهبنا ١٢ فصيل، بدعوة من معهد الإستشراق وبالتنسيق الكامل وإشراف وزارة الخارجية الروسية، في الجلسة الأولى طرحت مسودة من معهد الإستشراق، نفس بيانات موسكو القديمة، دون تفاصيل، بإضافة جديدة من فقرتين: فقرة نفي اننا نرفض مقولة « لن ينتهي الانقسام» خاصة أن نيتنياهو قد صرح قبل ٤٨ ساعة: (نجحت الاموال التي نقلت من قطر عبر إسرائيل بفصل غزة عن الضفة) ، فقالوا يجب أن تنهوا الانقسام، ويجب أن تسلحونا بموقف موحد وقوي، دولة فلسطينية مستقلة، حدود ١٩٦٧ والقدس الشرقية عاصمتها، عودة اللاجئين بقرار ١٩٤، بقيادة منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، لمواجهة صفقة القرن ومحاولات تصفية القضية الفلسطينية، على أساس روسيا تحمل هذا الموقف بالنص للأمم المتحدة والجامعة العربية، هل سمعتم؟ : روسيا ستحمل هذا الملف للجامعة العربية. بالإضافة للمؤتمر الإسلامي والمجتمع الدولي. الجلسة الأولى بدأت بشكل إيجابي، كنت أول المتحدثين باسم فتح، فتحنا صدورنا، قوبلنا برد إيجابي من حماس، وبدأ النقاش وبدأت محاولات خلق العقبات من المتحدثين وأبرزهم ممثل الجهاد الإسلامي، رفض تمثيل منظمة التحرير للشعب الفلسطيني، ورفض الدولة المستقلة على أراضي ١٩٦٧ ، ورفض عاصمتها القدس الشرقية، والكارثة انه رفض حق العودة! ، لأنه يعتبر قرار ١٩٤ اعتراف بإسرائيل. وتجاوب معه بنفس اللغة القيادة العامة، وكانت مفاجأة لنا طريقة كلام الأخ ماهر الطاهر، ممثل الجبهة الشعبية، التي كانت اقرب للتناغم مع ما طرح.

ثم احتد النقاش، وأنا اقترحت شطب حضور الجهاد، وأمامها حلان: إما تسجيل تحفظها خطياً، أو شطبها من الحضور، فجاء ممثل الجهاد ووافق على الشطب من الحضور، وتوصلنا لصيغة بيان، وبعدها تفاجئنا بممثل حماس، موسى أبو مرزوق يقول انه لن يوقع إلا إذا وقع الجهاد، وهذا يدل على التنسيق الخفي بينهم قبل الحضور، (يقصد أطراف أخرى).. وبالتالي، وقفنا عندها للقاء لافروف، وكانت اقصر مرة يجلس معنا لأنه زاد عددنا، وقال الجمل التي قلناها وتوجه إلى سوتشي، وكان يراقب في وارسو، وفضل أن يتأخر على سوتشي ليجلس مع الفلسطينيين و يوجه رسالة للعالم ضد ما يتم في وارسو، الذي كان هدفه الأساسي تجنيد الأنظمة العربية، لعدو جديد هو إيران. بالرغم من انه لا يجوز إطلاقاً أن تبتعد البوصلة عن إسرائيل، يجب أن تبقى باتجاه إسرائيل رغم كل أخطاء وتدخلات إيران، خاصة معنا نحن الفلسطينيين، وهي الممول الأول والداعم الأول،

وحتى في موسكو كان الشبح الإيراني موجوداً، وسألونا لماذا إيران هكذا ؟ وقدمنا لهم تفسيراً.

- لذلك أعلنا في مؤتمر صحافي اننا لم نتفق واعتذرنا للروس انه ليس هناك بيان، تحدث لافروف تليفونياً مع بوغدانوف، وقال له لابد أن يكون هناك بيان بمن قبل التوقيع، واتصل بي بوغدانوف وكان الأخ ماهر الطاهر قد أعطاه معلومات غير صحيحة، أن هناك اتفاق ولكن فتح لم توقع، تحدث لي بوغدانوف والأخ ماهر عنده وطلبت منه أن نلتقي جميعاً بالسفارة أو بالفندق، ذهبنا للفندق ولكن الوفود كانت قد غادرت إلى المطار، وفد فدا والديمقراطية، ذهبنا أنا والأخ روحي فتوح قررنا البقاء حتى لا يحملونا المسؤولية، فذهبنا ووقعنا نحن والأخ بسام ألصالحي والدكتور مصطفى البرغوثي، وكل وفد وقع ثم غادر، ثم طلب مني الإخوان في الجبهة الديمقراطية وفدا التوقيع عنهم وقمت بذلك، وهي أول مرة تحدث أن يتم توكيل فصيل فلسطيني بالتوقيع عن اخر. ثم تفاجأنا بأن الأخ ماهر الطاهر قد غادر إلى دمشق! وقعت ثماني فصائل على البيان وأنا أثق بالرفاق في الجبهة الشعبية وأن اعتبر أن عدم التوقيع هو خطأ شخصي من الأخ ماهر وهم يعالجون هذا الموقف الآن، وقد تسألوا لماذا نترك حماس لوحدها؟ فقلت لهم هي ولدت منشقة لتكون بديلاً عن منظمة التحرير. لذلك من يريد فلسطين ويريد أن يجابه صفقة القرن يجب أن ينهي الانقسام.

الانقسام ليس فلسطينياً ، كل العالم يتدخل في الشأن الفلسطيني كما يحلو له، واهم لاعب هو إسرائيل.

تعليق للدكتور عمرو موسى:

على موضوع النجاح الفلسطيني- الفلسطيني لازلت اعتقد ان المشكلة الفلسطينية تعاني من امرين ، من الاحتلال والانقسام . اما بالنسبة لموضوع من وقع ووقع فهذه امور تفصيلية . لا بد من انهاء الانقسام ، الكلمة للأخ سمير حسام زكي ليتحدث عن: اتفاق اوسلو و ما تبقى منه.

٥. حسام زكي

شكرا سيادة الرئيس ، انا الحقيقة اواجه صعوبة لأنه موضوع من الماضي وليس موضوعا معاصرا يستقطب الاهتمام. اتفاق اوسلو مر عليه حولي ٢٥ سنة ونيف، ولم يحقق الهدف منه ، لو اعتبرنا ان الهدف منه كان دولتين فلسطينية وإسرائيلية ، هل هو فشل بشكل كامل او بشكل جزئي ؟ ، هل يمكن البناء عليه ؟ هل هناك دروس ممكن ان نتعلمها من هذا ومن المسار الذي اتبعه هذا الاتفاق ؟ . الحقيقة نحن نحاكم أوسلو لأنها فشلت بالوصول الى هدف ، ولكن يتوجب علينا العودة الى

الوضع السابق على أوسلو لتقييمها بشكل صحيح .

قبل اوسلو ، لم تكن هناك صيغة مستقرة للدولتين ، كان هناك احلام اسرائيل الكبرى من الجانب الاسرائيلي ، وكان هناك كفاح ونضال فلسطيني من اجل الاعتراف بالهوية وتثبيتها على الارض . أوسلو وضعت اطار ،ما زال هو الاطار الحاكم لعملية التسوية السياسية ، سواء احببنا اوسلو او كرهناها . قبلنا بها أو رفضناها . هي عمليا وضعت هذا الاطار .

بسبب عدم تطبيق الاتفاق ، عادت من جديد الايديولوجية الاسرائيلية ، بعد ان استنفذت ٢٥ سنة من الجانب الفلسطيني ، عادت الان لتتحدث عن احلام السيطرة على كامل الارض من النهر الى البحر . خلينا نشوف الجانب الاسرائيلي كيف كان يرى أوسلو ، (وبالطبع عندنا هنا الكثير ممن يعرفون اوسلو جيدا ، اساتذة بالتأكيد اكبر مني) . لكن خلينا بالتحليل نقول ما يلي ، هل كانت اوسلو تعبر عن انتصار الوسط واليسار الاسرائيلي وقتئذ ، اي في بداية التسعينات ، باعتبار ان هذا لتوجه كان يرغب بالسلام وإنهاء الاحتلال أم لا ؟ ، وهل كان هذا يعتمد على مبدأ الارض مقابل السلام والاعتراف ام لا ؟

الحقيقة انه بعد اوسلو بسنوات طويلة ، بدأ اميركيون يمينيون وإسرائيليون يكتبون عن اوسلو وفلسفتها بشكل لم يكن موجودا بالتسعينات ، وقالوا بأشكال متعددة وبكل وضوح ان الهدف الحقيقي من اوسلو لم يكن حقيقة التوصل الى دولتين أو انهاء الاحتلال الاسرائيلي للأرض . كان هناك دائما فكرة الفصل ما بين الشعب والأرض، بمعنى التنازل عن حكم الشعب قدر الامكان مع الاحتفاظ بالسيطرة على الارض الفلسطينية ايضا قدر الامكان. ويمكن ان هذا تحقق .

ايضا من الجانب الاسرائيلي ،هذا الوضع خلال التسعينات او ما بعدها ، كان يعكس حالة من عدم القدرة على حسم الخيارات . هم يريدون امورا ولا يريدون دفع تكلفتها ، هم يريدون الاحتفاظ بالأرض، يريدون التواجد على كافة الاراضي الفلسطينية دون دفع تكلفة الاحتلال فعليا ، ولا يريدون ان يرى العالم ان هذا الاحتلال مازال قائما . يعني فكرتين ، الفصل ما بين الارض والشعب وإبعاد مظاهر الاحتلال عن اعين العالم قدر الامكان. هذا يتحقق من وجهة نظر هؤلاء الاسرائيليين بالانسحاب الاحادي ، وتحقق الانسحاب الاحادي ، سواء من غزة ،سواء من الضفة بإقامة الجدار .وبالتالي الاحتلال القائم الان هو احتلال لا يراه المواطن الاسرائيلي ، وهذا هو ربما السبب في قوة رغبة الشعب والدولة الاسرائيلية في الإبقاء على الوضع الحالي لأنه وضع مثالي .

بالنسبة لإسرائيل ، اوسلو كانت اتفاق فصل احادي يعطيها غطاءً دوليا جيدا ، وإمكانية تأجيل المسألة كلها برمتها وتسويفها وعدم حسمها .

على الجانب الفلسطيني ، كانت هناك طموحات مشروعة وآمال ، علقت باتفاق اوسلو وهي امال شرعية جدا ومن المنطقي تفهمها في ظل الوضع الذي كان قائما في بداية التسعينات ، وهو الوضع الذي اتسم بنهاية المرحة الثانية من الانتفاضة الاولى ، وبعد مؤتمر مدريد ، وكانت هناك آمال وتطلعات مشروعة جدا . الجانب الفلسطيني ،اعتقد ، انه استطاع ان يحقق منجزا اساسيا في اوسلو وهو في نفس الوقت ولغرابة الامر هو اكبر عيب موجود في اوسلو ،وهو تهيئة الوضع الفلسطيني لمسؤوليات الدولة .

الدولة لم تكن لتأتي فجأة ، الدولة كانت يجب ان تقوم من خلال مرحلة حكم الفلسطينيين لذاتهم . وأوسلو انتجت هذا بشكل بعيد عن الكمال ،وعن الصورة التي كان يحلم بها الفلسطينيون ، ولكن هو منجز يصعب التفريط به الآن .

اكبر انجاز لأوسلو في هذه اللحظة هي السلطة الفلسطينية . السلطة هي حكم فلسطيني وبداية الدولة الفلسطينية . هي نتاج لأوسلو وبنفس الوقت التخلي عنها ، اي التخلي عن الحكم الذاتي ، بمعنى ان يحكم الفلسطينيون بعضهم بعضا ولا يسلمون امرهم الى الاحتلال .

هذا امر في منتهى الغرابة ، ان تكون نقطة الضعف هي نقطة القوة في نفس الوقت . ولكن هذا هو تطور الاحداث وما ال اليه الامر. طبعا اتفاق اوسلو كان له تتمة ومراحل تتبعه ولكن لم يحدث هذا للأسف ، وحتى لا نطيل على حضرتكم ، اخطر نقاط ضعف هذا الاتفاق كونه اتفاق مرحلي . لذلك ، اذا كان لنا ، وفي اطار التجاوب مع عنوان هذه الندوة . وهو الوصول الى اجابات محددة . فإن الدرس الذي نستفيده من اوسلو هو عدم الانخراط في أي تركيب مرحلي بعد الان . البعض يقول ان هذا الامر طبيعي ! . لا ، انه لم يكن طبيعيا في التسعينات ، كان هناك تفكير مختلف ، ان المسألة تدريجية و انها سوف تستوفي الخمس سنوات وسوف تعلن الدولة .

كانت الآمال معقودة على هذا .الجانب الاسرائيلي، احبط كل هذه الآمال ، واستطاع بالاستعانة بالولايات المتحدة ان يحقق أهدافاً ،لكن الدرس الحقيقي المستفاد من كل هذه التجربة الخاصة بأوسلو ، هو عدم تكرار نفس الخطأ ، وهو الدخول في أي ترتيب مرحلي مع اسرائيل . أي تسوية سياسية، وقتما تبدأ، حينما تبدأ. ان شاء الله ، في السنوات القادمة ، الله اعلم . يجب ان تركز على الحل النهائي ، «اتفاق واحد وحل نهائي» ، ولا يمكن إعطاء فرصة ابدا ، لأي اتفاقات مرحلية ، ايا كانت نوعية هذه الاتفاقات ، وأيا كانت طبيعة هذه الاتفاقات ، سواء كانت اتفاقات سياسية أو اقتصادية .

ايا كانت الاتفاقيات المطروحة ، يجب التركيز على اتفاق نهائي ، ينهي المسألة برمتها ، مرة واحدة

والى الابد.

شكرا سيادة الرئيس وآسف على الاطالة .

عمرو موسى

شكرا للسفير حسام زكي ، و كان في عنوان البند الذي تحدث به ، مبادرة ترامب ، انما حدده احد المتحدثين القادمين للتحدث عنه .

البند الثالث : القدس الموقف الاسرائيلي ، الموقف الاميركي ، حماية الحقوق الفلسطينية والعربية ، الاستاذ رفيق الحسيني ، تفضل .

٦. رفيق الحسيني

طبعا القدس هي الاساس (برأيي) في المعركة الحالية والمعركة القادمة، وبالتالي فهي قضية مهمة ،وباختصار شديد سأتحدث عن بعض التوجهات والاتجاهات في القدس ، وسأبدأ في توجهات الاحتلال الاسرائيلي بالوقت الحاضر .الوضع الديموغرافي بالقدس قضية مهمة كما هو في كل فلسطين ، الان حوالي ٣٨٪ من سكان القدس هم عرب ، وكانت هناك خطة اسرائيلية لتحويل هؤلاء الى ٢٠٪ بحلول العام ٢٠٢٠ . لا أعتقد أن هذا سيحصل ولكن ، نشعر ان هناك حالة تشتد بخصوص تحقيق هذا التغير الديموغرافي بالقدس .

طبعا الاحتلال الاسرائيلي سيطر على القدس الشرقية في العام ١٩٦٧ ، ومن ثم ضمها بعد ذلك بعام ، وبدأ يطبق قوانين الضم على المدينة ، بما في ذلك التعليم والصحة والثقافة ، الخ . وبدأ بمحاولة التخلص من اكبر عدد ممكن من السكان عن طريق سحب هويات المواطنين بأسباب سخيفة . ومحاولة اخراج اجزاء من السكان من الضواحي المقدسية ، خارج الجدار . فهناك محاولة لم تنجح بعد ولكن الجدار قد بني لإخراج مخيم شعفاط وضاحية السلام وعناتا ، حوالي ١٠٠ الف مواطن ، فيصبحوا خارج القدس فتنزل نسبة السكان المقدسيين ويصبح هؤلاء جزءاً من سكان الضفة الغربية وتسحب هوياتهم المقدسية وتستبدل بهويات فلسطينية ولكن ليست مقدسية .

طبعا هناك محاولة منهم وما زالت ، بالسيطرة على ما يعرف بالحوض المقدس ، وبخاصة المسجد الاقصى. لماذا الاقصى بالتحديد؟ لأنه كما تعرفون يقع كما يتخيل اليهود على هيكل سليمان، ولإعادة بناء الهيكل، يجب تدمير الحرم ! ما فيش حل ثاني ، وكانوا بالبداية غير مستعجلين على تنفيذ هذا التهويد ، ولكن اليوم هم في عجلة ، والسبب الاساسي ان هناك يمين قومي متدين يحاول السيطرة على الحكم في اسرائيل وبالتالي يحاول ان يغير هذه المعالم بسرعة .

بالنسبة للإدارة الأميركية ، نعرف جميعا ما حصل بالنسبة للاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ، ولكن لا يزال هذا القرار غير مترجم على ارض الواقع. طبعا ، الادارة الأميركية كان عليها ان ترضي اللوبي اليهودي . وبالأساس ، اصحاب ترامب من امثال شالدون ادلسون وغيره من اغنياء اليهود ممن مولوا حملته الانتخابية بشكل كبير. ولكن كان عليهم ايضا ، ارضاء اللوبي المسيحي الصهيوني . لان اللوبي المسيحي الصهيوني يمثل حوالي ٣٥٪ من سكان الولايات المتحدة الأميركية ، الذين نعرفهم باسم «الحزام الانجيلي» ، هؤلاء هم من صوتوا لترمب وهم يشكلون قاعدة ترمب الاساسية.

وطبعا محاولة ارضاء اسرائيل ، لأنها الحليف المؤكد للأميركان في المنطقة . حيث ان باقي الحلفاء في المنطقة اما متذبذبون أو ضعفاء وبالتالي ، جاء هذا الإرضاء كله على حساب العرب، وللأسف وكما نعرف جميعا فان وضع العرب صعب وبائس .

بالنسبة للفلسطينيين، التوجهات الفلسطينية. الفلسطينيون المقدسيون بشكل عام ، غير راضين بما يتم تقديمه لهم من السلطة أو حماس أو العرب ، ما يقدم لهم لا يكفي لصمودهم ، لان المقدسيين يحتاجون الى «تصميد» اي دعم تشغيلي وليس فقط دعم تطويري. كانت هناك مقولة شهيرة لفيصل الحسيني وهي « اشتري زمنا بالقدس» فهو قدّر ان كل ثانية بالقدس ثمنها دولار وبالتالي يجمع للقدس حوالي ٣١،٥ -٣٢ مليون دولار في السنة اي ٢،٥ مليون دولار شهريا ، تصرف على الاحتياجات التشغيلية للقدس .بمعنى ، قضية التعليم العربي الوطني ، قضية الصحة ، قضية السكن التي هي قصة كبيرة بالقدس ، قضية الدفاع القانوني ، وأيضا قضية تعزيز الثقافة الوطنية . لكن برأيي ايضا ، ان المقدسيين يدركون ايضا انهم المرابطون، ويشعرون بمسؤولية عالية ، لما قد يحدث لمقدساتهم الاسلامية والمسيحية ، وأيضا لما قد يحصل لمؤسساتهم بالقدس وحتى مساكنهم وبيوتهم . بالتالي، كانت هناك عدة هبّات سابقا . هبة محمد ابو خضير الذي قتل حرقا من قبل اليهود . هبة البوابات الالكترونية في ٢٠١٧ والتي كانت هبة كبيرة اخرجتنا من قصة كبيرة كفلسطينيين . طبعا والهبة الاخيرة اليوم ، اي هبة مصلى باب الرحمة.

كلنا نعرف ان الصمود في وجه البوابات الالكترونية في ذلك الوقت ، قد ادى الى تراجع الاحتلال ، بل اعطى دفعة كبيرة للفلسطينيين بشكل عام وللسلطة الفلسطينية ايضا . ولكن اليوم هناك مؤشرات سلبية يجب ان نعرف انها تتحرك بقوة .

أولا هناك حركة انتقام من الشباب الفلسطيني الذي هب في هبة ابو خضير وفي هبة البوابات

الالكترونية . حبس ، سجن ، تهجير ،سحب هوية ، منع من العمل ، الخ . هناك ايضا اضعاف للمرجعيات الفلسطينية بالقدس ، ليس فقط معنويا وسياسيا وإنما ايضا ماديا . حيث لا تستطيع هذه المرجعيات ان تفعل الكثير بدعم المواطن الفلسطيني بالقدس. وهنالك ايضا قد بدأ بعض التسريب بالعقارات. وسمعتم عن ازمة العقارات ، ولكن مع كونها ازمة صغيرة ، فهي مهمة معنويا للشعب الفلسطيني ، وللأسف مرت هذه التسريبات بدون ردع حقيقي ، والخوف ان تستمر هذه العمليات.

الاستنتاجات

أولا : اسرائيل متوجهة نحو اليمين الديني المتطرف ، تريد السيطرة على القدس والمقدسات بأسرع فرصة ممكنة، وخاصة فيما يتعلق بالحرم القدسي الشريف ، لمحاولة استبداله بالهيكل وهذا شيء يتكلمون عنه بصراحة تامة وليس مخفيا هذا الكلام .

ثانيا : الادارة الأميركية سائرة خلف اسرائيل ، ولا مصلحة لها بالتوقف عن ذلك في ظل الوضع العربي المتردي .

ثالثا : الهبّات المقدسية المتعاقبة منذ الانتفاضة الاولى ، والأقصى لا يعتبره المقدسيون رمزاً دينياً فقط ،وإنما هو رمز وطني ايضا ، وبالتالي يخرج المسلم والمسيحي والمؤمن والأقل ايمانا لنصرته والدفاع عنه .

رابعا : المقدسيون صامدون ومرابطون حتى بدون مرجعيات مؤثرة .ولكن صمودهم يجب ان يدعم ، من جهة المشاريع التطويرية من جهة والاهم من ذلك من جهة الدعم التشغيلي ، في مجالات التعليم، الصحة ، السكن والبناء، الدفاع القانوني، والثقافة الوطنية، هذه مجالات اساسية يجب ان تدعم بالقدس ، وبهذا الخصوص ، فانا اعتقد انه يجب احياء بناء امانة القدس ، «كانت تعرف بأمانة العاصمة « وتخصص لهذه الامانة موازنة لا تقل عما طرحه الراحل فيصل الحسيني قبل ١٠ أو ١١ عاما .

هذه هي القدس ، القدس صامدة ، القدس موجودة ، القدس تدافع ، ولكن ، القدس بحاجة للدعم المستمر حتى تظل واقفة وصامدة الى ان يأتي لها التحرير . وشكرا.

عمرو موسى

الان ، الموضوع هو: مركزية مواجهة الاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي . الاستاذ محمد بركة ، تفضل.

٧. محمد بركة

شكرا جزيلا سيدي الرئيس ، نبدأ من حقيقة ان اي تغيير للواقع الديموغرافي السكاني ، او نقل سكان من الدولة المحتلة او من غيرها ، من المنطقة الواقعة تحت الاحتلال هو امر مخالف للقانون الدولي ، وهي جريمة حرب . وبالتالي نبدأ بالقول ان الاستيطان هو بمثابة جريمة حرب ويجب التعاطي معها كذلك ، على كل المستويات ، المستوى المحلي ، الدولي ، القانوني ، القضائي وما الى ذلك.

اسمحوا لي بالبداية في ظل الوقت القصير المتاح ، ان نعطي بعض المعطيات حول واقع الاستيطان. في الضفة الغربية ، ينتشر في انحاء الضفة اليوم حوالي ١٦٨ مستوطنة ثابتة ويضاف لها اكثر من ٥٠ بؤرة استيطانية اقيمت بدون قرار من الحكومة الاسرائيلية ولكن تحظى بموافقتها وبكل الخدمات . وكل المعطيات تؤشر الي تحولها الى مستوطنات ثابتة .

حتى عام ٢٠٠٥ ، كان في الضفة ١٢٤ مستوطنة ثابتة وحوالي ١٠٠ بؤرة استيطانية ، (وهذه المعطيات كما يرويها الاسرائيليون ، وكلا النوعين من الاستيطان غير شرعي) ، ولكن المثير بالأمر هنا ان اسرائيل تعهدت رسميا ضمن خطة خارطة الطريق ، التي عرضها جورج بوش الابن في عام ٢٠٠٢ ، بإزالة هذه البؤر . إلا ان كل الحكومات الاسرائيلية منذ ذلك الحين ، عملت على تثبيتها وتوسيعها باستثناء عدد هامشي يكاد لا يذكر وفيه عدد قليل من المستوطنين ، والذين عملوا من ذلك زوبعة كأنهم يقومون بشيء لإرضاء الرأي العام ، ولكن في حقيقة الامر هذا لم يغير شيئاً من واقع السرطان الاستيطاني الذي يتغلغل في الجسم الفلسطيني في الضفة الغربية .

يقدر عدد المستوطنين اليوم قرابة ٤٢٠ الف مستوطن ، يضاف اليهم قرابة ٢٣٠ الف مستوطن في الاحياء الاستيطانية في القدس المحتلة . واعتقد ان هذا رقم مخيف بكل ما تعنيه الكلمة . وهذا يقودني الى معرض الحديث الذي يجري ، اي قضية حل الدولتين وحل الدولة الواحدة وكل ما يرافق ذلك . احد الادعاءات الاساسية للذين يقولون حتى من الفلسطينيين والعرب وحتى من اوساط دولية ان استحالة حل الدولتين يأتي بسبب هذا التغلغل وهذا الانتشار السرطاني الاستيطاني في الضفة الغربية ، ولذلك يقولون انه لا مجال الان لإجراء او وضع حدود تضمن دولة فلسطينية متصلة جغرافيا ومتصلة انسانيا .

انا اعتقد ان هذه المقولة تقر عمليا باستحالة اقتلاع الاستيطان ، وأنا ليس عندي مشكلة مع اي من هذه المواقف ، لكن ان يستخدم الاستيطان لنفي حل الدولتين هو اقرار بشرعية الاستيطان او ببقاء وديمومة الاستيطان وهذا امر لا يجوز ان يستعمل . ونحن نعرف بالتجربة الجزائرية انه كان هناك مليون مستوطن فرنسي بالجزائر وعندما استقلت الجزائر ايضا انتهى هذا الاستيطان واعتقد

انه لا يجوز التعاطي مع الاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية بشكل اخر ومغاير.

اعتقد ان موضوع الاستيطان عندما طرح بعد مفاوضات مدريد في محادثات واشنطن وكان يمثل الوفد الفلسطيني الدكتور المناضل حيدر عبد الشافي ، «على فكرة من اكم يوم كانت ذكرى وفاته ومرت مرورا عابرا على الساحة الفلسطينية وهذا امر مؤسف جدا» . لم يقبل حيدر عبد الشافي ان يخوض في عملية التفاوض ما لم يجري اتخاذ قرار بوقف الاستيطان.لان هذا منطق بديهي ، اي كيف تفاوض على شيء يجري التهامه بكل دقيقة. انت عمليا تسلم رقبتك للمحتل وتفاوض على لا شيء، واعتقد ان هذا الموقف كان صحيحا وما زال صحيحا .

الامر الملفت انه بعد ان اقرت اتفاقية اوسلو، اسرائيل اليوم تتذرع بأنها تقيم المستوطنات في مناطق ج بفعل توافق اسرائيلي فلسطيني . ان الفلسطينيين وافقوا على سلطة مدنية «امنية» في مناطق ج . ولذلك اسرائيل تتصرف وفق هذا التخويل . اعتقد ان المقدمة الاولى لمواجهة المشروع الاستيطاني اليوم هي الانفضاض من تبعات اوسلو. ليس بسبب ان اوسلو لم تكن النموذج الامثل بالنسبة لنا ، انما لان اسرائيل خرقت كل ما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني او بمقتضيات تخص الشعب الفلسطيني ضمن اتفاق اوسلو لذلك فهو لاغٍ . حيث لا يعقل ان اسرائيل تستعمل ما يفيدها في اوسلو وتضرب عرض الحائط بما يمكن ان يفيد الشعب الفلسطيني ، واعتقد ان هذا الامر يجب ان يكون موقفا رسميا للقيادة الفلسطينية من اجل نزع القاعدة المنطقية التي يحاول الاحتلال ان يتذرع بها لتبرير الاستيطان.

الامر الاخر الذي اريد ان اتوقف عنده في هذه العجالة ، ان هنالك من يقول ان العمل الميداني لمواجهة الاستيطان هو عمل السلطة الوطنية الفلسطينية . اعتقد ان هذا الاعتبار خطأ ، السلطة الوطنية الفلسطينية ليست حركة احتجاج . طبعا انا اشيد بوزارة مقاومة الجدار والاستيطان ، كان يقف على رأسها الشهيد زياد ابو عين في حينه ويقف على رأسها الان الاخ وليد عساف وكلاهما قاما بدورهما بكفاءة . لكن اعتقد ان هذا الاختلال في مقاومة الاستيطان هو لائحة اتهام للفصائل الفلسطينية لأنها لم تضع استراتيجية مواجهة ميدانية ،متفق عليها ووحدوية . بمعنى ان كل امراض الحالة الفلسطينية والتي تطرق اليها الاخ عزام ، تدخل وتؤثر سلبا على تدعيم وحدة المواجهة للمشروع الاستيطاني . لذلك باعتقادي ان ذلك امر في بالغ الاهمية و ان يكون اختبار العطاء والأداء للفصائل الفلسطينية يكون في وضع مشروع متصل ، كامل ومتكامل في مواجهة الاستيطان .

صحيح ان اوسلو خلقت واقعا جديدا يصعّب الامر على هذه المعركة لان اوسلو عمليا انتجت مناطق مقفلة . أي ان نقاط التماس مع الاحتلال قلّت الى حد كبير بمفهوم المواجهة الشعبية ، وكان

يجب ابداع انماط جديدة من هذه المقاومة وخاصة في مناطق الاستيطان حيث هناك مقاومة مجيدة حقيقة ولكن هذا الامرغير كافٍ على الاطلاق . قبل اكثر من ١٠ او ١٥ عاما ، كان هناك في مناطق التماس مع الاحتلال تنسيق عمل بين ابناء شعبنا الفلسطيني في الضفة الغربية وأبناء شعبنا الفلسطيني في الداخل . بان نأتي الى نفس النقطة من طرفي نقطة التماس واعتقد ان هذا كان يمكن ان يشكل تكاملا مهما وما زال هذا الامر ممكناً حسب رأيي.

الامر الاخر الذي يجب التوقف عنده هو موضوع اخذ العبرة من التداول الحقوقي في موضوع الجدار وشرعية الجدار وفتوى الجدار. الجدار هو شكل من اشكال الاستيطان ، وفتوى الجدار هي انجاز كبير في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية وفي مقاومة الاحتلال ، لكن للأسف الشديد لا تجري الاستفادة من هذه الفتوى يوميا ولا تجري الاستفادة من هذه التجربة لنزع اي شكل من اشكال الموافقة أو التسليم بوجود الاستيطان ، لذلك اعتقد ان العمل الحقوقي في المحافل الدولية هو امر بالغ الاهمية.

النقطة الاخرى هي قضية المقاطعة ، انا اعلم ان هنالك نقاش «على الاقل في الاتحاد الاوروبي والدول الاوروبية على موضوع المقاطعة . هم ضد الـ BDS ، المقاطعة الشاملة لإسرائيل . لكن هنالك اصوات اكثر وأكثر تتحدث عن مقاطعة منتجات الاستيطان ، وأنا أحيي القرارات التي اتخذت فلسطينيا على هذا المستوى السلطة الوطنية والحكومة الفلسطينية وقيادة منظمة التحرير مقاطعة منتجات المستوطنات في الضفة الغربية وهذا الامر يجري تطبيقه باستثناءات قليلة حقيقة . لكن هنالك حاجة لحملة من هذا النوع واكبر من ذلك ، على المستوى العام ، المقاطعة هي شكل من اشكال المقاومة السلمية الشعبية للاحتلال ولا يجوز لإسرائيل التي تعبر عن قلق عميق من موضوع المقاطعة وترصد اموالا هائلة وتصم حركة المقاطعة بمختلف النعوت من اللاسامية وما الى ذلك . ثم اتى قبل ايام الرئيس ماكرون وتحدث عن المقاربة التعسفية «اكاد اقول الغبية» بين معاداة الصهيونية ومعاداة السامية .هذا الكلام لا يجوز ان يقبله اي انسان ، ومقاطعة الاستيطان وإسرائيل هي شكل من اشكال المقاومة السلمية لسياستها.

اعتقد ان الامر يحتاج الى مشروع كامل ومتكامل لوضع نقاط ، حيث لا يمكن الحديث عن هذا الموضوع في دقائق عديدة . لكن ، اريد ان انهي بنقطتين سريعتين . الانقسام واستمرار الانقسام هو شكل من اشكال التعاطي مع الاستيطان ، الامر الآخر ، التطبيع وهرولة التطبيع في العالم العربي ، عند بعض الدول العربية هي شكل من اشكال اضفاء الشرعية على الاستيطان . لا يمكن الفصل بين الامور ، واعتقد أنه آن الاوان ان يكون الكلام واضحا وقاطعا في هذا الموضوع .

من يريد ان يحصّل حقوق الشعب الفلسطيني ويقيم الدولة المستقلة وعاصمتها القدس ، لا يمكن ان يبدأ من الاستخلاص السياسي الاخير ، انما من المقاومة الميدانية الشعبية لهذا المشروع .

شكرا لكم

عمرو موسى

شكرا للأستاذ محمد بركة ، فعلا ، المقاومة لها اشكال عديدة . وإنما الضعف الآن في الموقف الفلسطيني ينبع في جزء كبير منه الانقسام ، ومن ثم يستضعف الموقف الفلسطيني حتى في اطار العالم العربي.

البند الخامس ، حركة المقاطعة BDS ،والإجراءات الحكومية ضد الاستعمار الاستيطاني . الاستاذ غسان الخطيب .

٨. غسان الخطيب

شكرا سيدي الرئيس

فيما يتعلق بموضوع المقاطعة ،يلفت انتباهي بداية ، انه بينما ينشغل جزء منا نحن الفلسطينيين في مناقشة الازمة التي يعيشها المشروع الوطني الفلسطيني وأسباب هذه الازمة ، وأسباب ازمة البرنامج السياسي الفلسطيني وأساليب النضال الفلسطينية . نجد انه بموازاة ذلك تنخرط اعداد متزايدة من الشباب الفلسطيني والى جانبهم اعداد متزايدة من شباب في دول مختلفة من العالم اختاروا ان يناصروا الحق الفلسطيني في هذه الحركة المتنامية والمتصاعدة من حيث النفوذ والتأثير والتي تسمى حركة مقاطعة اسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها BDS .

اعتقد انه من اسباب جاذبية هذه الحركة عناصر ثلاثة هامة ، العنصر الاول : ان هذه الحركة تعتمد على اساليب سلمية وبالتالي هي تسحب البساط من تحت الدعاية الصهيونية التي تسعى عادة الى تشويه النضال الفلسطيني . ثانيا : هي حركة معيار عملها الاساسي هو القانون والقانون الدولي ، وبالتالي هي تعمل على اجتذاب المقاطعة لإسرائيل تحديدا على ارضية مخالفة اسرائيل للقانون الدولي ، وهي بهذا المدخل تتحدى الاساس الاخلاقي الذي تعتمد عليه اسرائيل في دعايتها وعلاقاتها الخارجية . ثالثا : هي حركة استطاعت ان تنجح في توحيد الشباب الفلسطيني بالرغم من اختلافاتهم الايديولوجية والسياسية . فكل المطلوب لمن ينخرط في هذه الحركة ان يوافق على ثلاثة مطالب سياسية اساسية عريضة ، كل من هذه المطالب الثلاثة يتعلق بجزء من الاجزاء الثلاثة للشعب الفلسطيني ، اولا : انهاء الاحتلال الاسرائيلي للأراضي المحتلة عام ٦٧ وثانيا : انهاء السياسة

العنصرية الاسرائيلية تجاه الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل وتحقيق المساواة الكاملة ، وثالثا : تطبيق حق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة وفق قرار الامم المتحدة ١٩٤ . وفي الحقيقة ، ونتيجة هذه الميزات ونتيجة التصاعد للالتفاف الشعبي الشبابي الفلسطيني والعالمي حول هذا الاسلوب وهذا المدخل ، نجد ان اسرائيل تتعامل بنوع من الذعر مع هذه الحركة ، وللتدليل على ذلك يمكن الاشارة الى الاستثمارات المالية والتشريعية والقانونية الهائلة التي توظفها اسرائيل والولايات المتحدة لمحاولة مقاومة هذه الحركة وهذا النمط من العمل.

ويمكن في الحقيقة ان تشكل هذه الحركة رديفا مكملا للدبلوماسية الرسمية الفلسطينية ، اذا استعدت الاخيرة لاستنفاذ الامكانيات القانونية والدبلوماسية الرحبة التي يتيحها القانون الدولي لنا . فكما هو معروف، فإن مكانتنا القانونية في المؤسسات والمحافل الدولية و الانتهاكات الاسرائيلية المستمرة للقانون الدولي ، تتيح الفرصة للجانب الفلسطيني اذا اراد ، ان يحقق مكاسب كثيرة في مجال تدفيع اسرائيل اثمانا قانونية باهظة لهذه المخالفات الاسرائيلية .

يستغرب الكثيرون من اصدقائنا من تناقضنا احيانا من استنفاذ هذه الفرص القانونية . فالتوسع الاسرائيلي في المناطق المحتلة وما يترتب عليه من مسلكيات اقتصادية وثقافية واجتماعية وغير ذلك ، يشكل وفق القانون الدولي جرائم. وكما هو معروف فإن القوانين المحلية في كثير من الدول ، منسجمة بطبيعة الحال مع القانون الدولي ،وبالتالي ، يمكن لنا كجهات فلسطينية رسمية ان نقاضي اسرائيل قانونيا في القوانين المحلية لعديد من الدول اضافة الى عملنا في المؤسسات الدولية .

في الخلاصة ، ان استراتيجية فلسطينية ذات جناحين ، جناح في جانب الدبلوماسية والقانون الدولي ، وجناح في مجال الدبلوماسية والعمل الشعبي على شاكلة حركة المقاطعة BDS ، من شانها ان تشكل اسلوب عمل يرفع من الوضع الفلسطيني الحالي ويخلصه من المأزق الحالي الذي يعيشه ، ويشكل عوامل ضغط كبيرة على الجانب الاسرائيلي ،نحن بحاجة لها في هذه الظروف الصعبة التي تعيشها القضية الفلسطينية . وشكرا

د. ناصر القدوة

شكرا دكتور غسان ، الان ، سنعود لموضوع قطاع غزة والوحدة ، سيكون هناك اثنان من الاخوة المتحدثين ، المتحدث الاول سيكون كايد الغول حول الاستراتيجية الاسرائيلية تجاه قطاع غزة ثم الاستاذ سمير حباشنة حول استعادة الوحدة الوطنية والإستراتيجية اللازمة. استاذ كايد تفضل.

الاستراتيجية الاسرائيلية تجاه قطاع غزة:

٩. كايد الغول

شكرا دكتور ناصر

الجميع يعلم ان قطاع غزة كان دوما محل بحث في السياسات الاسرائيلية ، بتحديد كيفية التعامل معه بدون ان تتحمل اسرائيل اعباء استمرار سيطرتها على القطاع .

مع تطور الاحداث خاصة على الصعيد الفلسطيني ، ثبتت اسرائيل استراتيجية تقوم على بعدين في تعاملها مع قطاع غزة ، اولهما ابقاء الانقسام وقطع الطريق على امكانية انهائه بتدخل مباشر او غير مباشر ، ثم فصل قطاع غزة عن الضفة لاعتبارات سياسية ، هذه الاستراتيجية التي ايضا لها بعدان ، بعد سياسي كما اشرت ، يساعد في تعزيز الرؤيا الاسرائيلية للحل مع الفلسطينيين بما يقطع الطريق على امكانية اقامة دولة فلسطينية على الضفة والقطاع وعاصمتها القدس وعلى حق اللاجئين بالعودة .في البعد الامني ، يستهدف الاحتلال الحفاظ على الهدوء من القطاع دون الوصول الى احتلاله ، حتى لا يدفع ثمن الاحتلال مرة اخرى.

برأيي ، تفكير اسرائيل بالفصل ،باعتباره اصبح السياسة الثابتة ترافق مع بحث على من يتحمل مسؤولية غزة ، بحيث يكون قوياً ولديه رغبة كبيرة في حكم القطاع ويمتلك القدرة على حماية حكمه ، هذه المحددات التي وضعتها اسرائيل لمن يمكن ان يتحمل مسؤولية القطاع.

وفي سياق هذه الرؤيا ،تراجعت لدى اسرائيل اهمية من يحكم قطاع غزة . سابقا كانت دائما تتحدث عن السلطة ولكن من بعد ذلك راجعت هوية من يحكم غزة ، وأصبحت لديها مجرد محور هامشي ، اي ، لم يعد وجود السلطة شرطا لتعامل اسرائيل مع قطاع غزة .

للسير في هذه الاستراتيجية ، وضع عدد من الشخصيات السياسية والعسكرية بعض السياسات التي تساعد في تحقيق هذه الاستراتيجية . منها اهمية وجود عنوان في غزة يتم التعامل معه وتحميله المسؤولية . والمقصود هنا ، حركة حماس ، بشرط ان تكون ضعيفة ومكبلة .

البند الاخر في هذه السياسة هو استخدام سياسة الردع المؤقت ، والقيام بعمليات عسكرية بين الفترة والأخرى ، لتحقيق ما سبق وإضعاف قدرة المقاومة و في مقدمتها مقاومة حركة حماس على ممارسة اي دور اتجاه الصراع مع اسرائيل . وهذا برأيي ما يفسر ان الحروب السابقة التي وقعت على قطاع غزة وآخرها حرب ٢٠١٤ لم تستهدف انهاء حكم حماس ، وإنما استهدفت اضعاف قدرات حركة حماس وقوى المقاومة . وكان الهدف ايضا هو الحفاظ على الوضع القائم ، لأنه وضع مريح لإسرائيل من الناحية السياسية . حيث انه ، بالنسبة لإسرائيل ، لا حرب واسعة في قطاع غزة

مع ابقائه محاصرا وتحت الضغط . وفي ذات الوقت، لا مفاوضات مع السلطة حتى لا تصل الى المطالبة بإقامة الدولة وموضوع اللاجئين .

البند الاخر في هذه السياسة ، هو الحفاظ على وضع اقتصادي متوازن بين الحاجة الدائمة وتوافرها . ولذلك اسرائيل كانت دائما تعمل على رصد مدى احتياجات القطاع وتعمل على ادخال ما هو ضروري و حرمان القطاع من متطلبات اخرى ضرورية ، لكنها لا تدخل في اطار له علاقة بالحياة المعيشية للسكان . وبالتالي فان اسرائيل في اطار الضغط وفي اطار عملية الفصل ، اتبعت هذه السياسة .

رأى الساسة الذين وضعوا هذه السياسات ان هذا سيقود الى هجرة واسعة من غزة الى دول العالم ، وهذا احد الاهداف الاسرائيلية التي سعت لها على الدوام منذ نشوء هذا الكيان في تهجير الفلسطينيين حتى تتمكن من تحقيق اهدافها كاملا في الاراضي الفلسطينية .

في اطار الترجمة لما سبق ، تم تحييد السلطة قدر الامكان عن التسهيلات التي تقدم لغزة . والسلطة ساعدت في ذلك ، عندما استنكفت ان تلعب دورها في ان تمر كل المساعدات ، بغض النظر عن اهدافها ، الى القطاع . وعندما لم تصر بان تدخل المساعدات من خلالها مهما كانت الاهداف المرادة من هذه المساعدات .

واعتقد موضوع قطر ابرز مثال. قطر كانت تتدخل دائما لتقديم تسهيلات. تقديم امكانات في محاولة حل معضلات غزة وإبقائه تحت السيطرة.و في ذات الوقت من خلالها ومع اطراف اخرى تصل لتفاهمات مع حركة حماس .وهذا ايضا جزء من استبعاد السلطة في اي دور لها في قطاع غزة . ايضا جرى بحث ويجري بحث مع اطراف دولية لاقامة صندوق دولي ، هو الذي يشرف من خلال الأمم المتحدة أو الـ UNDP على اقامة مشاريع جرت الوعود بها ارتباطا بالتفاهمات التي جرت. وأيضا في ذلك تجاوز السلطة رغم أنها كانت شريكا في المؤتمرات التي عقدت لهذا الغرض ، ولكن الهدف هو ان لا تكون السلطة المنفذ المباشر في هذه المشاريع وإنما ستكون من الـ UNDP .

والعنوان الثالث هو تحسين الوضع في قطاع غزة قدر الامكان ارتباطا بالتطورات التي تضمن ثبات السياسة الاسرائيلية . ما الذي يترتب على السياسات الاسرائيلية المنضبطة لاستراتيجياتها اتجاه قطاع غزة ؟. برأيي ان غزة لم تعد جزءاً من النقاش حول الحل مع الفلسطينيين ، هكذا تعمد اسرائيل ، اخرجت غزة من كل هذه العملية .

ومن ثم تهيئة الاوضاع في القطاع لان يصبح هو الكيان للفلسطينيين أو مركز الكيان الفلسطيني . كيان لا يصلح كدولة ، وكيان يمكن ان يشعر من خلاله الفلسطينيون انهم وجدوا تجسيدا

لتطلعاتهم في دولة او كيان ما. ولذلك كل المساعدات والمشاريع التي يتم الحديث عنها هي تجري في سياق هذه التهيئة.وقد يتسع في طبيعة الحال هذا التصور الى امتدادات في الضفة مسيطر عليها لتزيد من امكانية رؤية الفلسطينيين ان تطلعاتهم قد تحققت .

السؤال الذي يخطر على البال. هل السياسات القائمة فلسطينيا يمكنها افشال الاستراتيجية الاسرائيلية اتجاه القطاع ان تعمل على التسهيل لتنفيذها ؟ . جوابي للأسف ان السياستين تساعدان هذه الاستراتيجية على التحقق بغض النظر عن الدوافع لكل من السياستين .

وأنا حاليا أقول ليس مهماً أن نتلاوم من المسؤول عما يمكن ان يحصل ، المهم هو ان نمنع الكارثة التي ستحصل نتيجة هذه الاستراتيجية ، وكجواب على كيفية مواجهة هذا التحدي برأيي بإنهاء الانقسام بعقلية مختلفة عما هو سائد ،عقلية لا تنحكم للإقصاء ، عقلية لا تحتكم للصراع على السلطة بمعناها القائم، انما المطلوب بناء وحدة وطنية حقيقية تحمل مشروعا يعيد الصراع مع اسرائيل الى طابعه . شكرا لكم

عمرو موسى

شكرا للأستاذ كايد الغول ، الكلمة الان للأستاذ سمير حباشنة ، وموضوع استعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية :الاستراتيجية اللازمة:

١٠. سمير حباشنة استعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية

معالي الرئيس الاخوات والإخوة الاعزاء

يعني حقيقة معالي الرئيس بعد ما استمعنا إلى الوجبة الدسمة من الاحباط من اخونا عزام الأحمد لا ندري ماذا نقول ومن اين نبدأ في استراتيجية الوحدة الفلسطينية وإستراتيجية انهاء الانقسام لكن معالي الرئيس انا سأبدأ من صفقة القرن ونحن نتحدث بها لأنها غير معلوم هي منتظرة ولكن حقيقة هي تطبق على ارض الواقع يعني عندما تغلق مكاتب المنظمة في واشنطن وعندما يتآمروا على الاونروا ويعيدوا تعريف اللاجئ الفلسطيني بحيث الذي خرج في سنة ٤٨ فيزيائيا هو كشخص وبصير في عدد ٣٠ ٤٠ الف وعندما تنقل السفارة الأميركية للقدس وعندما يخرج قانون العنصرية الاسرائيلية.. هذه هي صفقة القرن انا اعتقد انها تقدم لنا تماما مثل شرائح الجبن او المرتديلا شريحة شريحة ونحن في حالة انتظار ماذا سيقول كوشنير عن الفنكوش (فيلم لعادل

امام) عندما شرح عادل امام مرة ما هو الفنكوش ومحاسن الفنكوش دون ان يقول ما هو الفنكوش حقيقة نحن امام هذا الوضع الان في صفقة القرن وأنا أعتقد ، اخواتي وإخواني ، ان الرد على صفقة القرن بثلاثة نقاط

النقطة الاولى انه لن يوجد طرف فلسطيني يوقع على صفقة القرن وهذا ما أعلنه الرئيس ابو مازن وتعلنه كل الفصائل وبالتالي صفقة القرن وان اعلنت متكاملة فبتقديري مادام لا يوجد طرف فلسطيني يوقع فهي قرارات مثلها مثل اي قرار قام به الاحتلال الاسرائيلي منذ سنة ٤٨

النقطة الثانية تشبث الشعب الفلسطيني في الارض وبقاؤه عليها والتي تكلم عنها الاخوان اخوتي وإخواتي الشعب الفلسطيني متشبث وأنا من موقع سابق لي في العمل اطلع واطلعت في عام ٢٠١٨ على حركة الجسور على سبيل المثال من الذي خرج من فلسطين بالعدد ومن الذي عاد نطمئنكم ان الذين يدخلون فلسطين سنويا اكثر من الذين يخرجون هذا انجاز لا نتحدث عن عواقب بل نتحدث عن تشبث حقيقي يقدمه الشعب الفلسطيني الان اضعف الايمان من العرب الذين ينفقون باليمنى وباليسرى ان يساعدوا هذا التشبث ليس مطلوب شيئا بل اضعف الايمان ان نساند الشعب الفلسطيني ان يتشبث في ارضه بالخدمات والوظائف وما شابه.

النقطة الثالثة بالمجابهة هي الانقسام الفلسطيني يا استاذ عزام وأنت صديقي هنا درسنا معا تجارب كثيرة في العالم دائما حركات التحرر الوطني التي نجحت استطاع التناقض الرئيسي بها ان يهمش ويؤجل التناقض الثانوي وأكبر مثل الصين عندما بدأ الغزو الياباني أوقف ماوتسي تونغ حربه ضد تشنغ كاي تشيك وانضم إلى الجيش الوطني لدحر الغزاة وبعد خروج اليابانيين ابتدأوا بالشأن الداخلي لذلك لا يوجد أي مسوغ لدى الفصائل الفلسطينية جميعها ليبقى الحال كما هو عليه مش معقول ندخل في تفاصيل وألف اتفاق وكل مرة نستبشر وفي الآخر نطلع ونعلن اننا لم نتفق انا مقترحي المحدد معالي الرئيس اعتقد انه لابد من اعادة الحيوية لمنظمة التحرير الفلسطينية كذراع كفاحي للشعب الفلسطيني وفصلها او وضع مسافة بينها وبين السلطة الوطنية بحيث تبقى السلطة الوطنية مقدمة الدولة مثل ما تفضلتم تقدم خدماتها اليومية للشعب تحت الاحتلال وتبقى في اطار غير سياسي وغير سيادي وان تذهب القضايا السيادية والكفاحية لمنظمة التحرير وان تدعى كل الفصائل الفلسطينية للدخول إلى هذه القاعدة وتتفضل على منظمة التحرير الذراع الكفاحي وبالمقابل ليس هناك اي مبرر للإخوة في حماس ان تبقى غزة بعيدة عن حاضنة الوطن الفلسطيني هذا شيء معيب هذا الانقسام غير مقبول ان تقوم دول وهمية تحت الاحتلال هذا الامر فقط في حالتنا الفلسطينية بهذه الحال اذا ما عملنا هذه المسافة بين السلطة من جهة ومنظمة التحرير الفلسطينية كذراع كفاحي يصبح من السهل ان تبحث القضايا الخلافية المركزية داخل منظمة

التحرير وتبقى السلطة في اطار الامر الخدمي الذي تقوم به في خدمة الشعب الفلسطيني وأنا اعتقد و بالمقابل الاخوة في السلطة القضايا المطلبية البسيطة في غزة للشعب الفلسطيني يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار وبجدية وربما بهذا الفصل والدور العربي علينا نحن المفكرين ان نضغط عربيا الا يبقى الشعب الفلسطيني وحيدا في معركته في وجه الاحتلال المتغطرس وشكرا جزيلا .

١١. طلال عوكل

فكرة أن إيران تشكل الخطر المركزي على المنطقة العربية والتحالفات المطروحة في مواجهتها:

مساء الخير سيدي الرئيس الاخوة جميعا الحضور والأخوات عندما تحدث معي الدكتور ناصر انه خمسة عشر عنوان استغربت هذه الالية لكن بصراحة اشكركم على الاختيار مما يقدم مشهداً شاملاً للوضع الفلسطيني والعربي بعقل تشاركي والمخرجات جيدة ويمكن الاستفادة منها بقدر التكثيف الذي جرى في اطار العنوان نحن امام عنوان بصراحة خطير يتقاطع مع كل ما جرى سابقا ولكن مرة اخرى نضيف عنواناً اخر ونجد انفسنا امام سوداوية المشهد او في احسن الاحوال رمادية المشهد الحديث عن التطبيع هو حديث بطبيعة الحال ملتصق تماما بهذا العنوان موضوع اين هو الخطر الرئيسي على الامة العربية وربما تكون شهادتنا كفلسطينيين مجروحة لأننا اصحاب قضية وسنظل نطالب كل العالم ان يبدي تركيزا واهتماما على القضية الفلسطينية وربما لو كان احد الاخوان العرب كان سيكون مرتاحاً اكثر بالحديث عن هذا الموضوع مع ذلك الامر بيّن قبل اسبوعين عقد مؤتمر في وارسو تحت عنوان الامن والسلام في الشرق الاوسط دعت له الولايات المتحدة خارج اطار الامم المتحدة ولم يصدر عنه قرارات او بيانات وبالتالي جرى شكل من اشكال الاستهزاء والاستخفاف بالمؤتمر لكن بصراحة المؤتمر خطير وحضرته عشر دول عربية الى جانب سبعين دولة وموضوعه الاساسي التركيز على ايران ولم تطرح القضية الفلسطينية ربما بالكواليس لكن ايران هي الخطر الرئيسي هي راعية الارهاب ومن اجل مواجهة هذا الخطر لابد ان تنشأ تحالفات وهذه التحالفات حُكي عنها سابقا لكن في وارسو تجسدت بدايات هذه التحالفات التي يراد بناؤها ماهو الموضوع عند بعض الاشقاء العرب اذا راقبنا السياسة العربية تجاه الموضوع في كل القمم العربية وفي كل الاجتماعات الى آخره كل مرة يؤكدون ان القضية الفلسطينية هي القضية المركزية لكن بعد ذلك في السياسات العملية سنلاقي التركيز يذهب باتجاه الخطر الايراني بين قوسين لماذا يحصل هذا طبعا ربما البعض ينتابه خوف مما يجري في المنطقة العربية على النظام القطري السياسي القائم ربما البعض يقول بان القضية الفلسطينية استراتيجية غير مطروحة للحل

والمعالجة وربما البعض يتذرع بالانقسام الفلسطيني لكن في كل الحالات أعتقد أن هذا بالاضافة الى انه يعبر عن سياسات ذاتوية انطلاقا من الحاجة لحماية النظام لكن النتائج لا علاقة لها لا بحماية النظام ولا بحماية المجتمع العربي ولا بحماية الامة العربية في النهاية سيكتشف هؤلاء انهم خدعوا كما خدعت الثورة العربية الكبرى الذي يريد ان يصل الى نتيجة عليه ان يناقش مسألتين اولا عليه ان يعود للتاريخ ماهو اصل الخطر الذي ينتظر حاضر ومستقبل الامة العربية اسرائيل لماذا انشئت الكل اصبح يعرف ذلك اسرائيل انشئت لأغراض استعمارية وأغراض التخلص من المسألة اليهودية ولأغراض تتعلق بمنع نهضة الامة العربية إلى الابد لماذا ؟ هنا ١٤ الف كيلو متراً مربعاً هنا منطقة استراتيجية تطل على بحار ومحيطات وسط العالم هنا ثروات هائلة هنا مجتمع عربي متماثل بالثقافة والتاريخ وإلى حد كبير بالدين وإلى اخره هذه قوة لو كانت في وضع مختلف لم تكن الصين لتسبقها بالتطور اذن هذا هو الموضوع بدءاً من ١٩١٦ سايكس بيكو ثم ١٩١٧ وعد بلفور ثم المشروع الصهيوني ثم اسرائيل وعندما تراجع التاريخ ستصل الى نتيجة أن العرب والفلسطينيين خاضوا حروباً او خيضت عليهم حروب من قبل اسرائيل ومعها الولايات المتحدة كل الوقت كم حرب ٤٨ ،٥٦ ، ٦٧، ٧٣، ٨٢، ٢٠٠٦ وثلاث حروب على قطاع غزة وحرب ٢٠٠٢ على الضفة السور الواقي وإيران ماذا فعلت بهذه الفترة ؟ ايران صادرت الجزر الاماراتية الثلاث في عام ٧١ وكان ذلك في ايام الشاه وكل العرب يعلموا ان ايران كانت مستندة إلى تحالفها مع الولايات المتحدة واسرائيل واتى نظام الثورة الايرانية حتى الان عنده اطماع صحيح لكن اين المشكلة في هذه الاطماع ؟ انا برأيي انه مخطئ جدا من يعتقد ان ايران تستطيع ان تبتلع دولة الامويين او دولة العباسيين او دولة سبأ لا تستطيع ان تبتلع اي دولة، العرب متجذرون في التاريخ وبالتالي نحن امام عملية تضخيم مقصودة للخطر الايراني وأنا لا اقول ان ليس هناك مشكلة لا هناك مشكلة لكن لو التفتنا قليلا اميركا عندما احتلت العراق وسيطرت على الوضع في العراق كيف امكن لإيران ان تصبح صاحبة نفوذ في العراق وعندها مليشيات موازية للجيش العراقي تحت بصر ونظر الولايات المتحدة والقوات الاميركية ؟ كيف يعني ولماذا ؟ اذن نحن امام افتعال كما افتعلت الولايات المتحدة وصنعت القاعدة وبعد ذلك تذرعت بموضوع صدام حسين والنووي إلى اخره وأفغانستان وبعدها داعش واليوم ايران حتى تجرد الامة العربية من كل امكانياتها ونحن في مرحلة خطرة الموضوع الفلسطيني الان لا يؤجل، مواجهة الخطر الاستراتيجي المهم في الموضوع الفلسطيني لا يؤجل، ايران تؤجل لكن الموضوع الفلسطيني لا يؤجل لذلك انا اعتقد كفلسطيني علينا ان ننزع الذرائع ؟ نحن نضع حجج وذرائع اننا منقسمين وإلى اخره ولكن يجب أن نضع العرب أمام مسؤولياتهم هناك قمة الشهر القادم لا ينفع ان يقولوا القضية الفلسطينية القضية المركزية وبعد ذلك الجهد العربي

يذهب ويتشتت ويتشرذم في مواجهة ايران وبأغلى التكاليف وأميركا لا يوجد عندها استعداد ان تدفع دولاراً واحداً وغدا اسرائيل التي قسمت السودان ستصبح على شواطئ المحيط الهندي بأيادٍ عربية ستأخذها الى هناك وهل هذا يحمي النظام العربي ؟ النظام العربي يحمي نفسه بطريقتين أولا يعيد صياغة العقد الاجتماعي وبناء نظام حصين وثانيا بوحدة العرب وتكاتف العرب لماذا اسرائيل تحتاجنا لان هناك دول عربية تملك امكانيات قوية اذا كان المطلوب مواجهة ايران وهذا هو الموضوع لكن اميركا ترسم وتخطط بالأصل تصفية القضية الفلسطينية وتحويلها الى محميات اميركية واسرائيلية .. وشكرا

١٢. هاني المصري

الكلمة الان عن تطبيع بعض الدول مع اسرائيل اسبابه ، فوائدة المفترضة ومدى تأثيرات ذلك على القضية الفلسطينية - هاني المصري

اسرائيل منذ البداية حاولت تطبيع علاقتها مع الدول العربية وحاولت ذلك بدون التجاوب مع الحقوق الفلسطينية بل من خلال استمرار استعمارها الاستيطاني واستمرار توسعها العنصري ومن خلال محاولة اقامة اسرائيل الكبرى تارة من خلال الضم الزاحف وتارة من خلال الضم المباشر ، اسرائيل تلعب دورا اساسيا في المنطقة العربية باعتبار اسرائيل لم تكن فقط كياناً من اجل تأسيس دولة لليهود في فلسطين وإنما اسرائيل تطلق مشروعها الاستعماري تستهدف وتلعب دوراً مركزياً في المنطقة العربية لإبقاء الهيمنة والتخلف والتبعية والتجزئة على هذه المنطقة هذه المقدمة ضرورية قبل ان ندخل في الموضوع

ثانيا رغم النجاحات الكبرى التي حققتها اسرائيل خاصة بالفترة الاخيرة على صعيد تطبيع علاقاتها مع الدول العربية الا اننا لا يجب ان نقع في وهم تصديق نيتنياهو والحكومة الاسرائيلية التي تتحدث عن اختراقات كبرى وعن انجازات كبرى وأن الآتي اعظم، المسألة معقدة وصعبة وليست بالبساطة التي تصورها اسرائيل.

اسرائيل حاولت ان تستخدم العرب للحلول محل الفلسطينيين فيما تسمى صفقة ترامب ولم تنجح وكان الرد العربي اننا نقبل بما يقبل به الفلسطينيون وفي بعض اللحظات عندما حاول بعض الخبراء وبعض الحكام ان يتجاوبوا مع هذا الامر اكتشفوا انه فوق قدرتهم على العمل هذه مسائل يجب ان تكون واضحة حتى مراكز الابحاث في اسرائيل و العلمية أكثر من غيرها مثل مركز ابحاث الامن القومي الاسرائيلي التابع لجامعة تل ابيب قال في دراسة اخيرة رفعها للحكومة الاسرائيلية ان تصور

اسرائيل عن قدرتها على التطبيع مع الدول العربية بدون حل القضية الفلسطينية فيه من الاوهام اكثر مما فيه من الحقائق هذه نقطة مهمة رغم ذلك كله لماذا يحدث التقدم في التطبيع الذي لاشك هو في الفترة الاخيرة أولا فشل ما يسمى عملية السلام هذا الفشل جعل اسرائيل اكثر تحملا وجعل الدول العربية اكثر تحررا لان عملية السلام ورغم كل ما يقال عنها وهو عن حق الا انها تمثل قيدا على اسرائيل، إسرائيل تتمنى التغطية على الاستيطان وفرض حقائق على الارض ولكن قدرتها على التوسع وعلى عمل تطبيع حتى مع البلدان التي انجزت معاهدات سلام مع اسرائيل مثل الاردن ومصر كان السلام باردا ولا يزال باردا رغم مرور فترات طويلة في هذا الاتجاه ، ثانيا اسرائيل خلقت واقعاً في الارض المحتلة ولو يسمح لي الاخ محمد بركة الاستيطان في الضفة الغربية حسب مصادر مؤكدة فلسطينية واسرائيلية وصل اكثر من ٨٠٠ الف مستوطن وهناك مخططات اسرائيلية لرفع هذا العدد إلى مليون او اكثر خلال فترة بسيطة ، اسرائيل خلقت واقعا أدى الى شعور بعض العرب ان الوضع ميؤوس منه وان حل الدولتين انتهى وأننا يجب ان نعترف بالأمر الواقع الذي تفعله اسرائيل وهذا يفسر ما يجري ، ثالثا الانقسام الفلسطيني وتأثيره في اضعاف الموقف الفلسطيني والفعالية الفلسطينية وخاصة في ظل استمرار ارتباط السلطة بالتزامات اوسلو رغم قراراتها عبر المجلس الوطني والمجلس المركزي لعدة سنوات بإنهاء العلاقة مع الاحتلال واعادة النظر بالتزامات السلطة مع اسرائيل هذا واقع يجعل الفلسطينيين اضعف في معارضة خطوات التطبيع ، لو نفذنا هذه القرارات ولو بشكل متدرج ولو ضمن عملية متدرجة لكان سيكون تأثيرنا اكبر على العرب وعلى غير العرب على امتداد العالم .

رابعا : الانقسامات والحروب الافقية والبنيوية العربية التي اشغلت العرب عن القضية الفلسطينية ولكن بدون ان نبالغ في هذا الامر لان هناك بعض الناس يقول ان القضية الفلسطينية اصبحت ثانوية وغير مركزية وغير هامة هذا امر فيه من المبالغة الشيء الكبير تراجع الاهتمام في القضية الفلسطينية ولكنها لا تزال مهمة جدا بدليل ان مختلف القادة من بيل كلينتون الى اوباما الى ترامب الى كل الادارات الاميركية والدول الاوروبية وكل العالم يعطون اهتماماً لهذه القضية حتى بالمرحلة التي يقال انها تراجعت وأصبحت ثانوية اكثر مما يعطوا لاي قضية اخرى في العالم فهذه قضية عادلة ومتفوقة اخلاقيا وقضية قابلة للاستخدام من كل الاطراف الشريرة والجيدة الرسمية وغير الرسمية وبالتالي هي تؤثر على الامن والاستقرار في العالم وبالتالي هي مهمة في كل الاوقات رغم التغير الذي يحصل على مستوى ودرجة اهميتها.

خامسا: تراجع القيم الليبرالية والديمقراطية في العالم وصعود التيارات القومية و الشعبوية واليمينية المتطرفة خصوصا في اميركا والعديد من بلدان العالم وهذه الظاهرة في منتهى الاهمية ولا تزال

مستمرة ويمكن ان تكون قابلة للاستمرار لان هذه الظاهرة ممكن ان تنتشر في اوروبا اكثر و اكثر وعلينا ان نستعد لهذا الوضع وانعكاساته وتبعاته على الوضع الفلسطيني.

سادسا : تصور عدد من الحكام العرب ان العمل على التطبيع مع اسرائيل يسهل لهم الحصول على رضا وتعاون الأميركان والاعتراف بهم وبدورهم.

سابعا: التصور ان التحالف مع إسرائيل في وجه ما يسمى الخطر الايراني وخطر ما يسمى التطرف الإسلامي يمكن ان يجعل إسرائيل تحارب إيران وبالتالي يمكن ان يكون هناك حلف عربي اسرائيلي اميركي لمحاربة ايران وهذا به من الوهم الشيء الكثير، إسرائيل لن تحارب ايران كرمى لعيون العرب ولا هذا الأمر وارد كحرب كبيرة ولا للولايات المتحدة الاميركية وهذا يقودنا الى النقطة الثامنة ان الدول العربية تستفيد من خلال علاقاتها مع اسرائيل من امكانيات اسرائيل الأمنية والعسكرية والتكنولوجية وعلينا ان نعترف ان اسرائيل متقدمة بهذه المجالات وأنها تقدم فوائد ملموسة وعينية ليس فقط للدول العربية وإنما للصين وبلدان اخرى في العالم .

تاسعا : وهذه نقطة في منتهى الاهمية تراجع دور الدول الكبرى لصالح الدول الاقليمية فإذا اخذنا منذ تفكك الدولة العثمانية قبل ١٠٠ عام وانتهاء حقبة الاستعمار المباشر منذ حوالي ٦٠ عاماً وانتهاء الحرب الباردة قبل حوالي ٣٠ عاماً وبداية انتهاء الحقبة الاميركية التي نعيش بداياتها ان هناك تغيرات تأخذ مجراها شيئا فشيئا ان هناك دول اقليمية تحل محل الدول الكبرى في السابق كانت الدول الكبرى هي التي تلعب الدور الاكبر هذه الظاهرة يجب ان نراها ونتتبعها بشكل دقيق لأنها ستنعكس سواء على التطبيع او على غيرها من المسائل وان الدول الاقليمية يجب ان نأخذها في الحسبان وهذا يقتضي منا ان نعيد النظر في علاقتنا مع ايران لان الاستمرار في العلاقة الصفرية مع ايران يساعد على وقوع اخطاء كثيرة من الجانب العربي ولا يعني ذلك انه لا يوجد لإيران اطماع وان ايران لا تقوم بأخطاء فيما يتعلق بالطائفية او فيما يتعلق بالدور الفارسي او فيما يتعلق بمحاولة مد نفوذها في العراق وسوريا وغيرها من المناطق ولكن تبقى ايران جزءاً اصيلاً من المنطقة وتبقى ايران جارة وتبقى ايران حقيقة غير قابلة للتغيير اذا نظرنا إلى الاف السنوات السابقة في حين ان اسرائيل ستبقى كياناً زائلاً مؤقتاً مهما طال عمرها وهذا الامر لا اقوله انا او يقوله بعض الفلسطينيين او العرب، الان مؤرخون مثل بيني مورس كتب مؤخرا عن ان اسرائيل ستضمحل ، ابراهام بورغ الذي كان رئيس الكنيست الاسرائيلي كتب كتاباً عن ان اسرائيل لن تبقى في المنطقة وغيرهم كثير ليس من قبيل التشاؤم وإنما من قبيل رؤية المآزق والتناقضات التي تعيشها اسرائيل رغم تفوقها الكبير ورغم دورها الكبير في هذه المرحلة الا ان هناك حائطاً مسدوداً اذا لم يحدث تغيير جوهري بالإستراتيجية الاسرائيلية سيكون لذلك نتائج سيئة للغاية وأخيرا بالتأكيد ان

ما شجع اسرائيل ان الدول العربية طرحوا مبادرة السلام العربية في وقت غير مناسب وطرحوها بدون انياب لذلك لاحظنا بعد طرح مبادرة السلام العربية في اليوم الثاني شن شارون حرب السور الواقي على المدن الفلسطينية في الضفة الغربية ووصل الى محاصرة ياسر عرفات وصولا الى اغتياله وبالتالي تم الهبوط في سقف الموقف العربي بدون ان يكون هناك امكانية للتوصل إلى تسوية او امكانية لاسرائيل ان تقابلنا في موقف بنفس الاتجاه وهذا الامر لا يستدعي ان نتراجع عن مبادرة السلام العربية ولكن علينا ان نأخذ بما قاله الاستاذ الياس من ضرورة توفير عناصر قوة والعمل من اجل تغيير موازين القوة والإيمان بأن اسرائيل وليس فقط الحكومة الحالية ولكن اسرائيل باتجاهها العام غير قابلة للتسوية غير موافقة على اقامة دولة فلسطينية هناك استنتاج خلص اليه مختلف مراكز الابحاث الاسرائيلية ان اقامة الدولة الفلسطينية خطر على اسرائيل وان الفلسطينيين والعرب الذين يعترفوا بإسرائيل يقومون بذلك من موقع الضعف وبالتالي علينا ان نبقيهم ضعفاء حتى من اقامت معهم اسرائيل علاقات وتعاون وتطبيع ومن تنظر لهم بعين الرضا وهذا استنتاج مراكز ابحاث اسرائيلية وليس رأيي انه يجب ابقاء الفلسطينيين والعرب بما فيهم حلفاء اسرائيل ضعفاء ومشرذمين ومفتتين حتى نبقى نمنعهم من الحلم بالانتصار على اسرائيل لأنهم حتى الذين اعترفوا بإسرائيل لا يؤمنون بوجودها ولا شرعيتها وهذا هو الأمر وشكرا لكم .

تعليق د. عمرو موسى: الآن موضوع المسيحيون الصهاينة تأثيرهم وكيفية مواجهتهم:

١٣. المطران منيب يونان :

أبدأ كلامي بأن هؤلاء هم الحركة الإنجيلية، وأساسها هو الإصلاح اللوثري والذي قام به المصلح مارتن لوثر في القرون الوسطى، ومنها بدأ ببناء الكنائس الوطنية الإنجيلية، ومنها الكنيسة اللوثرية، و المصلحة ، والكنيسة المشيخية وغيرها.. وهذه الكنائس حافظت على تعاليم الدين المسيحي حسب الإنجيل، وحين دخولها إلى الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر اهتمت بالتعليم الأساسي والعالي، كال AUC و AUB وغيرها، والصحة وكانت دائما جزءاً لا يتجزأ من الإطار القومي العربي والقومية العربية، أما عندما بدأت تظهر بعض الحركات الإنجيلية الأخرى وهي تنقسم في العالم إلى اكثر من ٩٠٠ جماعة، وتنقسم إلى ثلاث مجموعات، منها ما هو مسؤولي الذي يقبل التعامل مع باقي الكنائس بروح المسؤولية وهم أعضاء رسميون في مجلس الكنائس العالمي ، ومنهم من لا يعترف بالكنائس الأخرى ويهتمون بالتبشير في كل حدب وصوب، ومنهم المتطرفون الذين يتخذون من اللاهوت شعارهم واخص بالذكر المسيحية الصهيونية، او المسيحية المتصهينة

وهي تقسم التاريخ إلى سبع حقبات، وتعتبر أن إسرائيل والكنيسة منفصلتان في هذه الحقبة السابعة، وستظهر الألفية الحالية أوج مقاصد الله لإسرائيل. وتؤمن هذه الإنجيلية المتصهينة بحرفية الكتاب المقدس وان جميع النبوات لم تتم بعد، فهي تسّيس الدين وتديّن السياسة، وتروّج اخلاقيات ضيقة الأفق، كما شهدنا في الانتخابات الأميركية السابقة من إجهاض وتحديد النسل، ومع أنها تنقسم إلى خمس فرق اليوم، إلا أنهم يتفقون بأن تأسيس دولة إسرائيل للشعب اليهودي هو تتمة للعهد القديم مغايرا لمفهوم الكنائس الوطنية، المؤسسة بأن تتمة النبوات هي بالسيد المسيح وحده، وقد انتعشت تلك الأفكار المغلوطة بعد حرب عام ١٩٦٧ واحتلال القدس وجدوا أن مقصد الله تحقق كما يتخذون من آيات معينة في العهد القديم لتطبيقها على الوقت الحاضر، ومنها أن يتم بناء الهيكل بعد احتلال القدس ويعجلون بعودة المسيح، وعندما يأتي المسيح ويحارب يأجوج ومأجوج ويقضي على ثلثي من لا يؤمن به إن كانوا يهوداً او مسيحيين او مسلمين، مع العلم ان الفكر اليهودي يختلف كل الاختلاف معهم، لأنه يؤمن انه عندما يأتي المسيح يجلب الهيكل الثاني معه، والذي لا يبنى بيد إنسان، بل يأتي من السماء، فهم أيضا يختلفون مع الفكر اليهودي ومع المؤسسة الرسمية الأرثوذكسية، وينقسمون إلى فرق صغيرة مثل أمناء الهيكل وغيرها..

وانتعشت هذه الحركات في عهد الرئيس رونالد ريجان، والرئيس ترامب، وهم يعتبرون ترامب الآن هو كورش الجديد ممثلاً بكورش الفارسي الذي اخرج الشعب اليهودي من السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، ومع أنهم لا يقبلون تصرفات ترامب الأخلاقية، إلا إنهم سامحوه و يعتبرون مجيئه من اجل الحرية لأميركا وان يعتق الشعب اليهودي وهكذا يحقق إرادة الله على إسرائيل.

أما بالنسبة لنا كمسيحيين، من مختلف الكنائس، بما فيها الإنجيليين، والمجلس العالمي للكنائس والفاتيكان، نختلف كل الاختلاف نصا وحرفا وفكرا معهم، ونتصدى لهم بالفكر اللاهوتي الذي يقول أن تتمة النبّوة في العهد القديم هي بالسيد يسوع المسيح وحده وصلبه وقيامته، وبالتفسير الصحيح للكتاب المقدس، وهم يروجون الظلم وعدم العدالة والكراهية للأخر والتطرف. لذلك هم خطيرون فقط للمسيحيين والمسلمين وحسب، بل أيضا على اليهود واليهودية. فنحن نعتبر هذه الحركات المتصهينة هي خارجة عن الكنيسة وعن الدين المسيحي، وخارج إيمان الكنيسة المسيحية والكنيسة الأولى، لأن هذه الحركات الخطيرة ليست مبنية على الكتاب المقدس. وأود منكم توعية شعبنا وعدم خلط الأوراق بين المسيحيين العرب والمسيحيين في الخارج الذين يدافعون عن القضية الفلسطينية وبين هؤلاء الذين يشوهون المسيحية والدين المسيحي، ونحن المسيحيون الشرقيون نقف جملة وتفصيلا مع القضية الفلسطينية والشعب، ومركزية وجوهرية الصراع في الشرق

الأوسط وان القدس هي جوهر هذا الصراع، ونحن المسيحيون الشرقيون جزء لا يتجزأ من النسيج العربي وهمّ الوطن همنا، وأنا لاجئ فلسطيني مثلكم وأصلي من بير السبع ولي حقوقي كلاجئ عربي. نحن نتصدى لهؤلاء وهم يكرهونا اكثر من المسلمين لأننا نواجههم ونواجه فكرهم، ونحن جزء من دولتنا العتيدة والقدس الشرقية هي عاصمة هذه الدولة.

تعليق د. عمرو موسى : الان النقطة التالية تتعلق ب: التيارات اليمنية والشعبوية في اوروبا وموقفها من الصراع - دكتور نبيل شعث

١٤. د.نبيل شعث :

اولا أريد ان اشكر الاخ العزيز منيب ويبدو ان احنا شراكة لان جدي تاج الدين شعث كان رئيس بلدية بير السبع فيبدو اننا قرايب

اسمحوا لي ان اخرج عن النص الذي طلب مني ان اتحدث فيه لأنه يمكن اكون الاخير والليلة كانت ثرية جدا بمساهمات متميزة ولقطت موضوعات عديدة من الموضوعات التي تهمنا وأخيرا ما استمعنا اليه من الاخ منيب لذلك أحببت فقط ان اضيف شيئا لم يذكر اطلاقا طيلة الليلة وهو موازين القوى في العالم نحن شعب كما وصفنا إلياس خوري في نكبة مستمرة وإحنا في (غيتوات) ولكن مقاومة الشعب الفلسطيني لم تتوقف والمقاومة بكل اشكالها مستمرة انا موافق على ذلك، الشعب الفلسطيني ليس فقط استمر على المقاومة والصمود بل زاد حجمه وهذا ضد الفكر الاستيطاني الاستعماري في العالم ، الفكر الاستيطاني يريد القضاء على الشعب الاصلي حيث نجح الفكر الاستعماري في القضاء على الشعب الاصلي كما فعل في أميركا واستراليا نجحوا في اقامة دولتهم الاستيطانية وقضوا على هذه الشعوب اسموهم الهنود الحمر في اميركا وهم لا هنود ولا هم حمر ولا لهم علاقة بالهند اصلا ولكن هذا ما كان مناسباً لأفلام الكاوبوي وبالتالي هذا ما تبقى من الشعب الاصلي في الولايات المتحدة الاميركية حيث صمد الشعب كما صمد في الجزائر وصمد في الكونغو وفي ماليزيا والهند وفيتنام رحل المستوطنون والمستعمرون وبقيت الارض لأصحابها فالصمود مسألة استراتيجية وليست مسألة تاريخية تكتيكية نحن كنا نصف مليون من بقي في فلسطين بعدما قتل من قتل وطرد من طرد النصف مليون الآن هم ستة ونصف مليون فلسطيني في الداخل والمليون الذين طردوا هم الان ستة ملايين ونصف مليون فلسطيني في الخارج نحن الان بقدر عدد اليهود في الداخل والخارج وهذا الصمود الفلسطيني موضوع اساسي في اي تفكير عن الحل المستقبلي شعب صمد وشعب قاوم واستطاع ان يمنع ما فعلوه في أميركا وما فعلوه في استراليا وهذا جزء مهم من

املنا وطموحنا لكن العالم يتغير ايضا فالأسباب التي ادت الى وعد بلفور والأسباب التي ادت الى قيام اسرائيل سنة ٤٨ والأسباب التي ادت للتغيرات في الوطن العربي ليست كلها ناتجة عن القضايا الداخلية في هذه البلاد وإنما ناتجة عن تغير جذري في موازين القوى في العالم ، موازين القوى بعد الحرب العالمية الثانية هي التي ادت عمليا إلى نهاية الاستعمار الاوروبي في افريقيا وآسيا ولولا الحرب العالمية الثانية وما فعلته بالدول المستعمرة في افريقيا وآسيا الذين كانوا يتقاسمون المستعمرات ماكانت دول افريقا وآسيا تحررت بالسرعة التي تحررت فيها بعد الحرب العالمية الثانية ، سنة ١٩٤٥ تحول العالم إلى عالم القطبين أي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ومابينهم خرجت حركة عدم الانحياز التي انبثقت من حركات التحرر الافريقية والأسيوية قبل ذلك لكن سنة ٩١ انتهى الاتحاد السوفياتي مما أدى إلى ان الولايات المتحدة حكمت هذا العالم وحدها منذ عام ١٩٩١ وحتى هذه الايام هذه السيطرة وهذه الهيمنة التي قامت بها الولايات المتحدة هي نفسها السبب في كل ما تحدثنا عنه هي التي خلقت القاعدة في افغانستان وهي التي خلقت داعش في العراق هي التي اطلقت هذه القوى المدمرة التي يشكو منها الاوروبيون، أميركا هي التي خلقتها ومولتها وللأسف جزئيا بمال عربي ولكن الذي خلقها وسلحها وأعطاها القوة الولايات المتحدة الاميركية في زمن اصبحت هي المسيطرة فإذن الانسان يجب ان يسأل نفسه سؤالاً مهماً شعب صامد بدون شك شعب مقاوم لا يكف عن ابتكار ادوات المقاومة كفاح مسلح ، نضال شعبي مقاطعة دولية، حراك دولي. كل الادوات التي قاوم بها الشعب الفلسطيني دليل كاف على انه شعب باقٍ ثابت وصامد على ارضه لن نترك هذه الارض وهناك منكم من قال ان الاحصائيات تقول من يعود إلى فلسطين أكثر من الذي يخرج هذا كان صحيحاً حتى في اصعب الايام ، ايام الانتفاضة الاولى والثانية ، في الانتفاضة الثانية من دخل إلى فلسطين من الخارج أكثر بكثير ممن خرجوا رغم عودة الاسرائيليين إلى احتلال الضفة الغربية بكاملها .. فماذا يحدث الان اميركا يتآكل دورها أنا مع كل ما قاله إلياس خوري إلا قصة أن التغيير في العالم وهمي كيف وهمي هل الولايات المتحدة الان تحكم هذا العالم كما حكمته عام ٩١ ؟ هل كان يمكن أن يتم الدور الروسي في سوريا لولا تقلص الامكانية الاميركية عن الهيمنة في منطقتنا ، هل كان يمكن ان يذهبوا إلى وارسو ليجندوا العرب والإسرائيليين في مواجهة ايران لولا تقلص دورهم في هذه المنطقة طيب هذا الرجل الذي يحكم الولايات المتحدة أليس نسخة طبق الاصل من (يلتسن) الذي دمر روسيا في ٨ سنوات بعد أن حل غورباتشوف الاتحاد السوفياتي ما تفعله حكومته لم تستطع ان تكمل، سنتين فقط هي سيطرته على البرلمان، أغلق حكومته شهرين لأنهم لم يستطيعوا تمويل الجدار الذي كان يريد بناءه على حدود المكسيك ، تصرفه في العالم مع الصين ومع روسيا ومع الاوروبيين هذا كله يدل على التقهقر التدريجي للولايات المتحدة كدولة مسيطرة

وحدها على هذا العالم ، نحن صحيح عندنا مشكلة مع اليمين في اوروبا هذا اليمين انما نتيجة مباشرة لما فعلته اميركا في العراق وأفغانستان الذي أدى إلى تصدير ملايين اللاجئين إلى أوروبا و أوروبا استوعبتهم وباستيعابهم نتجت مشاكل العنصرية الاوروبية بعد ان قالوا لهم ان المسلمين العرب والسود الافارقه سيأتوا إليكم وسيغيروا الشكل العنصري لأوروبا البيضاء المسيحية هذا جزء مهم من الذي حدث أدى تدريجيا إلى تطور ضد حلفائنا الرئيسيين في أوروبا وهم الاشتراكيين هم من وقفوا معنا في كل مكان ونحن خسرناهم في فرنسا وألمانيا والنمسا وخسرناهم في النرويج وخسرناهم في السويد وهذه الدول كانت واقفة معنا .

هذا التطور الذي حدث في العالم أدى تدريجيا إلى نمو الخوف في اوروبا من الاسلاموفوبيا التي اخترعها الاميركان اساسا وأنا حقيقة لا يمكن إلا ان اكون متفائلاً لان هذا التقلص التدريجي في الهيمنة الاميركية معناه دور أكبر لأوروبا وقد فشلت اميركا في ان تدفع بالأوروبيين إلى (البريكست) إلى الخروج من الاتحاد الاوروبي لا تستطيع أن تدفع بريطانيا إلى الاستمرار في الخروج من الاتحاد الاوروبي كانوا يعتقدون ان الاتحاد الاوروبي سيفرط في الثلاث اربع سنوات ، لا الاتحاد الاوروبي سيبقى قوة رئيسية في العالم عندما يضمحل الدور الامريكي. روسيا تنمو بسرعة لتصبح دولة أقوى وأقدر على مواجهة الولايات المتحدة ، الصين عملاق اقتصادي حقيقي هو الذي يغل دماغ ترمب طول الوقت وهناك متغيرات هذه المتغيرات ستبني عالماً متعدد الاقطاب مثل دولة ديمقراطية مقابل دولة ديكتاتورية فيها توازن وفيها قوى توقف من يحكم العالم بالأخطاء كأميركا وتعطي فرصة للعالم ان ينفذ القانون الدولي ويظلوا يسألونا حصلتم على ٣٠٠٠ قرار كفلسطينيين ماذا نفذ منها ؟ في وجود عالم تحكمه دولة واحدة لا يوجد قانون دولي ، لكن عندما يكون العالم متعدد الاقطاب يكون هناك امكانية لاستخدام الامم المتحدة وقراراتها في تنفيذ القانون الدولي من خلال الصلاحيات المعطاة لها والتي تمنعها اميركا الان بالفيتو وبالتالي علينا ان نخطط بهذين العامين أن العالم يتغير وكل القادة الجدد بالعالم احسن لنا واقرب لنا واعدل لنا من الاميركان هذا العالم الجديد الذي لن يستغرق سنتين إلى ثلاثة وبالتالي العامل الثاني هو هل سنستطيع الصمود في هاتين السنتين ام لا وأنا مدرك تماما موضوع الوحدة الوطنية وأهميته ولكي نصمد بحاجة لوحدة وطنية ولكي نصمد نريد ديمقراطية انتخابية وتوزيعاً جديداً للسلطات ولكي نصمد نريد وحدة وطنية على الارض نريد تصعيداً واستمراراً وإبداعاً في المقاومة الشعبية واستمراراً في علاقاتنا الدولية المتعددة وحراكنا وتنمية ال BDS وغيرها من الادوات التي توجع اسرائيل ولكي نصمد علينا بناء اقتصادنا وكل هذه الامور ضرورية لكي نصمد وحتى ان تغير العالم وسيتغير وسيصبح عالماً متعدد الاقطاب وسيصبح لنا فرصة حقيقية لتحقيق اهدافنا وتحقيق املنا وتحقيق دولتنا وعودة لاجئينا والمسألة

ليست سهلة هي صعبة ولكن علينا ان نقوم بكلا الامرين : ذاتنا ماذا نحن يجب ان نفعل نحن ؟ وترقب العالم والاستفادة من تطوراته لحسابنا . وشكرا جزيلا

عمرو موسى:

في نفس الاتجاه النقطة الاتية تتعلق بدور اوروبا في المرحلة الحالية يتحدث فيها السفير التونسي أحمد ونيس وهو أحد الخبراء العرب في هذا المجال

دور أوروبا في المرحلة الحالية:

١٥. احمد ونيس :

شكرا سيادة الرئيس ، ان قرار الرئيس ترمب حول القدس في ديسمبر ٢٠١٧ كان مناسبة للتأكيد على ثبات الموقف الاوروبي وهو موقف يرتكز على قانون الشرعية الدولية وقد تأكد ذلك في مداولات مجلس الامن والجمعية العامة في ديسمبر ٢٠١٧ وفي تصريحات فيديريكا موغيريني ٢٠١٨ في لقائها مع الرئيس محمود عباس فالدول الاوروبية ليس فقط تصدت لقرار ترامب بل انها في اعتقادنا اثرت على كندا وعلى استراليا حتى لا ينفذ الوعد بنقل السفارات إلى القدس ولا نستبعد انها اثرت كذلك على البرازيل حيث اجل الرئيس الجديد تنفيذ الوعد بنقل السفارة وفيما سبق كان الاتحاد الاوروبي قد استثنى الاراضي الفلسطينية المحتلة من الاتفاقيات المبرمة مع اسرائيل بحيث تبقى المنتجات الصادرة من المستعمرات والمصانع القائمة في الاراضي المحتلة خارج نظام الامتيازات التجارية المحددة بين الطرفين فالتنصيص الصريح على الاراضي الفلسطينية أمر مهم ومعروف أن الدول الاوروبية تدين مواصلة الاحتلال كما تدين الجدار الفاصل وهي ليست فقط قرارات سياسية وإنما قرارات تنم عن الثقافة السياسية الاوروبية ويوجد في اهم الدول الاوروبية العديد من الجمعيات الاهلية التي تندد بالممارسات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة وهي ناشطة في الساحة الاعلامية والبرلمان الاوروبي ولها تأثيرها على الاحزاب السياسية إلا انها لا تربط بين المقاومة الفلسطينية ومقاومة الشعوب الاوروبية ضد الاحتلال اثناء الحرب العالمية الثانية حيث انها اذ تفاخر ببطولات المقاومة الاوروبية ضد الاحتلال فهي تعتبر ولا تزال المقاومة الفلسطينية إرهابا وهذا ما يتعين ان نعمل على تصحيحه بجهد مركز ومتبصر ومما يدعو كذلك إلى التوضيح الربط بين جمود المفاوضات وامتناع اسرائيل عن الالتزام بقرارات مجلس الامن ومقتضيات القانون الدولي فالدول الاوروبية لا تنكر هذا الواقع لكنها لا تسعى إلى تجاوزه بعمل سياسي أو قانوني فالتجاوز العكسي الذي صدر عن الرئيس ترامب وإقراره

بالقانون الاسرائيلي الاخير القاضي بجعل اسرائيل الدولة الأم للشعب اليهودي يبرران في اعتقادنا عملا سياسيا من الجانب الاوروبي أما ظاهرة التطرف اليميني في أوروبا فهي محل تخوفات من الانظمة الاوروبية الرئيسية التي ترى في ذلك خطراً يهدد الاتحاد الاوروبي نفسه وهي تنظر بقلق وعدم ارتياح لتفاقم اليمين الاسرائيلي وترى فيه تهديدا للأمن والسلم في المنطقة ربما يؤدي إلى حرب يكون فتيلها المخطط المزدوج بين ترامب ونيتنياهو ضد ايران لذلك فأوروبا تفضل تعزيز التيارات المعتدلة في اسرائيل التي تتبنى احترام القانون الدولي وبناء عملية السلام على اساس الشرعية الدولية ومراعاة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني ومبدأ التعايش السلمي في المنطقة فهي حليف موضوعي لنا في هذا الامر.

إن تولي ترمب رئاسة الولايات المتحدة كان بمثابة زوبعة على الساحة العالمية وخاصة المشرقية وفي ظل الزوبعة فالأسلم هو الحفاظ على المكاسب وأوروبا ساعدت على ذلك في خصوص القضية الفلسطينية وهو الحد الأدنى . فدعم ميزانية وكالة الغوث الدولية (الأونروا)أونرواتانن والتذكير بأن القدس الشرقية تكون عاصمة الدولة الفلسطينية والتصويت الصريح ضمن الجمعية العامة للأمم المتحدة لنقد قرار أميركا حول القدس كان لها وقع إيجابي فهل لنا أن نأمل في تطور الموقف الأوروبي إلى ما يتجاوز تراجعات السياسية الأميركية الحالية بحق القضية الفلسطينية وإذا حققنا بعض الخطوات من جانبنا يمكن التحرك في هذا السبيل ومن أهم الخطوات المطلوبة توحيد الصف الفلسطيني وتسوية الخلافات بين الضفة وغزة وعلى هذا الاساس يمكن التحرك فلسطينيا وعربيا حتى نتوصل إلى قرارات أوروبية بناءة نذكر منها الاعتراف بالدولة الفلسطينية وسابقتها ما تم في اليونسكو عقد معاهدة شراكة بين الاتحاد الأوروبي وفلسطين وضم فلسطين إلى المنظومة الأورومتوسطية بصفة أكمل ، السعي إلى توسيع الرباعي كوارتيت إلى دولة عربية ومزيد زيارات الوفود الأوروبية إلى مركز أعمال الاونوروا لإغاثة الأطفال والشباب واللاجئين عموما وعقد شراكات بين مدن أوروبية ومدن فلسطينية وإنشاء برامج تطهير وإعادة بناء في غزة والضفة بذلك كسر الحصار على غزة وشكرا .

عمرو موسى

شكرا للسفير احمد ونيس ، النقطة القادمة هي الاختراقات الاسرائيلية في افريقيا ، السفير محمد جنيفان.

١٦. محمد جنيفان :

شكرا سيدي الرئيس

بداية في موضوع الاختراقات الاسرائيلية في افريقيا ، نقف عند الاختراقات ، وهي محاولات اسرائيل ونجاحها بعض النجاح في ان تستقطب اليها عددا من الدول الافريقية ليست مهمة كثيرا ولكنها البداية .هذا الاستقطاب ينبغي ان نحلله تحليلا صحيحا لأنه ناشئ عن اوضاع معينة ، ناشئ عن تغيرات عندنا في القضية الفلسطينية ، وناشئ عن تغيرات عندنا في الوضع العربي ، وناشئ عن تغيرات في المحيط الدولي الذي تفضل فيه الاخ نبيل شعث وأطال فيه ولذلك سوف لا اطيل فيه لأنه وقع التعرض له بوصف كامل لهذه المتغيرات سواء كان في الموضع الفلسطيني يتم الحديث عنه ، في العالم العربي اشير اليه ، ولكن ورقتي انا تشير الى ان جدار الصد العربي الذي كان يحمي افريقيا من الاختراقات الاسرائيلية قد ضعف لأنه لا داعي لان نستعرض الوضع في العالم العربي وعلاقته بان يكون جدارا فعلا يحمي القضية الفلسطينية من الاختراقات لان الاختراقات بدأت فيه ومستمرة فيه وتحدثتم عن ذلك من قبل.

لكن الموضوع الهام هو لماذا يخترق الكيان الصهيوني بعض الدول الافريقية ؟

جسور الاستقطاب الاسرائيلي تتناسب وحاجات بعض دول المنطقة ، من هذه الجسور هي المساعدة في ميادين الامن ، مكافحة الارهاب ، الاستفادة من الاقتصاد او الدفع بالاقتصاديين الاسرائيليين بالتقنية الجديدة ، هذه هي الجسور التي تملكها اسرائيل الى عدد من الدول الافريقية الحديثة ، يضاف اليها البرود العاطفي لدى الشعوب الافريقية اتجاه القضايا التحريرية بصورة عامة وقضية فلسطين ، لأنه في الميدان الافريقي المشهد تغير. الافريقيون كانوا شركاء معنا كعرب وفلسطينيين في المقاومة للاستعمار والمقاومة من اجل التحرر ومن اجل التحرير وكان هناك قيادات افريقية ذات هامات عالية ومناضلة، ربما لان قصتها (اي الدولة الافريقية) تتفاعل مع القضية الفلسطينية من هذا المستوى.

القيادات الافريقية ذهبت ما ذهب اليه القيادات العربية ذات الهامات العالية. والأفارقة العاديون ربما لا يسمعون بالقضية الفلسطينية ، الشباب الجديد لا يسمع بالقضية الفلسطينية وأصبح همه الاقتصاد والتقنية. هكذا دخلت اسرائيل الى افريقيا وهذا وباعتقادي انه في عملية التخطيط لمقاومة هذا الاختراق ، يجب ان نبني عليه خطتنا، ان نتجه الى الشباب الافريقي، ان نتجه الى الجامعات الافريقية، ان يكون لدينا طريقة عمل شبيهة بما وقع اليوم في هذه الندوة حيث نستقبل ونكرم حفيد قائد عظيم . القائد الذي قال في بلاده ان جنوب افريقا لن تشعر بالتحرر ما دامت

فلسطين محتلة.

اذن ،بناءً على هذه المتغيرات وقع الاختراق ، وبناءً على المتغيرات الجديدة التي ذكرها الاخ نبيل شعث ، يبقى الامل قوياً ،وعلينا ان نعد خططنا بصورة مبنية على تحليل الواقع تحليلا علميا وصحيحا . وان ننفذ الى مراكز القوى مع للمستقبل لان الحل ليس قريبا ولذلك علينا ان ننظر الى البعيد ونبني الصحيح الى البعيد ونعتقد اننا سوف نرى افريقيا ، لان افريقيا منا والينا . وشكرا جزيلا.

عمرو موسى

النقطة الاخيرة تتعلق ب : الأوضاع الاقتصادية الفلسطينية ، يتحدث عنها الاستاذ محمد مصطفى .

١٧.محمد مصطفى

اعتقد ان الكل يتفق ان الوضع الاقتصادي في فلسطين الان يمر في منحى صعب جدا وهناك الكثير مما يدعو للقلق على هذا الوضع ، لكن اعتقد ان القلق لم يعد كافيا في هذه الظروف وان هناك حاجة حقيقية من اجل اجراء عملية تحول اقتصادي جذري ينقلنا من الواقع الذي نعيشه الى موقع اخر نستطيع من خلاله ان نوفر الحياة واستمراريتها لمشروعنا الوطني السياسي اعتقد ان ذلك ممكن تحقيقه من خلال برنامج استراتيجي يتكون من عنصرين اساسيين .اولهما ، اجراء عملية انفكاك اقتصادي حقيقية عن الاقتصاد الاسرائيلي ، وثانيها وضع استراتيجية وطنية لبناء اقتصاد فلسطيني يعتمد على ذاته. هذه هي القضايا الاساسية التي سأتحدث عنها باختصار .

اولا اسباب القلق على هذا الوضع : هناك نمو اقتصادي فلسطيني منخفض . في عام ٢٠١٨ ، اي منذ شهور ، كانت نسبة النمو الاقتصادي حوالي ٠,٧٪ يعني اقل من واحد بالمائة . المعروف ان معدل النمو السكاني هو ٣٪ فعمليا يوجد تراجع في النمو الاقتصادي ونتج عن هذا النمو كما هو معروف بطالة بنسب غير مسبوقة بلغت معدلها في ٢٠١٨ حوالي ٣٢٪ في فلسطين الضفة الغربية وغزة ، وحوالي ٥٠٪ في قطاع غزة وخاصة اذا عرفنا ان نسبة الشباب من العاطلين على العمل هي نسبة عالية وثانيا ان هذه النسب تخفي حقيقة مرة اخرى وهو ان هناك حوالي ١٥٠ الف فلسطيني يعملون في اسرائيل . يعنى الـ ١٥٠ الف مش محسوبين في النسب العالية التي ذكرناها .

نمو اقتصادي منخفض، بطالة مرتفعة ، اعتماد عالي على المساعدات الخارجية وأيضا ارتباط كبير

بالاقتصاد الاسرائيلي .

لكن حديثا ، اي منذ اشهر ، زادت اسباب القلق نتيجة تطورات جديدة فاقمت الوضع الاقتصادي ، ابتداء من انخفاض المساعدات الاميركية نتيجة مواقف سياسية معروفة للجميع . استمرار وتشديد الاغلاق على قطاع غزة . القرصنة الاسرائيلية للأموال الفلسطينية. ومضايقات اميركية مستمرة في الكونجرس والقضاء الاميركي لملاحقة البنوك الفلسطينية وأيضا الحكومة الفلسطينية .

هناك بالفعل ما يدعو للقلق من هذا الوضع الاقتصادي . كما قلت ، لابد من اجل مواجهة هذا الوضع ، اعتماد استراتيجية وطنية من شقين: الاول هو ما تعارفنا عليه حديثا وسميناه برنامج الانفكاك الاقتصادي عن الاقتصاد الاسرائيلي والمقصود بذلك ، الازالة التدريجية لنقاط الربط الاساسية والمتداخلة بين الاقتصاد الفلسطيني والاقتصاد الاسرائيلي في مجالات اساسية مثل التجارة والعمالة والطاقة والإدارة المالية والنقدية ، من اجل اخراج الاقتصاد الفلسطيني من وضع الاعتماد المنتفع على اسرائيل الى اقتصاد وطني يتمتع بدرجة اعلى من الاعتماد على الذات .

طبعا حتى يتم تحقيق برنامج الانفكاك يجب ان نبدأ باستخدام كل الادوات التي لدينا ، سواء ادوات قانونية او اقتصادية او سياسية .

اما بالنسبة للشق الاخر الاستراتيجية الوطنية المطلوبة فهو برنامج الاعتماد على الذات وهنا اود التركيز على قضيتين اساسيتين ، هناك مجموعة من السلع الاستراتيجية نقوم باستيرادها من اسرائيل بقيمة حوالي ٥ مليار دولار بالسنة نصف هذا المبلغ عبارة عن مصادر مختلفة للطاقة من كهرباء والمشتقات البترولية ، لكن ايضا هناك سلع استراتيجية اخرى مثل الخضار والفواكه ومثل الاسمنت والأعلاف وأيضا خدمات صحية يتم شراؤها من اسرائيل .

البرنامج الوطني لا بد ان يستبدل كل هذه المنتجات بمنتجات وطنية فلسطينية ، وثانيا هناك ارتباط واعتماد كبير على البنية التحتية الاسرائيلية في مجالات مختلفة بما في ذلك المخارج العالمية من مطارات وموانئ والمعابر الدولية وأيضا مصادر الطاقة كما ذكرت . وهنا لابد من العمل وان كان بتدرج من اجل استبدال هذه البنية التحتية ببنية تحتية فلسطينية .

طبعا ، نحن نعرف حجم التحدي السياسي الذي يواجه عملية تنفيذ برنامج من هذا النوع لكن نقول ان البيئة السياسية يجب توفيرها قدر الامكان . لكن في النهاية ايضا يجب ان نتذكر بأنه لا يمكن ان يكون هناك دولة فلسطينية مستقلة بدون اقتصاد وطني مستقل وبالتالي فالاقتصاد الجيد ضروري للصعود الوطني ومن اجل حماية المشروع الوطني الفلسطيني في المرحلة القادمة. وشكرا.

عمرو موسى

شكرا للأخ العزيز محمد مصطفى . انتهت الان الموضوعات التي عقد هذا الاجتماع للاستماع لها ومناقشتها .

هناك مداخلتان اضافيتان ، اعتقد انهما مهمتان ، اولاهما للسيد الاخ احمد الحريري الامين العام لتيار المستقبل في لبنان والكلمة الاخرى هي لآخونا العزيز طلب الصانع ليتحدث عن العدوى التي وصلت للعرب في اسرائيل وكيف نعالجها . الاخ احمد الحريري تفضل.

١٨. احمد الحريري – الأمين العام لتيار المستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم جميعا بداية حابب اتشكر مجلس الأمناء لمؤسسة الرئيس الشهيد ياسر عرفات وكشخص رئيس المجلس السيد عمرو موسى ورئيس مجلس الادارة السيد ناصر القدوة على قبولنا مع هذه الباقة الوطنية وهذه الباقة العربية الاصيلة لتخليد ذكرى الرئيس الشهيد الراحل ياسر عرفات أنا سأبدأ من مكان يتغير فيه كل المشهد العالمي في لحظة أصاب العالم جنون الشعبوية من وصول الرئيس ترامب الغير متوقع إلى سدة الرئاسة في أميركا وتلاه وليس بالترتيب سأقولهم وإنما كأحداث رئيس المكسيك ورئيس البرازيل رئيس الفلبين ورئيس الهند ، دخول حزب اليمين المتطرف إلى البرلمان الألماني الذي جاء بالمرتبة الثالثة وصعود كل هذه التيارات في أوروبا وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي وهذا ما سميناه ضرب من الجنون لأن بريطانيا تخرج من تلقاء نفسها اليوم في حال تابعت بهذا الموضوع حبيت اعطي هالمقدمة الصغيرة لكي نقول ان القضية الفلسطينية التي مرت بظروف عالمية تغيرت من مرحلة إلى مرحلة واليوم نحن نعيش ظرفاً عالمياً نارياً وخاصة بعد ما خلصت الحرب الباردة وبدأت الحرب الساخنة وإذا أردنا أن نعد بعد انتهاء الحرب الباردة وحتى اليوم كم حرب حصلت وكم ضحية سقط سيكون كثير كل هذا له انعكاسات على العالم العربي ولا أحد عليه ان يستهين بما حصل في العراق في ٢٠٠٣ والذي سبق هذا الحدث هو أحداث سبتمبر٢٠٠١ بما حدث للبرجين في أميركا وأعلنت أميركا الحرب وقسمت العالم إلى محورين محور الخير ومحور الشر وبدأت الحرب على افغانستان أولا ثم العراق والعراق هو سد تاريخي للعرب وهو حماية تاريخية لكل القضايا العربية عبر التاريخ وأنا برأيي إذا لم يعد الاستقرار للعراق لن يعود الاستقرار لكل هذه المنطقة سوريا لبنان وفلسطين وكل المنطقة العربية وأنا اريد ان اقول نقطتين فقط وهم يمثلوا تيار المستقبل أولا ورأي لبنان بشكل عام أكيد المشروع الايراني هو مشروع لا يشبه المنطقة العربية طالما أنه مشروع واضح انه

نشر الفوضى في المنطقة العربية ولكن مجابهة هذا المشروع أبدا لن تكون بوضع اليد مع العدو الاسرائيلي لا من قريب ولا من بعيد لان تجارب وضع اليد مع العدو الاسرائيلي على القليلة على صعيد لبنان بالحرب الاهلية حتى الان نحن نحصد نتائجها السلبية والسيئة التي ضربت الوحدة العربية ومفهوم العداء لاسرائيل كدولة عنصرية موجودة ومحتلة لأرضنا وبعد كل ما تقدم من ١٥ نقطة اساسية في هذا النقاش هناك سؤال صغير لماذا لم يكن هناك نقطة رقم ١٦ لأنني اعتقد أنه برأيي ولا ألزم الجميع بكل هذه المحاور ال ١٥ .. اذا كان غصن الزيتون أصابه الياس فهل نسينا البندقية ؟ أين محور المقاومة ؟ المقاومة الحقيقية المدنية الفلسطينية المقاومة التي بدأها أبو عمار من لبنان من جنوب لبنان لم يذكرها أحد ولم يضع لها أحد نقطة لماذا بدلا ان نسأل لماذا ايران تريد أخذ محلنا أو حزب الله أو غيره لأننا تخلينا عن المقاومة وأنا اسميها المقاومة المدنية الحقيقية إن كانت عسكرية او لا بمقابل المقاومة المرتبطة بمشاريع لا تشبه القضية الفلسطينية ولا تشبه التاريخ الذي ناضلنا من أجله هذا الموضوع فيه ملامة علينا ولا نرميها على اسرائيل التي هي ستبقى عدونا ولا نرميها على ايران وغيرها، هل لدينا خيار اذا نحن اليوم بكل الكلام الذي قلناه هو على حائط مسدود وإذا كنا ننتظر العالم ليتحرك لكان تحرك منذ عام ١٩٦٧ وأنا اتحدث هنا اليوم بصفتي صيداوي وليس لبناني وأنا اقول صيداوي لأنه موجود لدي مخيم عين الحلوة يعني انا وإخوتي الفلسطينيين بالشتات بأكبر مخيم في لبنان أنا وهم عايشين ما يحدث ومنذ اغتيال الشهيد رفيق الحريري حاولوا ضرب تيار المستقبل في لبنان مع الأخوة الفلسطينيين عبر شريط أبو عدس وكلكم تعرفونه الذي خرج وقال انه الفلسطيني الذي اغتال رفيق الحريري وتمكنا أن نتخطى هذه المرحلة بعمل جبار من تيار المستقبل مع الفصائل الفلسطينية والسفارة الفلسطينية بلبنان لنمنع هذه الفتنة ان تقع وأكيد بعرف المرحلة التي نمر فيها صعبة جدا ولكن اعتقد ان القضية الفلسطينية بكل النضالات التي قدمتها تريد ان تجعل العالم العربي يعود و يقف على اقدامه ولكن بأنظمة تنموية وليس انظمة امنية لان الانظمة الأمنية الكرتونية التي خلقت بالعالم العربي هي اكثر اسباب اذية القضية الفلسطينية والشعب العربي بشكل عام وشكرا لكم وعذرا على الاطالة .

١٩. طلب الصانع

الأخوات والأخوة مساء الخير للجميع وأولا في هذه المبادرة يوجد ابداع حقيقة وإثراء يعطيكم العافية في اسرائيل تجري انتخابات في ٩ ابريل القادم وكل المؤشرات تؤكد أننا أمام تحول وبداية نهاية عهد نيتنياهو إما من خلال صناديق الاقتراع أو من خلال لوائح الاتهام على خلفية الفساد، منذ عام ١٩٧٧ عندما وصل اليمين للحكم اليمين فقد الحكم مرتين في عام ٩٢ عندما وصل رابين

إلى سدة الحكم وفي عام ٩٩ عندما وصل باراك إلى سدة الحكم وفي المرتين كان الصوت العربي هو الصوت الحاسم في عام ٩٢ كان رئيس الليكود شامير ورئيس حزب العمل رابين الساعة ال ١١ ليلا ينتظرون نتائج الاقتراع في قرية عربية نقبوية تسمى عرعرة كان هناك صندوق لو تم الغاء هذا الصندوق لكان شامير هو رئيس الحكومة ولكن عندما تمت الموافقة على صندوق انتخابي فيه ٥٠٠ صوت كانت النتيجة انه تم انتخاب طلب الصانع وكنت انا وعبد الوهاب دراوشة الواحد وستين وأيضا الاخوة في الجبهة . الواحد وستين في حكومة رابين وشكلنا لأول مرة العرب والأحزاب العربية كانت شريكا في الحكومة الاسرائيلية وفي تلك المرة وبـ ٦١ كان التحول وتم الغاء القانون الذي كان يمنع اللقاءات مع منظمة التحرير الفلسطينية وفي عقب ذلك تم اعتقال ابني الذي التقى القيادة الفلسطينية وفي اعقاب هذه الحكومة تم اقرار اتفاق اوسلو وعلى خلفية اوسلو تم اغتيال رئيس الحكومة رابين والذي اغتال رابين وحرض ضد رابين هو اليوم موجود في سدة الحكم واليمين في اسرائيل يعتمد في سياسته على قضيتين اساسيتين ، القضية الأولى دق الاسافين بين العرب واليهود لأنه اذا كان هنالك تكامل في العمل نوع من التحالف للهدف يسقط اليمين وبالتالي كان يحرض ضد رابين ويحرض دائما وعمليا كانوا أي حكومة تستند إلى الصوت العربي أو إلى الاغلبية العربية هي حكومة غير شرعية يجب ان تستند إلى أغلبية يهودية وليست أغلبية تعتمد على الصوت العربي والأمر التالي هو التحريض والتخويف وبالتالي اذن الخلفية التاريخية والنفسية للشعب اليهودي الذي يرى ظل الجبال كجبال وبالتالي تخيفهم ايران ويخيفهم حزب الله وتخيفهم حماس ويخيفهم المواطنون العرب الذين يشاركون في الانتخابات، عشية الانتخابات السابقة ٤٨ ساعة قبل الانتخابات توجه إلى اليمين الاسرائيلي وقال هبوا وافزعوا العرب يهرولون بالحافلات إلى صناديق الاقتراع بمنطق القبيلة وكأن ممارسة العرب لحق الانتخاب هي خطر على دولة اسرائيل الآن نيتنياهو أقام تحالفاً اتعلمون مع من - كاهانا - هناك عضو كنيست من الليكود يسمى ميكي ايتان قام بإجراء مقارنة بين القوانين التي اقترحها كاهانا على الكنسيت وبين قوانين نورمبرغ وجد ان كاهانا نسخ قوانين نورمبرغ حرفيا بمعنى انه يتحالف مع هؤلاء والآن هو من حلفاء نيتنياهو بهذه الحكومة وعلى هذا الأساس ندرك أنه في خلفية التحالف الذي جرى برئاسة رئيس الأركان السابق بيلي غانتس وأيضا رئيس الأركان السابق غابي اشكنازي ورئيس حزب يوجد مستقبل يائيل لابيد وأيضا بوغي يعلون الأربعة تحالفوا وتكتلوا واستطلاعات الرأي تعطيهم أغلبية أكثر من الليكود الآن ٣٥ لهذا التكتل و ٣٠ ل ٣٢ لليكود والكل يدرك أن سريعا قريبا سيقوم المستشار القضائي ميتر بيتس بتقديم لائحة اتهام ضد نيتنياهو وفي هذه الحالة ستتراجع شعبية نيتنياهو لكن حتى هذا التكتل مابين بيلي غانتس وحزب العمل وبيرس لن يشكلوا ٦١ هم بحاجة إلى الصوت العربي

وهنالك الآن عدد سكان مواطنيهم ٨ مليون و٢٠٠ ألف عربا ويهودا المواطنون العرب مليون و٧٠٠ ألف يشمل ٢٠٠ ألف في القدس يعني المواطنين العرب مليون ونصف المليون مواطن عربي نحن كقوة انتخابية ٩٤٠ ألف ناخب عربي ونشكل قوة هائلة وفي المرة السابقة على خلفية رفع نسبة الحسم من اجل محاولة اخراج العرب خارج الكنيست في عام ٩٢ كانت نسبة الحسم وهي النسبة التي تشكل الحد الأدنى من مجموع الأصوات لأن كل الدولة دائرة انتخابية واحدة من اجل الدخول غلى الكنيست البرلمان كانت في ٩٢ ١٪ ثم رفعوها إلى ١:٥٪ ثم إلى ٢٪ ثم رفعوها إل ٣ وربع ٪ لإخراج الاحزاب العربية خارج المعادلة وبفضل الجهد الذي كان على خلفية رفع نسبة الحسم إلى ٣ وربع بالمائة تم تشكيل القائمة المشتركة التي هي انجاز وطني اضافة إلى مؤسستين اضافيتين تشكل مؤسسات وطنية للفلسطينيين في الداخل المؤسسة الأولى وهي لجنة المتابعة العليا التي تشمل بين مركباتها كل الاحزاب والحركات الفاعلة والتي يترأسها الأخ محمد بركة واللجنة القطرية التي تنسق بين المجالس البلدية والقروية المنتخبة.

عمرو موسى

ربما مؤسسة ياسر عرفات ستعبر من صفحة إلى صفحة أخرى بهذا الاجتماع بهذا العام كان له معنى مختلف ومضمون مختلف وسوف اتكلم بصفتي رئيس مجلس الأمناء مع رئيس مجلس الإدارة في كيفية تطوير اداء هذه المؤسسة لتتماشى معها وتعالج وتسد الفجوات واضح أنها فعالة الآن بالنسبة للعمل الفلسطيني وشكرا للجميع.